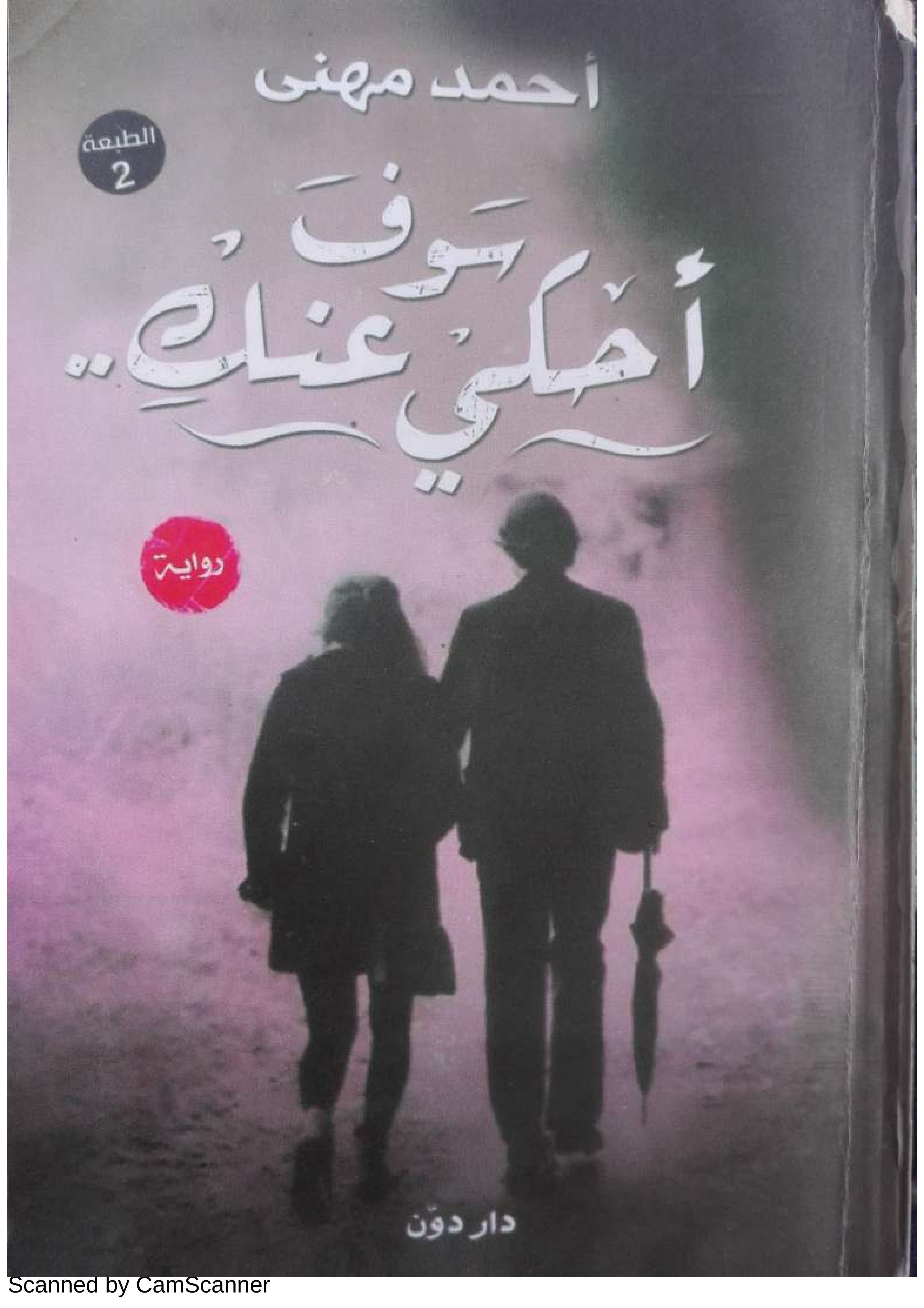
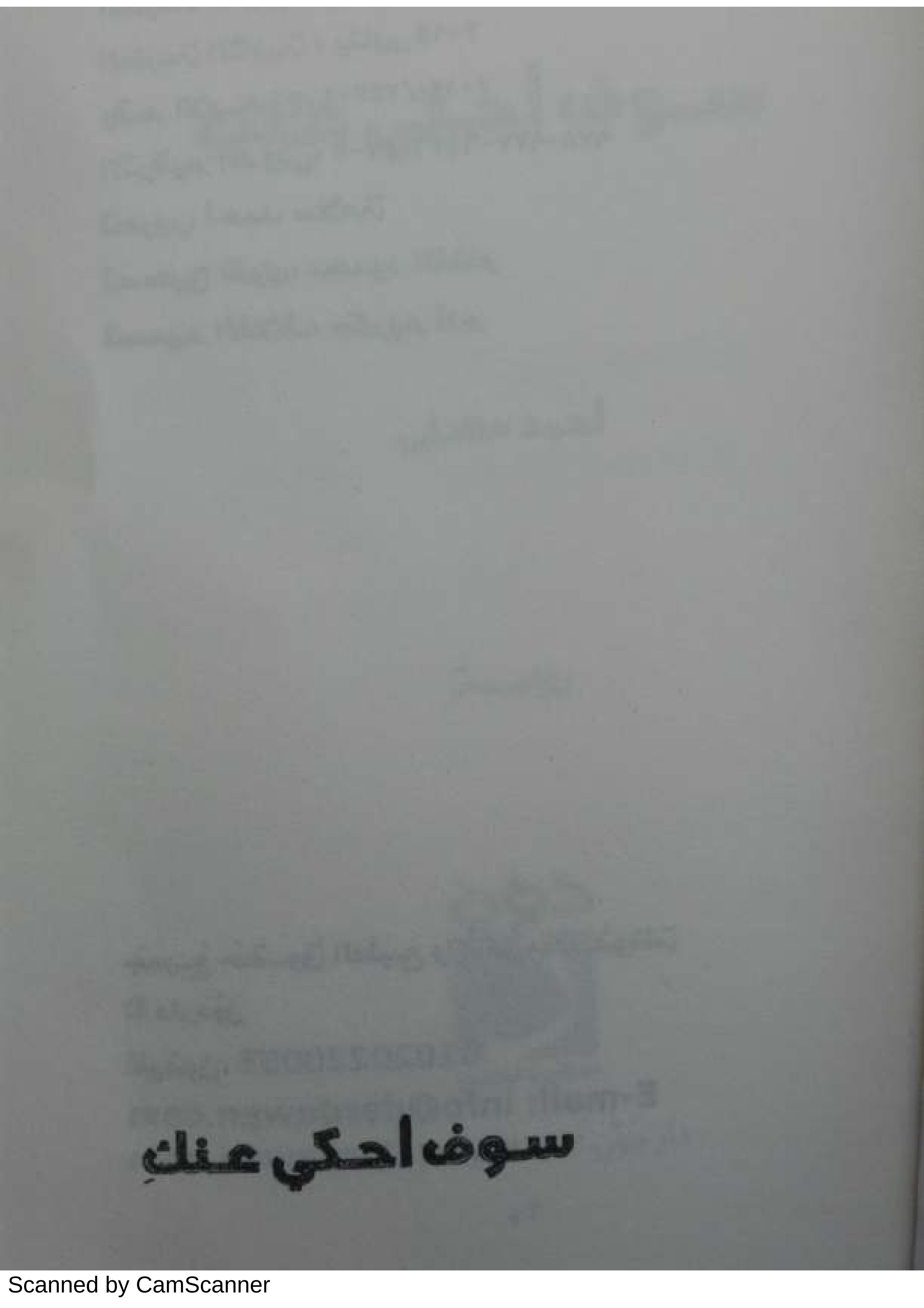

أحمد مهنى
الطبعة 2
سوف أحكي عنك..
رواية
دار دوّن



سوف احكي عنكِ

الطبعة الأولى: يناير ٢٠١٥
الطبعة الثانية : يناير ٢٠١٥
رقم الإيداع: ٢٥٣٠٦/ ٢٠١٤
الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٦٤٢٦-٥٧-٧
تحرير: أحمد سلامة
تصحيح لغوي: محمود الغنام
تصميم الغلاف: كريم آدم

تليفون: 01020220053
E-mail: info@dardawen.com
www.dardawen.com

سـوف احكي عنكِ

احمد مهنى

روايـــة

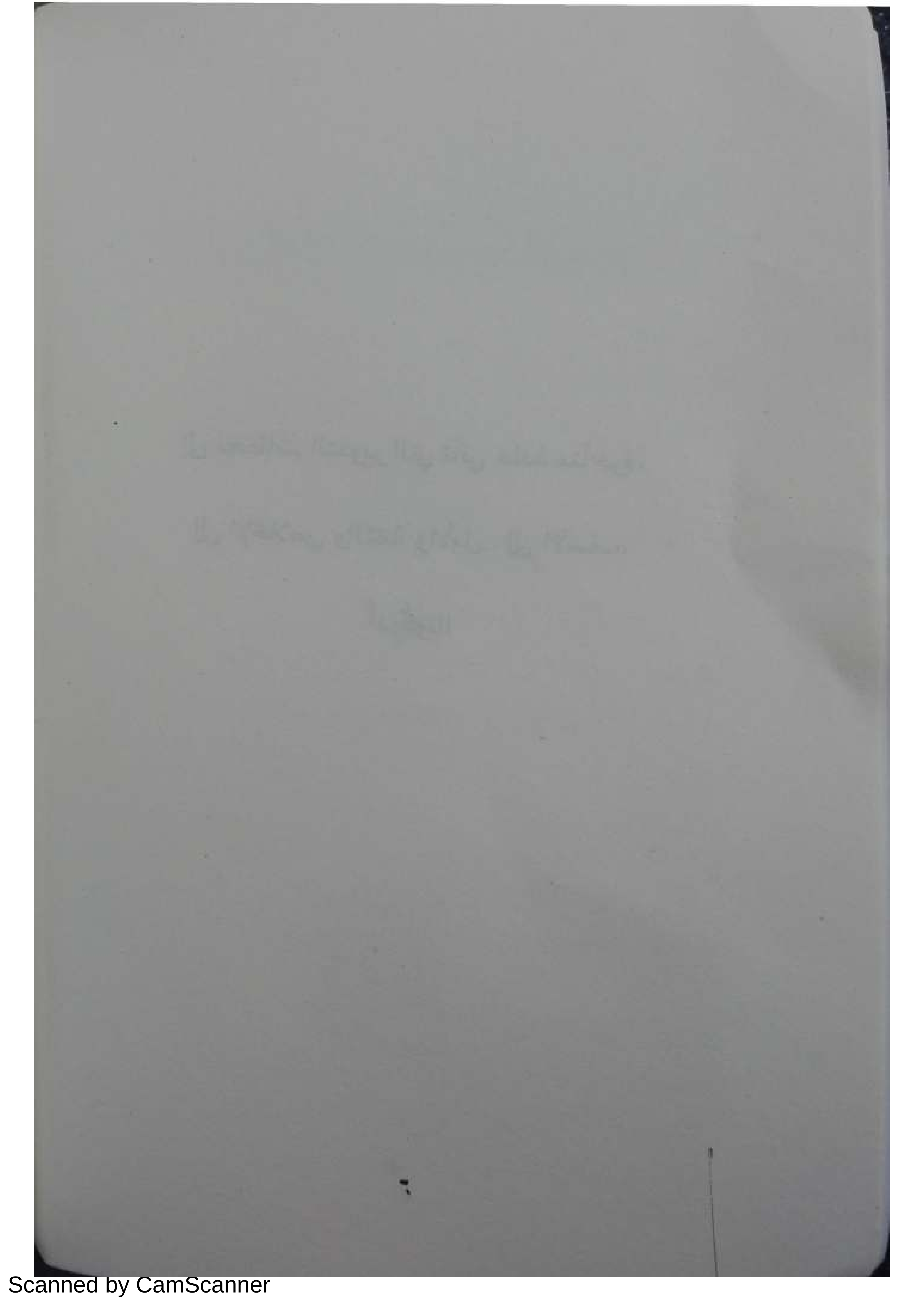


دار دَوّن للنشر والتوزيع

إلى لحظات التنوير التي تأتي عادة متأخرة،

إلى الإخلاص والثقة والأمل.. إلى الأسف،

أدرِكُونا!

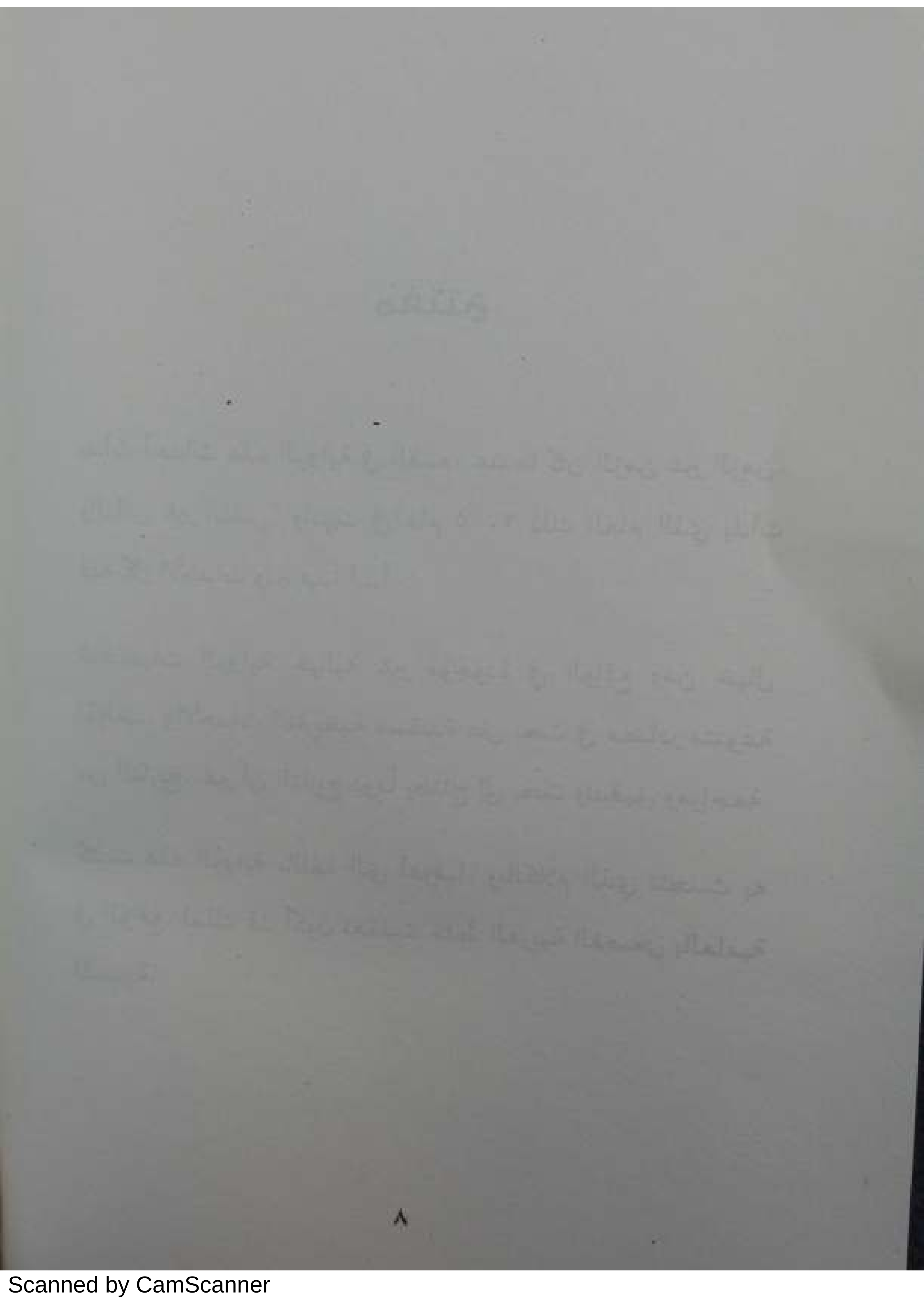


مُفتتح

بدأت أحداث هذه الرواية في القدم، عندما كان الزمن غير الزمن، والناس غير الناس.. وانتهت في عام ٢٠٠٥ ذلك العام الذي بدأت فيه كل الأحداث ولم تهدأ أبداً.

شخصيات الرواية خيالية غير موجودة في الواقع ومن خيال المؤلف، والأحداث التاريخية مستندة على بحث في مصادر متنوعة من التاريخ، غير أن التاريخ دوماً يحتاج إلى بحث وتدقيق ومراجعة.

كتبت هذه الرواية باللغة التي أعرفها، وبالكلام الذي نتحدث به في الواقع، لذلك قد أكون تعمّدت خلط العربية الفصحى بالعامية المصرية.



(1)

الدكتور

سمعت أنها تسكن بمكان قريب من هنا.. كل شيء في ذلك المقهى يُذكّرني بها، حتى ذلك القهوجي الودود. يقولون إن ذلك المقهى وكل العمائر المحيطة به كانت أرض مقابر، لكن وجود النيل أضفى على المقابر مكاسب غير متوقعة، لذلك نقلو الرفات وأزالو المقابر، وبنوا تلك العمائر الممتدة على الكورنيش حتى هنا. اتصلت بصديقي القديم لأسأله إن كان قد علم أي شيء عنها فلم يرد. أشرت إلى «رزق» بيدي من بعيد فاقترب مسرعاً وهو يبتسم ويقول: «والله العظيم يا بيه ربنا وحده يعلم أد إيه أنا بفرح لما بتكون موجود، حكم يا بيه مش كل الزباين زي حضرتك». ابتسمت له وطلبت قهوة مظبوط، لا أجد قهوجياً غير «رزق» في هذا المقهى تقريباً. في أي وقت آتي أجده هو، لا أعرف إن كان هناك شخصاً آخر أم إنه يقيم هنا دائماً. أحضر إلى هذا المقهى

منذ ثلاثة أشهر تقريباً، أكاد أحفظ كل ما يردده الناس هنا. الأستاذ «شاهين» دائماً يلعب الطاولة وهو يؤنّب خصمه على سلبية المجتمع، وعم «سيد» التاكسجي يسرد حكايته التي لا تنتهي مع الشوارع، «رزق» القهوجي لا يتحدَّث مطلقاً، دائماً ما يقف أمام مدخل المقهى يستند بظهره إلى إحدى الواجهات الزجاجية يدخّن سيجارة وينظر نحو النيل، أحياناً لا يترك سيدة أو فتاة تمر أمامه إلا ويتفحّصها جيداً وأحياناً أشعر وكأنه غير موجود، عجيب أمره، يعاملني باحترام مبالغ برغم شروده الدائم مع الجميع، لو علم أني طبيب ربما يزيد من تودُّده.. ربما يطلب كشفاً مجانياً. أحضر «رزق» فنجان القهوة، ووضعه أمامي برفق ثم انطلق مسرعاً.. اتصلت بصديقي مرة أخرى ولم يردّ.. كان المقهى في مقابل كورنيش «المظلات» مباشرة.. تستطيع أن ترى النيل من داخل المقهى، بعد العصر يطوي «رزق» الشِيش من واجهات المحل الزجاجية فيبين النهار بضوئه غير المشمس، كنا في مثل هذا الوقت نجلس أنا و«ليلى» بمقهى «السمان» بالإسكندرية... يومها.. في آخر يوم رأيتها، ذلك اليوم القريب البعيد، كنا قد اتفقنا على تفاصيل الخطوبة، تحركنا من أمام الجامعة سيراً حتى وصلنا بحري، لم نجد مكاناً في مقهى «فاروق» فجلسنا بـ«السمّان».. في الداخل كان المقهى مزدحماً، لكن أحدهم أشار إلى ترابيزة فارغة في

الجزء المرتفع من المقهى، صعدنا ثلاث درجات ثم خطونا إلى الترابيزة.. كانت عليها مفارش صفراء وعلى أطراف المفرش علامة «ليبتون» الصفراء، جلسنا في هدوء، ولفت انتباهي فتاة يبدو من مظهرها أنها لعوب تجلس خلف «ليلى».. كانت تجلس منفردة تدخّن سيجارة، وتنظر نحو شخص يجلس مع فتاة أخرى.. كانت تتحدث مع الرجل وكلما لاحظت نظراته للفتاة المنفردة مسكت ذقنه وحرّكت رأسه نحوها هي، لم تكن التصرفات طبيعية.. أحسست وكأنها منافِستها في المنطقة.. غير أن الفتاة المنفردة كانت أكثر جمالاً. أشار الرجل للفتاة الوحيدة برأسه كتحيّة عابرة منه، فردّت بغمزة من عينها، ولم يقاطعهما سوى القهوجي وهو يضع لها كوب ليمون، اقترب منا القهوجي فطلبت «ليلى» فنجان قهوة مظبوط، وأكدتْ عليه أن يحضره في فنجان، وطلبتُ ليموناً فغمز لي ومضى مسرعاً.. منذ أن عرفتها وهي تفرط في شرب القهوة، نصحتها أن تقلل من شرب القهوة ضاحكاً وأنا أحاول إخبارها مازحاً بأنها ستفسد جهازها العصبي وعندما نتزوج لن تشعر بشفاهي تلمس بشرتها، وكانت تضحك وتقول: «متحاولش تقنعني إنك بقيت دكتور.. إنت لسه تلميذ في كلية الطب».

•

لم تتوقف «ليلى» عن إضفاء صفة التحدي في كل شيء تفعله، وحدها تقتنع بما تريد أن تقتنع به ولا تسمح لأي شخص مهما كان أن يثنيها عن إرادتها، عنيدة حدّ الموت، لكن في اليوم الأخير بدا عليها القلق، ألححت عليها أن تخبرني عن السبب ولم تجبني، تعللت بعدة أشياء في الدراسة والكلية وأصدقائها، وسألتني عما سيحدث إذا دخلت الجيش بعد تخرّجي، لم أكن قد أعددت أي تخيل لهذا الاحتمال من قبل، فكرت في كل شيء باعتبار أنني سأنهي دراستي ونتزوج ولم أفكر في الجيش، قلت لها «لا تقدّري البلاء قبل وقوعه» يمكن لأي شيء أن يحدث إذا أصابني الدور ودخلت الجيش، أبي يستطيع أن يفعل أشياء كثيرة، لا أعرف تحديداً ماذا يمكن فعله.. حينها تخيلت أنني عاجز عن تدبير أموري بنفسي، قلت لها ربما أهرب من الجيش، وبعد مرور الوقت أدفع غرامة ويا دار ما دخلك شر.. نسيت أنها تكره أي حسّ يدفع إلى عدم تحمّل المسؤولية خاصة إذا كانت مسؤولية وطنية أو كما تحبّ أن تقولها مسؤولية اجتماعية، تخيلت أن كلماتي الأخيرة أثارت حفيظتها، لكنها لم تلتفت لقولي وبدا عليها الشرود، تنهدت وطلبت عنّاباً.. كانت «ليلى» تنظر نحو البحر بعينين هادئتين، لطالما لمحت في عينيها ذلك الفتور، لكن الفتور في عينيها يحمل خلفه دائماً ثورة خبيئة لا يدركها سوى من اقترب من «ليلى»،

الفتور في عينيها سرعان ما يتحول إلى ثورة ملتهبة وكأن نيران العالم أجمع تشتعل داخلها، حتى تحول لون عينيها إلى هذا السواد الدامس من فرط الاشتعال، لم تكن على قدر مبهر من الجمال الاستثنائي، جمالها كان هادئاً، لكنها كانت جذابة، تستطيع أن تثير حولها الفضول وتلفت لها النظر، براقة برغم كل ما في عينيها من غموض.

سألتها مرة أخرى عن سبب شعوري بأنها ليست كعادتها، ولم تلتفت، كان ضوء الشمس خارج المقهى ينسحب تدريجياً فطلبت مني أن نتمشى أو نفعل أي شيء.. لم أُرِدْ مغادرة المقهى قبل أن أعرف أي الفتاتين في الجوار ستنتصر على الأخرى، حاولت إلهاءها عن رغبتها هذه لدقائق. لكن إلحاح «ليلى» جعلني أمتثل لرغبتها.. تمشينا قليلاً في اتجاه بحري، وكان محل آيس كريم «النظامي» مكتظاً، قلت لها مازحاً: «هتقولي ما لك وإلا مفيش آيس كريم» مازحتني بعناد وقالت: «هجيب لنفسي». جلسنا على الشاطئ المقابل نأكل الآيس كريم، وكان هناك بعض من الوافدين من خارج الإسكندرية يلتقطون صوراً تذكارية بالقرب منا، رأيت الشمس تنحسر خلف قلعة «قايتباي» على امتداد نظري، بينما العديد من مراكب الصيد الصغيرة تملأ الأفق من خلفنا، همست

لي «ليلى» وأشارت نحو الوافدين، كان أحدهم يلتقط صوراً، وهو ينفث دخان سيجارته بعنف، وبعد أن انتهى من التقاط الصورة ألقى سيجارته في الماء، فهمت ما تقصده، اقتربت مني وقالت: «متوحشين.. إسكندرية بتنزف كل ما يجيها البقر دول». وجدت أن الوقت مناسب لأزايد على اشتراكيتها فقلت لها: «أظن من حقهم يشاركوكي إسكندرية، محدش بيسرق الوطن من حد، مش دا كلامك؟». قالت بتحدٍ: «بس البقر مش بيشاركوا الناس الوطن، دول محتاجين تربية». لم أكن في مزاج يسمح لي بالجدال معها، خاصة وأنها تصر على رأيها في كل مرة ولا ترضخ أبداً لكلامي، كان محل «النظامي» قد ازدحم جداً، وقد انحسرت الشمس تماما ولم يبق غير سماء رمادية أوشكت على السواد، قلت لها «عاوزك في مشوار صغير»، وابتسمت ولم تمانع.

اقترب «رزق» بابتسامة قلقة، وقال: «سجايرك خلصت يا بيه، اتفضل سيجارة»، ومد يده بسيجارة «سوبر».. وقعت في غرام السجائر السوبر منذ جئت إلى القاهرة، كنت أعرف أن كل شيء يؤدي إلى الموت حتماً، يجب أن يكون شكله جميلاً وجاذبيته مفرطة.. ولم يتحقق ذلك في السيجارة السوبر، كانت تخبرك بأنك على وشك الموت، سيجارة تبدأ ولا تنتهي، طويلة، متناسقة،

أوراقها رقيقة، لكن مع أول نفَس دخان يدخل صدرك وحتى قبل أن يصل إلى صدرك، كنت تشعر وكأن كل الخلايا تشتعل وتشتعل معها الذكريات والأفكار واليأس، ولم يكن شيئاً يناسبني في ذلك الوقت مثل اليأس، اليأس وتلك السيجارة.. طلبت من «رزق» أن يجلس إذا كان يحبّ ذلك، شكرته على السيجارة واعتذرت له.. في كل الأحوال لم أنسَ أنني كنت يوماً ثرياً يقطن في «رشدي» بالإسكندرية، وأدخن السجائر المستوردة، لكنني منذ أتيت إلى القاهرة كل مظاهر الثراء، وربما اختفت أية مظاهر أخرى.

اقترب مني «رزق» ولمحت في عينيه احمراراً غريباً، كان طويلاً نحيفاً متهالكاً، وبدأ قتَب يتكون في أعلى ظهره، عندما تراه تشعر وكأنه وصل للتو من سفر طويل مرهق، اقترب مني وجلس، سألني: هو الواحد ممكن يموت عطشان؟ ضحكت بشدة على سؤاله، ولما أحسست أني أحرجته سكتّ فجأة، ولم أستطع أن أتلقف للحظات، ثم أخبرته أنه قد يموت أيضاً من كثرة الشرب، تنهّد وهو يقول: «بس أنا هموت عطشان يا افندم»، ثم قام وهو يسألني إذا كانت القهوة قد أعجبتني.. استغربت كلمة «يا افندم» منه، فلم تكن عادته سوى التلفظ بكلمة «بيه»، أردت أن أتحدّث معه أكثر، لكني لم أجد كلاماً فسكتّ، ولم أستطع أن أجيبه عن

سؤاله أيضاً، أنا لا أحب طعم البنّ، ولا أستطيع تمييز الجيد منه ن الرديء، كل ما أعرفه عن البنّ هو أن «ليلى» كانت تحب تناول لقهوة بشدة، وكنت أمازحها كلما شربت أمامي فنجاناً إضافياً. طلبت من «رزق» أن يعطيني السيجارة.. أشعلتها، أخذت نفَساً طويلاً، وارتحت أكثر في جلستي ونظرت نحو النيل.

في ذلك اليوم البعيد.. عندما انتهينا أنا و«ليلى» من الآيس كريم، اتجهنا إلى شارع فرنسا، كانت محالّ الذهب تملأ الشارع، وبين كل محل وآخر تنطلق زغاريد، ويصطفّ أمام المحل مجموعة من العائلات يباركون لعروس مرتقبة، بدا المشهد باعثاً على البهجة، كنا نسير في صمت، ولم تكن تعرف ما أخطط له سابقاً. لمست يدها عن قصد، ولم أجد ردّ فعل، فكرّرتها، ولما حاولت أن أفعل الثالثة لكمتني بقبضتها الدقيقة في كتفي، وقالت: «اتلمّ». توقفت أمام أكبر محل ذهب بشارع فرنسا، وطلبت منها أن تختار هديتها بنفسها.. كنت متلهفاً لبسمتها.. طلبت مني أن نتمشى قليلاً، ولم أعترض... انتقلنا من محل لآخر، كنا نقف أمام كل فاترينة لبضع دقائق، ثم ننتقل إلى أخرى في محل آخر، حتى انتهى بنا الشارع إلى شارع آخر لم تكن أنواره زنبقية صفراء شديدة الإضاءة كتلك التي توضع أعلى واجهات محال الذهب، أمسكت يدي بثقة وجذبتني في

اتجاه المنشية، وسرنا صامتين حتى ضريح الجندي المجهول.. عبرنا الطريق وجلسنا بمحاذاة الشاطئ.. أدرت ظهري لساحة المنشية والجندي المجهول، ونظرت نحو البحر وظلّت «ليلى» تنظر إلى الميدان وظهرها للبحر، كدنا نكون متلاصقين لولا احتمالات النظرات المتفحصة الأكيدة من كل المارة، كان القمر بدراً وقد زيّن تلك السماء السوداء وبقي وحيداً فيها وضوؤه يصنع خطاً من النور متعكساً على سطح البحر، وفي منتصف الخط فلوكة صغيرة بقيت وحيدة لا يركبها أحد في هذا الليل الصقيع، غير أن الغيوم أحاطت بالقمر من كل جهة وكأنها متعمدة أن تخنق ضوءه فخرج من بينها شعاع صغير من النور لا يُرى له انعكاس واضح على البحر، لا أعرف كم مكثنا صامتين وقتها، حتى أدارت «ليلى» ظهرها للناس ونظرت معي للبحر، وقالت بهدوء: «عندنا مظاهرة الصبح، أنا آسفة، لكن مش هقدر أقبل هديتك غير لما بكره يفوت على خير»، سألتها عن احتمالات عدم مروره على خير، وأخبرتني أن الاحتمالات زائدة، فهي المسؤولة عن توصيل صور مطبوعة إلى قيادات تنظيم المظاهرة، ولن تكون تلك المظاهرة كسابقاتها.. بل أعنف بمراحل، أخبرتني بذلك وهمّت بالرحيل، أمسكتها من يدها فظلت واقفة تنظر لي، وأنا بعدُ جالس ووجهي نحو البحر، سألتها إن كانت تريدني معها في الصباح، أخبرتني بأنها

لا يمكن أن تطلب مني ذلك حتى لو كانت تريد. ثم تركتني ومضت. عبرت الطريق وركبت السيارة المتجهة إلى شارع «٤٥» ولم تنظر نحوي.

تتبّعني «رزق» بنظراته الملِحّة غير المفهومة. كنت أحب الانفراد بذاتي والرجوع إلى ذكرياتي القديمة. لكني كلما سرحت قاطعني «رزق» لسبب لا يهمني. اعتدلت في جلستي ثم ناديته. اقترب مني مسرعاً. فسألته إن كانت دورة المياه خالية. وأجابني أن «نعم»... وعندما انتهيت من دورة المياه، وعدت إلى مكاني. كان عم «سيد» التاكسجي يهذي عن «السادات» كعادته. سألته إن كان سيأخذني في طريقه إلى العمل. فأشاح بيده لي وهو يتمتم فضحكنا جميعاً. كان «رزق» لا يزال يتتبعني بنظراته. اقتربت منه وهو ما زال مستنداً على إحدى الواجهات الزجاجية للمقهى، استندت معه على الواجهة الزجاجية وسألته إن كان بالإمكان أن يُخرج كرسيين ونجلس سوياً بالخارج في هذا الهواء المتجدد. قال لي إنه لا يمكن فعل ذلك إلا بعد زوال الشمس، ولما سألته عن السبب قال: «أصل يا بيه كان فيه ظابط بياخد الإتاوة من المعلم كل شهر، وفي مرة طلب زيادة والمعلم قاله منين دي القهوة مش جايبة همها. قام خلّى الحي بشمّعها وحيلك بقى على ما عرفنا نفتحها

تاني، ومن ساعتها مترَبّص لنا، ولولا المعلم هو كبير المنطقة وله إيد في الحي والمحافظة والقسم ذات نفسه مكناش عرفنا نفتحها تانى»، كان يتحدث بشكل درامي ينفعل مع الكلام ويمثله ويتشنج معه ويهدأ حيناً آخر. سألته عن سبب تودّده لي، وقال إنه يتعجّب لأمري، أضع كوفية صوف على رقبتي في عز الصيف، وأجلس وحدي رغم أن كل من بالمقهى تربطني بهم صلة ومعرفة سابقة، وهذا ما يدفعه لمحاولة اكتشافي. كانت تمر أمامنا فتاة ترتدي حذاءً ذا كعب عالٍ ورقبة جلديه، قتربت أن تصل إلى ركبتها، وقد أدخلت الجينز داخل رقبة الحذاء، كان الجينز ينحسر عليها وبدا منظره مثيراً من داخل الحذاء، نفحصتها بتمعن ووجدت أنها مثيره، نظرت أنا و«رزق» في آن واحد إلى بعضنا بعض ثم إلى الفتاة وتابعناها حتى ابتعدت. لا أعرف لماذا جذبني مظهر تلك الفتاة، العقل وحده هو مصدر الإثارة، حين نظرت إليها جالت برأسي ألف فكرة لعوب، رمقني «رزق» بعينه وضحك.. ضحك بشدة وقال لي: «مُزة أصلي بس شعرها عيرة».. فابتسمت ولم أجبه، ثم ضحكت أيضاً بشدة، قهقهت معه حتى تمايلنا، وأخذ يضرب كفّه بكفّي. أحسست بهرمونات النشوة تجتاح جسدي، وكأن كل الغدد الصماء تذكّرت وظيفتها فجأة، وكنت أختلج أختلج من الضحك وكأن نوبات الضحك امتدت ولن

تتوقف حتى دمعت عيني، وبدأت عضلات بطني تنقبض من كثرة الاختلاج، فبدأت أهدأ أنا و«رزق» ونلهث باحثين عن مزيد من الأوكسجين.. نحن نضحك لأننا نفرح، نضحك لأن الأشياء الجيدة تحدث، نضحك لكي ننسى، ونضحك لكي لا نموت كمداً وأحياناً نضحك لكي لا ننسى الضحك!

جلست إلى أقرب كرسي، وتركت «رزق» بالخارج، لم يضحك أحد معه هكذا من قبل، ولم أجد أي سبب للضحك غير الرغبة في الهروب من أي شيء، حتى لو كانت مكالمة في هاتف لا يجيب منذ الصباح، محاولات للبحث عن المبالاة بشيء واحد هو الاستمتاع بلحظة واحدة في الحياة قبل الغوص في لا مبالاة غير منتهية. ضحكت لأني لم أكن أنتظر أخباراً جيدة أو سيئة لم يكن بحياتي ما يدفعني للبهجة أو الحزن، لم أقدم على محاولة للانتقام أو محاولة للابتكار، لا أجد سوى شعور عميق بالندم، ولا أعرف على ماذا أندم.. لكني أندم في كل يوم أكثر من ذي قبل وأندم على عدم الندم من قبل.. منذ أن قدمت هنا وأنا أساوي «صفر»، صفراً واحداً صحيحاً ومكتملاً.. وهل يمكن لصفر أن ينقسم إلى كسور؟!!، إني أهذي، لم أفعل سوى ما يجعلني أظل هكذا صفراً خامداً، لا أصبحت رقماً موجباً ولا أيقنت أن قيمتي سالبة

يصطحبون البنات إلى البارات، وإن كنت لا أمانع لكني لم أحب أن أبدأ، لم أعرف لماذا عرضت عليها القدوم معي، كان يمكنني تجاهلها من البداية، اقتصرت في السابق علاقاتي بمواعدات خارجية، في كازينو أو في شاطئ بعيد بالعجمي، وكانت تنتهي المقابلة عادة بمداعبات صبيانية، والآن معي ساقطة محترفة ويغلّفنا الصمت، بدأت حديثها معي بالسؤال عن «سيجارة»، ولم يكن معي سجائر، قالت: «أنا كنت هموت من الضحك لما طلبت لمون ورايا في القهوة، مين اللي كانت معاك؟. «خطيبتي». «بس مفيش في إيدك دبلة». «هنتخطب قريب». «صاحبتك يعني». ولم أجد رداً، لعلها تستهزئ بي، سألتها عما حدث مع الرجل والفتاة الآخرين في المقهى وضحكتْ ولم تردّ، كان الوقت يمر.. نسكت فترة ونتحدث دقائق، ثم سألتني عن سبب شرودي، وأخبرتها عن كل شيء، كنت كل عشر دقائق أطلب مشروباً إضافياً، واشتريت لها علبة سجائر، هي تدخّن وأنا أتحدّث، قالت: «ليه؟ إوعى تسيبها.. روح لها الصبح وخلّي بالك منها.. من يومين شفت ظابط ابن كلب ماسك شاب زيك تمام، ومكلبش فيه ونازل فيه ضرب، بكره يضربوا البنات، لو مكانك يا أروح معاها يا إما موديهاش». كان الفجر قد اقترب، قلت لها إنني سأرحل وبقيت هي، دفعت

قطعت الشارع كله في سباق محموم مع البرد. يلفحني الهواء فأرتجف وأستقوي عليه فأسرع الخطى. سمعت قعقعة نعل نسائي خلفي يمشي على وتيرة هادئة، ثم بدأ يسرع قليلاً. ولما اقتربت مني بحيث أسمعها قالت: «لمون». وضحكت بصوت ملحوظ. نظرت خلفي فوجدتها هي نفس الفتاة اللعوب التي كانت تجلس وحيدة في مقهى «السمان». تعجّبت منها، وأكملت سيري. وكان بار «الإيليت» يبدو واضحاً على الرصيف الآخر. هممت أن أعبر الطريق. فكررت كلمتها: «لمون». نظرت لها وقلت: «حضرتك تقصديني؟». ضحكت وقالت لي: «حضرتك؟!!». ويبدو أنها استغربت الكلمة. فأومأت لها أنني أقصدها بكلمة «حضرتك». قالت: «هو انت اسمك لمون؟». ولم أجد مفراً من أن أقترب منها دون أن أعلم لماذا.. أخبرتها بأنني سوف أدخل «الإيليت» إذا أرادت أن تأتي معي، ولم ترفض.

في الداخل طلبت لنفسها قهوة. وكنت أظنها ستطلب بيرة، ولم أكن أشرب الخمر. طلبت لنفسي «بيبسي» ولم أتكلّم. كانت ترتدي جينزاً ضيقاً وحذاءً ذا كعب عالٍ وله رقبة جلدية يعلوها شريط من فراء، وقد أدخلت الجينز داخل رقبة الحذاء. نظرت لها ووجهي يكسوه الركود. لم أكن من نوعية الشباب الذين

يصطحبون البنات إلى البارات، وإن كنت لا أمانع لكني لم أحب أن أبدأ، لم أعرف لماذا عرضت عليها القدوم معي، كان يمكنني تجاهلها من البداية، اقتصرت في السابق علاقاتي بمواعدات خارجية، في كازينو أو في شاطئ بعيد بالعجمي، وكانت تنتهي المقابلة عادة بمداعبات صبيانية، والآن معي ساقطة محترفة ويغلّفنا الصمت، بدأت حديثها معي بالسؤال عن «سيجارة»، ولم يكن معي سجائر، قالت: «أنا كنت هموت من الضحك لما طلبت لمون ورايا في القهوة، مين اللي كانت معاك؟. «خطيبتي». «بس مفيش في إيدك دبلة». «هنتخطب قريب». «صاحبتك يعني». ولم أجد رداً، لعلها تستهزئ بي، سألتها عما حدث مع الرجل والفتاة الآخرين في المقهى وضحكتْ ولم تردّ، كان الوقت يمر.. نسكت فترة ونتحدث دقائق، ثم سألتني عن سبب شرودي، وأخبرتها عن كل شيء، كنت كل عشر دقائق أطلب مشروباً إضافياً، واشتريت لها علبة سجائر، هي تدخّن وأنا أتحدّث، قالت: «ليه؟ إوعى تسيبها.. روح لها الصبح وخلّي بالك منها.. من يومين شفت ظابط ابن كلب ماسك شاب زيك تمام، ومكلبش فيه ونازل فيه ضرب، بكره يضربوا البنات، لو مكانك يا أروح معاها يا إما موديهاش». كان الفجر قد اقترب، قلت لها إنني سأرحل وبقيت هي، دفعت

الحساب ووضعت لها خمسين جنهاً تحت حقيبتها فقالت مسرعة: «أنا مطلبتش منك فلوس».

لم أردّ وخرجت ولم أرها ثانية، تمشّيت في اتجاه محطة مصر. كان الهواء يدفعني إلى ذلك الاتجاه، ولم أرغب في مواجهة البرد بوجهي، أدرت له ظهري ومشيت، وعلى مسافة قريبة كان كباريه ليلي على الصفّ الآخر، من النوع الذي تقضي فيه ليلة كاملة تشرب وتشاهد راقصة وتدفع مبلغاً زهيداً.. وقفت أنظر إليه وأصوات الأغاني والصاجات تخرج إلى الشارع خافتة، وارتفع الأذان فجأة، فتوقف صوت الغناء بالداخل، حتى انتهى الأذان، فعاد الغناء من جديد، ابتسمت، تعجبت ومضيت في طريقي، كلنا متناقضون، نوقف الرقص من أجل الأذان ثم نسكر، أسهر مع فتاة ليل في كازينو ثم أدّعي أنني لا أشرب الخمر، وما الخمر غير ما نفعله من تناقض!!، الجميع حيرى، لم أكن سكران ولا يقظاً، كنتُ صفراً خائباً لا يساوي شيئاً، كان الشارع يرمي بي بسرعة في اتجاه محطة مصر، وحين اقتربت كان على يميني سور حديدي كبير يخفي خلفه بقايا مدائن يونانية خربة اختفت تحت الأرض، كم من مدينة غرقت تحت الإسكندرية، لعلها ابتلعت الكثير في آخر يوم لها، كانت «كليوباترا» تجري وتصرخ ولا أظن أن

«يوليوس» أجابها، أشعل الحرائق في المدائن، كان الجنود يجرون ناحية الشمال وكان «أنطونيوس» يزحف ناحية المدينة.. أظنّ أن هذا الشارع وتلك المدينة المهترئة تحديداً القابعة تحت قدمي هي مشهد الحرب الأخيرة.. خرب «يوليوس» الأساطيل حتى لا يصل لها «أنطونيوس»، لكنه وصل.. وصل في النهاية.. تُرى من طعن مَن أولاً؟ لكني متأكد أن هنا تحديداً كان المشهد الأخير، لعل «كليوباترا» صرخت عندما وقع «يوليوس»، لكنها أخذت مكافأتها وأكثر، ولم تستمر الإسكندرية كثيراً بعد ذلك اليوم، إني أهذي.. لم أكن سكران لكني أهذي، نظرت نحو الشارع الخلفي.. أمضيت وقتاً طويلاً منذ أن ذهبت ليلى، كان رجلاً يسير نحوي مترنحاً، بدأ في فتح قميصه ومن خلفه لافتة كبيرة مضيئة لمحل كبير، أحسست وكأني في فيلم سينما، وأن المشهد يقترب من النهاية وسوف يلقى البطل حتفه الآن، ولم أعرف من فينا البطل أنا أم هو.. اقترب مني وزعق في وجهي: «أنت عاوز تعرف منحرفين.. أنا بقى منحرفين»، وكان يبدو أنه خرج حالاً من الكباريه الرخيص، نظرت في كل الاتجاهات في هذه الطرق المفترقة ولم أجد سوانا، استجمعت عزيمتي، وزعقت فيه بكلمة واحدة: «امشي»، فجرى مسرعاً وكأن شيئاً لم يحدث.. سألت نفسي هل ينتهي المشهد بتلك السهولة.. هل يمكن أن تكون الحياة بتلك البساطة، أن

تنتهي الصراعات بكلمة واحدة، أن تكون الحبكة الدرامية رهينة شجاعة لحظية وصرخة في وجه رجل واحد وحسب! سألت نفسي كثيراً كل الأسئلة المتاحة ولم أبحث عن إجابات. كان ضوء الشمس بدأ يظهر، والحركة بدأت تدبّ في الشارع، أوقفت تاكسي وذهبت للمنزل.

يومها فكرت عدة مرات في النوم ولم أستطع، غيّرت ملابسي عدة مرات وعدت مرة أخرى لمحاولات النوم، تخيّلت ليلى تجري ويجري خلفها كلب بوليسي يمسكه عسكري ضخم، وهي تصرخ باسمي، وتكاد أنفاسها تنقطع، وبينما هي تجري تعثرت وسقطت وهجم عليها الكلب والعسكري، انتفضت واقفاً. غيّرت ملابسي مرة أخرى، أخذت مبلغاً إضافياً. خرجت من غرفتي فوجدت أبي في الصالة يجلس متحفزاً، سألني باتهام: «إنت رايح فين؟» ولم أعقّب، سكتَ لحظة ثم قال: «متنزلش النهارده، اسكندرية النهارده مقلوبة، العيال الإخوانجية بتوع الجامعة فاكرين نفسهم رجالة وعاملين مظاهرات، والأمن مش هيسكت، إنت عارف، وكمان محمود بيه كلمني وقالي خلي الدكتور ميروحش الجامعة النهارده». نظرت إليه في شرود مميت، لم أجد أيّ كلمة تقال، وكانت مبرراتي ساذجة، فأخبرته أنهم ليسوا إخوانجية فحسب لكن

المظاهرة للجميع. الكل سيشترك بها. ونهرني بصوت مرتفع: «يعني إنت كنت عارف؟ يبقى أكيد كنت ناوي تروح، طب أنا قاعدلك النهارده لما نشوف آخرتها معاك، طول عمرنا عايشين من غير مشاكل، عاوز تودينا في داهية؟ بقى الكل هيشارك؟!»، وكان نباح الكلب يتردّد بأذني، لم أسمع بقية كلمات أبي. فقط سمعت نباح الكلب الذي يجري خلف ليلى، دخلت غرفتي مجدداً، واستسلمت للنوم العميق.. وكان يوم فرحي على «ليلى»، وكنت قد أقمت علاقة معها وشككنا في حمل، غير أن هول الشك منعنا من التفكير في عمل تحاليل، فعجّلنا بموعد الفرح، وكنا قد اشترينا الفستان من القاهرة، واتصلت بي صباحاً، وطلبت مني أن أشتري لها بوكيه ورد أبيض؛ لتمسكه بيدها في الاستوديو، لكني لم أذهب للفرح، تركتها وحيدة أمام الكوافير، ولم أذهب، وظلّت تتصل بي هي وأهلها، لكني لم أردّ، خرجت إلى المقهى، أخرجت هاتفي المحمول، كتبت لها رسالة مقتضبة تفيد بأني لن أتزوج فتاة أقمت معها علاقة، وطلبت عصير ليمون بارداً.. بارداً جداً، وجلست أشاهد الماتش، وبعد دقائق تلقّيت رسالة من كلمة واحدة «ندل»، وكان كلب كبير يجري ناحية المقهى، ولما اقترب مني انقضّ عليّ فاستيقظت فزعاً وجدت الساعة قد اقتربت من الواحدة ظهراً

ولما اطمأنّ أبي إلى نومي العميق ذهب إلى العمل، نزلت مسرعاً. أخذت مفاتيح السيارة وانطلقت. اتصلت بـ«ليلى» عدة مرات حتى أجابت، قلت لها إن ظروفاً طارئة منعتني من الحضور مبكراً، وسألت عن مكانها، وأخبرتني أنها رجعت للمنزل لتحضّر أشياء. ذهبت إليها مسرعاً، وكان معها حقيبة ظهر متوسطة الحجم. ركبت معي وابتسمت، وطلبت مني أن أسرع. في الطريق لم تكن قلقة مثل الأمس، كانت متحمّسة وثائرة، ومندفعة. وطلبت مني أن أشغّل أغاني لـ«فيروز»، وكانت أول أغنية لها هي «سألتك حبيبي» وكانت تغني.

سألتك حبيبي لوين رايحين

خلينا خلينا وتسبقنا السنين

إذا كنا عطول.. اتلاقينا عطول.. ليش بنتلفت خايفين

ومن مين خايفين؟!

ولا أعرف لماذا كانت تشعر «فيروز» بالخوف! ربما لأننا في زمن قد تغلّب عليه الخوف قبل كل شيء. لكن العجيب لم يكن خوفها، الخوف صار أمراً طبيعياً في بلاد كبلادنا. وزمن كالذي نعيش فيه،

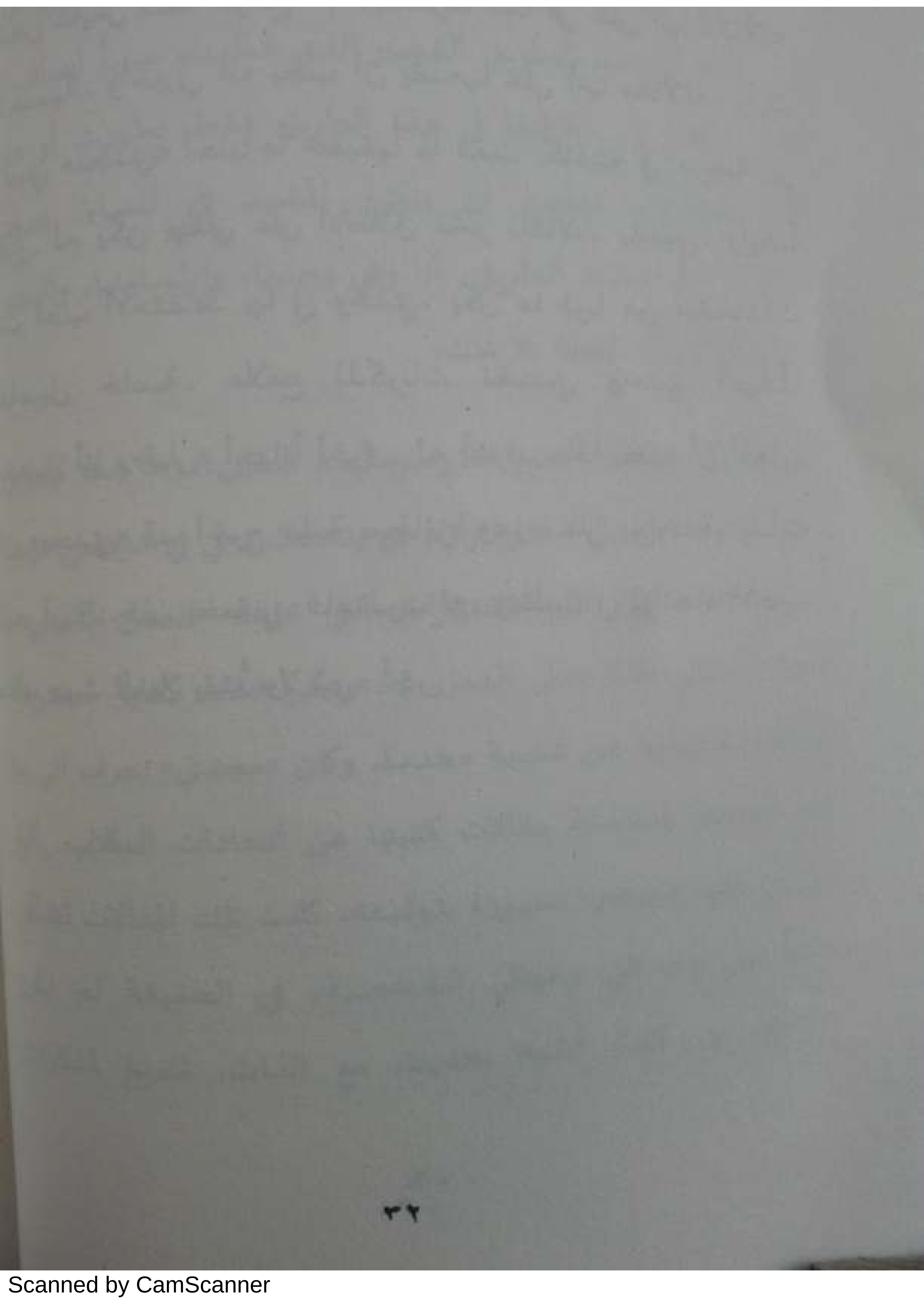
لكن العجيب والغريب وغير المنطقي أن «فيروز» كانت تمشي معه. ولا تعرف سابقاً إلى أين، كانت تمشي معه فقط لتكون معه! كانت تريد أن تبقى مع حبيبها بغضّ النظر عن الرحلة وعن نهايتها، وعن الطريق وعن آخره، المهم أنها بجوار من تحب فقط ولا شيء آخر.. ولما استشعرت الخوف تساءلت: وأين المشكلة في أن نحب بعضنا.. إذا كنا عطول اتلاقينا عطول ليش بنتلفت خايفين؟! إذا كان حبنا في النور وفي الحلال، وإذا وجد كل منا الآخر فلماذا الخوف؟ والأغرب من كل ذلك من مين خايفين؟!

كانت أغنية «فيروز» تستغرقني، وتأخذني من «ليلى»، وكانت «ليلى» تنظر لي وتبتسم، وكأن نفس الأفكار خطفتها للحظات. وجاء بعدها أغنية أخرى، وغنّينا سوياً، غنّينا بصوت مرتفع وواضح وبإيقاع متناسق، وكانت جذابة وجميلة وبراقة، وكنت أشعر أني مختلف وأني ثائر، وأني متحمس لأشياء لا أعرفها. كنت أشعر أني متصالح مع نفسي، وأني راضٍ.. أمسكت يدها فلم تمانع، وقبّلت يدها ولم تمانع أيضاً، وقالت لي: يمكننا أن نشتري الشبكة بالليل، وقلت لها إن فستان الفرح سوف نشتريه من القاهرة، وقالت إن فستان الفرح يوم الفرح، لكن يوم الشبكة سنكتفي بتأجير فستان سهرة، وأكدت عليها رغبتي في شراء فستان

لكلا المناسبتين، وقالت: لا تسبق الأحداث، وقلنا أشياء كثيرة ومبهجة ومليئة بالرغبة والشغف، ومضى بنا الطريق سريعاً فوصلنا، بحثت عن ركنة للسيارة ولم أجد، نزلت «ليلى» وذهبت أنا لأبحث عن مكان أركن به السيارة، واتفقنا أن نتقابل أمام مبنى كلية الآداب، الطريق القصير الذي قطعناه سوياً أضاف لي الكثير، أظن أن علاقتنا في هذا الطريق فقط تطورت أو على الأقل توطّدت، تمنّيت أن يتكرر المشهد في المساء، صوت «فيروز»، مع امتداد الطريق، أنا وهي وحدنا، وابتسامتها، والبحر. إنها جنة الدنيا.. الجنة بلا شك.

كان «رزق» قد بدأ يضع الكراسي أمام المقهى، وخرجت لأجلس معه، لكن «مجدي» حضر، وأراد أن يتحدّث معي في موضوع مهم، أخبرني أنه اجتاز كل الاختبارات التي تؤهله للعمل بالجريدة المستقلة التي طالما تمنّى العمل بها، وتبقى فقط كتابة مجموعة مقالات تحقيقية عن قضية محددة، وكان «مجدي» يعرف أني ما زلت أحتفظ بسلسلة مقالات كتبتها عن اتحادات الطلاب.. ألحّ عليَّ في طلبها وعرضها ممهورة بتوقيعه، كانت تلك المقالات تشكّل جانباً من وجداني وحياتي الشخصية، في الحقيقة لم تكن مقالات، بل كانت أشبه بحديث مع الذات، تفريغ لمذكرات

شخصية وتحليل لمعايشة دامت لخمس سنوات. لم أستطع أن أرفض مباشرة، غلبني حيائي فطلبت منه مهلة للتفكير، ولم يمهلني سوى يومين، سألته إن كان سينشرها على أنها تحقيق مع شخص عايش ذلك الواقع أم سينشرها كما هي على أنها مقالاته الشخصية.. وأخبرني أنه يجب أن يقدّمها على أنها مقالاته.. رأيت في عيني «مجدي» احتياجاً حقيقياً لما قمت بكتابته في مرحلة لن تتكرر.. لم يكن يهمني على الإطلاق نشر المقالات باسمي، وأيضاً كنت أحب الاحتفاظ بها لي وحدي، بكل ما فيها من مشاهدات وتفاصيل خاصة.. ملامح لذكريات تَخصني وحدي أحياناً.. وتخصني أنا و«ليلى» أحياناً أخرى.. لم أعرف ماذا يجب أن أفعل، كان «مجدي» قد أخرج علبة سجائره وعزم عليَّ بواحدة، بدأت أشعر أن الدخان يخنقني، فاعتذرت له، ونظرت في الاتجاه الآخر.. هناك حيث النيل يمتدُّ ولا شيء آخر.



(٢)

مجدي

كنت أحتاج العمل في تلك الجريدة حتى لو اضطررت لأن أقضي سنوات عمري القادمة أحاول جاهداً. الأمر لا يتعلق بعملي كصحفي، ولكن يتعلق بأولاد الوسخة الذين يعملون في تلك الجريدة.. لا يوجد منهم من هو أكفأ مني للعمل بها.. هل سبق وتعرض أحدهم للاعتقال أثناء تغطية صحفية حتى يصبح صحفياً في أكثر الجرائد المستقلة توزيعاً وانتشاراً.. لم أكن متفوقاً كصحفي ومحرر ككل الذين يعملون في المجال، ولكن على الأقل أمتلك القدرة على المثابرة وأعرف تكنيك العمل وهذا يكفي ويزيد.. كل ما يفصلني عن العمل بالجريدة هو ذلك التحقيق الصحفي السخيف المطلوب.. لن أقضي عدة أشهر في تجربة حنبقية لكي أكتب عنها من الداخل.. يلعن أبو دي شغلانة، لسه هستنى كام

شهر جوه تجربة عشان أكتب عنها من الداخل.. لكني سأنتظر! لو لم أحصل على المقالات سأضطر للانتظار أو ربما سأضطر لخوض التجربة والكتابة.. عدة شهور أخرى ليست مشكلة.. المشكلة هي عدم عملي في الجرنال.. لا بد أن يظهر اسمي على الجرنال.. هذا الجرنال تحديداً.. وبشكل لامع وواضح.. لا بد أن يعرف كل ولاد الكلاب إني كان عندي مستقبل بس هما اللي استعجلوا.. لو يقرأ «حلمي المنياوي» المقال.. لو يقع الجرنال في يده فيتصفّحه ويرى اسمي عريضاً ومزيناً «مجدي ميخائيل تادرس» أسفل التحقيق.. لو يعرف أنني الآن أنتمي لوسط نظيف بدلاً من الوسط الزبالة الذي يعيشون فيه هناك.. ياه يا «حلمي».. كل مشكلتي في الحياة تتلخّص فيك.. لن أستريح حتى أثبت لك أنني أنضف من اللي جابوك، وأن مستقبل بنتك معي كان لامعاً.. لولا غباوتك.. وغباوة كل أهل البلد.. تلك البلد التي لا أنساها أبداً.. خمس سنوات مرت على الرحيل من البلد وما زلت لا أنساها.. كل يوم يدفعني الحنين إلى اليأس، كل شيء في ذاكرتي ما زال بكراً لم تلوّثه المدينة.. السيارة القديمة، الحنطور، الترعة، وحتى السينما المحترقة في وسط البلدة.. كل شيء كما هو في ذاكرتي، كنت أرجع من الجيش أركب الحنطور وأقول له «شارع الجلاء».. يضحك ويقول لي: «جرى إيه يا أستاذ مجدي؟ إنتوا عزّلتوا من قبلي ولا إيه؟ ثم

يكمل ضحكته ذات المغزى، فأبتسم ولا أردّ عليه.. هو ليس إلا متطفلاً آخر من أهل البلد.. كل أهل البلد يعرفون بعضهم! كلنا نعرف حكايات بعض.. حتى عم «حلمي المنياوي» نفسه يعلم جيداً أنني أريد ابنته، وكيف لا يعلم وأنا أقابلها كل يوم فترة إجازتي من الجيش.. هناك بعيداً.. بعيداً جداً.. عند الترعة البحرية في أول البلد.. «مريم حلمي المنياوي».. حسناء المركز التي لا تجاريها في الجمال سوى بعض الفتيات من دار الأستاذ «مختار» الناظر.. وباقي بنات المركز كسُر.. عاديات جداً.. لكن «مريم» مختلفة تماماً.. «مريم» حنينة، جذابة ومودرن.. ليست كباقي بنات المركز.. ترتدي ملابس المدينة، وتضع برفان حريمي نار، بدأت أصدّق كلام بعض أصدقاء الجيش بأن الذي ابتكر البرفان الحريمي.. عقابه أن يبقى على الأرض وحيداً.. لا يدخل الجنة ولا النار.. البرفان الحريمي هو الشيء الوحيد الذي يجبرك على متابعة المرأة أو كتم أنفاسك حتى الموت، باقي الأشياء سهلة؛ يمكنك النظر في الاتجاه المقابل مثلاً.. كنت أعرف قدومها من عطرها قبل أن تصل، وعندما أراها أبتسم، تمشي خلفي بمحاذاة خط القطار دون أن نتحدث.. نمشي صامتين بين المزارعين والمارة حتى نصل المحطة.. هناك نركب العربة المتجهة إلى أسيوط.. عشر دقائق ونكون في المحافظة.. وفي المحافظة الواسعة المزدحمة اللقاء يكون أسهل.. «فاضل لك أد

إيه يا مجدي؟ أنا زهقت.. إحنا نعمل نص إكليل لحد ما تخلص
أبتسم وأسكت فتطرق باندهاش، أردّ عليها: «هكلم أبويا يقول لعم
حلمي.. إنت عارفة محدش هيقدر على أبوكي غيره.. بس انت عارفة
أنا مش هشتغل في الفرن والمشاريع اللي بينهم دي.. أنا هنزل مصر
أشتغل صحفي»، ثم أسكت مجدداً، أنظر إليها فأجدها صامتة لا
تنظر نحوي، تنظر أمامها في سكون تام، كم أحبك يا «مريم»، لو
تعرفين ماذا تعنين لي ستدركين جيداً كم أشتاق إليك، لو تعرفين
أنك بمثابة الحبيبة والأم بعد أن تركتني أمي وحيداً منذ زمن،
وسافرت ولم تعد أبداً.. فقط رسائلها تصل محمّلة بالأموال وصور
جديدة لها في عواصم مختلفة.. لو تعرفين أنك أصبحت الأم
والصديقة والملجأ لم تكوني لتصمتي الآن يا «مريم».. تنظر نحوي
وأنا أنظر إليها في شرود، «مجدي.. ما لك؟ بتفكر في إيه؟».. «بفكر
فيكي». تضحك.. نكمل سيرنا.. نذهب إلى كافتيريا الجامعة.. هناك
جنب محل الكشري.. نسرح في بعضنا البعض، يقتلنا الشغف
بالصمت وتستهوينا النظرات حتى نشعر بالحرج من نظرات
الناس.. أطلب لها أرزاً بلبن بالآيس كريم ككل مرة، وأكتفي
بالسجائر والشاي.. ومع كل سيجارة يزيد غضبها مني، فأعدها
بالتوقف وبداخلي ألف رغبة حقيقية تدفعني للتوقف، لكني لا
أمتنع أبداً عن التدخين.. أنا أكثر واحد بطّل تدخين في كل

الأصدقاء! كل مرة أشتري علبة سجائر أقول لنفسي تلك الأخيرة. سأنتهي منها ثم لا أعود مجدداً أبداً. وكل علبة سجائر جديدة تكون الأخيرة! منذ أن كنت مع «مريم» زمان وكل علبة تكون الأخيرة، ثم سرعان ما أشتري أخرى، لكن اليوم أنا لا أريد أن أمتنع عن التدخين.. خمس سنوات تفصلني عن يوم فرحي أنا و«مريم».. خمس سنوات كاملة وكل يوم أتجرّع الصبار.. كل يوم أستيقظ وأتمنى ألا يأتي المساء حتى لا أتذكر الفرح.. خمس سنوات أتناول المنوم مع الغروب حتى أنام قبل أن يطبق الليل، غير أني لا أنام.. كلما مرّ الوقت كلما اعتدت المنوم، ياه يا «حلمي».. لو تقرأ اسمي في هذا الجرنال، لو تعرف أن «مجدي» الذي رفضت زواجه من ابنتك مراراً أصبح ذلك الصحفي المعروف.. حتى تعتريك خيبة الأمل وتذرف دموع الندم على رفضك المتكرر لي، لماذا اضطررتني لأفعل ما أفعل يا «حلمي» الكلب؟ بعد وفاة أبي طمعت في الفرن وأحكمت قبضتك على الدفاتر والحسابات، وأصبحت لا أحصل منك إلا على الشيء اليسير، كل شيء انقلب بعد موت أبي، كل شيء صار أسود.. بقيت وحدي في بيتنا الكبير تتقاذفني الوحدة والألم في بحر من اليأس المميت. صارت صباحاتي متشابهة لا تتغير، في صبيحة كل يوم كنت أتصل بأمي دونما رد وكأنها كانت ترسل لي الأموال والصور فقط لتغيظ

أبي ولما عرفت بموته توقفت! وكل شيء غير ذلك لم يتوقف.. كل الأمور ظلت تتكرر.. تنتهي إجازة الجيش فأستعدّ للرحيل.. المكوجي أصبح يعرف مواعيد كيّ بدلة* الجيش، أنتظر البدلة تأتي مكوية، أسرح في كل شيء نقوم به دون أن ندرك هدفه.. «انتباه يا مستجدّ، لما تسمع النداء تعرف إن حياتك على المحكّ.. النداء هنا يعني كل حاجة.. النداء أبوك وأمك وعيلتك، النداء هو الأكل والشرب والتمارين والنوم والحمام، فاهم يا مستجد منك له؟ الصفارة الأولى الساعة خمسة وتلت.. تجمع بالشورت والفانلة.. الشورت ميكونش سبعة يا مستجد.. شورت مش كلوت.. إنتوا عارفين كويس مين اللي بيلبس الكلوتات.. أشوفك بالشورت والفانلة خمسة وتلت، وتطلع تاني ربع ساعة وتجمع عندي بكامل الملابس الرياضية.. فاهمين؟» ولم نكن فاهمين أي شيء.. كنا ننفّذ الأوامر وكل أمر يتبعه أمر.. ننزل بـ«الفانلة» و«الشورت» لنقف دقيقتين، ثم نطلع مرة أخرى لنلبس وننزل مرة أخرى.. لماذا نزلنا منذ دقائق! لا تسأل.. لا يجب أن نسأل.. الصول أكيد فاهم أكتر مني، الصول يدرك كل شيء.. ليس لأنه متعلم، ولكن لأنه قديم في الجيش.. وهنا كل شيء بالقِدَم.. الرتبة والقِدَم.. وأنا بدون رتبة ومستجد.. كنت أنظر إلى البدلة التي أحضرها المكوجي وأتذكر أني بلا رتبة، ولست قديماً ولست أي شيء، مجرد رقم على لوحتين

معدنيتين صغيرتين، واحدة معلقة في سلسلة في رقبتي وأضع
واحدة على حزام بنطالي؛ لأن احتمالات الموت واردة. وإذا متّ في
التدريب أو في مناورة أو في حرب فإن أغلب الاحتمالات أنني لن
أموت قطعة واحدة.. لذلك لوحة في نصفي الأعلى، لكي يتعرفوا
على هذا النصف، ولوحة في نصفي الأسفل لكي يتعرفوا على هذا
النصف! لوحة معدنية تُصنع في الفاترينات في العتبة بخمسة
عشر جنيهاً.. أنا لست إلا هذه الجنيهات.. على الأقل حتى أنهي فترة
تدريبي.. وحتى تنتهي فسوف ألعق التراب بأمر الصول.. لذلك ولكي
لا ألعق التراب في أول يوم بعد إجازتي قررت أن أنزل سريعاً..
لبست البدلة ونظرت إلى البيت الفاضي.. نظرت وأذهلني ذلك
السكون المقيم حتى إني لم أُطِل النظر؛ لأن قلبي استوحش تلك
الغربة القاتمة المسيطرة على تلك الجدران الضاجرة وذلك الأثاث
المهترئ.. نزلت أجرّ الخطى على سلم البيت، وكلما نزلت درجة
لاحت في الأفق ذكرى لـ«مريم».. «مريم حلمي المنياوي».. ومع كل
درجة جديدة مشهد في عيني لـ«مريم» في يوم مختلف.. كل يوم
يختلف عما قبله وكل درجة بيوم آخر.. كنت أحمل نفسي في
حقيبتي وأجرّ خطواتي نحو محطة القطار، لم أركب الحنطور..
مررت على المخبز عند السوق قبل أن أكمل طريقي.. ذلك المخبز
الذي كان يمتلكه أبي وعم «حلمي المنياوي».. كنت لا أملك سوى

٤٧ جنيهاً.. ٤٧ جنيهاً فقط في هذا الغلاء المستعر! كم يوماً على المرء أن يعيش بـ ٤٧ جنيهاً، كل شيء كان حالك السواد، حتى أمي لم تُجِب اتصالاتي على غير عادتها، سألت عن عم «حلمي» وأخبروني أنه في الدار.. والدار تعني أني سأرى «مريم».. لكني لم أكن أريد رؤيتها في هذا اليوم تحديداً.. كنت يائساً من كل شيء.. تملّكني الإحباط والقنوط وصرت لا أساوي أي شيء سوى لوحتين معدنيتين عليهما بياناتي و٤٧ جنيهاً في غياهب جيب بدلة الجيش الكاكي! يتيم بلا أب، ولم تسعفه الأيام ليكون بجوار أمه.. خيال لإنسان يغلّفه الضجر والخواء. لم أرغب في أن تراني «مريم» على صورتي هذه.. «مريم»! وأين أنا منك الآن يا «مريم»؟؟ أسرعت الخطى قليلاً إلى بيت عم «حلمي المنياوي».. فتحت «مريم» لي الباب، نظرت إلى نظرة ساكنة، ثم تنهدت وأعطتني في يدي صليباً صغيراً من الخشب.. قالت بصوت هامس: «طبّق يدك عليه قبل ما تنام، وعلّقه في صدرك الصبح»، وابتسمت ابتسامة خاطفة ثم دخلت مسرعة، قابلت عم «حلمي» وأخبرته إني محتاج فلوس، لكنه ثار وملأ الدنيا زعيقاً وزئيراً، حتى إنه خرج في الحارة وأخذ ينادي على بعض الجيران: ليشهدهم على أني جاي ابتزّه في بيته، وأطلب منه فلوس، وأخذ يحلف بالمسيح الحي إن ما فيه جنيه بيدخل بيته من المخبز، وإن كل مليم مصروف على مفتشين

التموين والصحة، وإن حصة الدقيق بقت الربع، للحظة أحسست بأن عم «حلمي» يمثل دوراً في مشهد صامت.. لم أعد أسمع كلامه ولا أي كلام، كنت أراه وهو يشخط وينطر ويزعق ولا أسمع أي شيء من كلامه أو كلام الناس، كل شيء تحوّل إلى صوت «وشّ» رتيب تماماً ک «وشّ الراديو» عندما يضيع الإرسال، صوت غير مفهوم ومتكرر ولا ينقطع ويصيب بالتوتر.. حالة من التنميل العام في كل ما يحدث.. دون أن أتحدّث أدرت وجهي إلى الاتجاه الآخر، وتركت «حلمي» يصرخ ومعه الجيران، وأنا في طريقى الافتراضي الطويل أبتعد عن كل ما يحدث في تلك القرية العقيمة المفعمة بالوجع.. يومها، ذهبت إلى طريق طويل لن ينتهي في ذلك اليوم، سبع ساعات للقاهرة ثم ٤ ساعات لمرسى مطروح ثم ٣ ساعات لسيدي براني.. وهناك، حيث لا شيء سوى المسافرين والعائدين من ليبيا.. هناك جلست وحدي أنتظر أي سيارة متجهة إلى أقرب وحدة عسكرية على الحدود مع ليبيا، غير أن الطريق كان خالياً، ٦ ساعات أخرى من المشي إلى «حباطة».. الجحيم على أرض الله هو «حباطة».. «حباطة» هو المعسكر حيث لن ينفعك عملك الصالح أو حسن سلوكك أو أي شيء.. كيلومترات ممتدة من كل الاتجاهات في صحراء خاوية ليس فيها إلا أنا وبضعة جنود وضابط نبطشية، هول من الفراغ والخواء

واللا شيء، جحيم مستعر ولا منتهى من الذكريات الممتدة التي لا يقطعها أي شيء؛ لأنه لا يوجد أي شيء ليحدث، ولا أي شيء ليقطع عليك أي شيء؛ لأن «حباطة» هو معسكر المنبوذين والمعاقبين والمشوّهين نفسياً مثلي؛ لأنه المكان الوحيد الذي لن تدرك فيه سبب وجودك في الدنيا، ولن تدرك فيه ضرورة حياتك ولن تنشغل فيه بشيء سوى التفكير في أي شيء يجعلك مشغولاً عن الجنون. كنت أمكث وحدي في عنبر فارغ مساحته ألف متر مربع من الفراغ المميت، ويحيط به بضع كيلو مترات لا أعرف عددها من المعسكر الفارغ الذي لا تسمع فيه جِنّ سوى ٣ صفارات يومياً هي مواعيد الأكل، ثم يحيط به امتداد لا متناهٍ من الصحراء الخاوية سوى من صوت الرياح العاتية، فراغ يتخلله فراغ يتخلله فراغ.. الجنون المؤقت يعني كلمة واحدة: «حباطة»، لذلك ليلتها أفرغت حقيبتي وفردت ملابسي وأعدت تطبيقها عدة مرات، وفي كل مرة أتعلل بأني سأطبقها بشكل أفضل؛ لكي تأخذ مساحة أقلّ في الحقيبة.. لكن الواقع أنني لم أجد أي شيء أفعله.. كانت الساعة تقترب من منتصف الليل.. وجدت صليب «مريم» بين الملابس، أمسكت به وتحسّسته، كان فيه من رائحتها، نظرت إلى ذلك الفراغ الواسع خارج العنبر، أحسست بالفراغ يحاصرني ويقتل حتى ما تبقى من رائحة «مريم» في الصليب، لذلك عدت

مرة أخرى أفرد الملابس وأطبّقها.. حتى صعقني نداء الفطور..
فجأة أدركت أنه مضت ست ساعات وأنا واقف مكاني أفرد
الملابس وأعيد تطبيقها!! لذلك بعد كل هذا الألم وكل هذه
الذكريات المريضة والمزمنة، وخصوصاً ذكرى فرحي على «مريم» في
آخر أيامي بالبلدة.. لكل ما سبق أرجو أن يقرأ «حلمي المنياوي»
اسمي بالبونط العريض في ذلك الجرنال؛ لأن كل شيء مرتبط بكل
شيء، ولأنني لن أقبل أن أكون نكرة..

وأين يكون الدكتور الآن؟ ذهبت إلى المقهى لأقابل الدكتور، وأنا
في الطريق اشتريت زلابية وبلح الشام من الكورنيش للأستاذ
«شاهين»، أهو أستاذ «شاهين» دا حكايته لوحده حكاية، كان
المقهى مكتظاً.. دخلت وسلّمت على الأستاذ «شاهين»، وقدّمت له
طبق الزلابية، فأضاء وجهه وضحك وقال: «عارف يا واد يا مجدي
أنا بيعجبني فيك حاجة واحدة بس.. إنك بتراعي مصلحتك،
صحيح إنت نتن ومش بتعمل حاجة جدعنة، بس بتراعي مصالحك
معايا، ماشي يا اخويا مقبولة منك». ضحكت وقلت له: «دي
جازاتي إني بفكر فيك؟»، وذهبت لترابيزة الدكتور باسماً، أخذته
من يده، وخرجنا لنجلس في الخارج في الهواء.
- قررت إيه؟

- في إيه؟

- هتديني المقالات؟

- خدها.. أو ممكن تسيبني أفكر شوية! مش قادر أوصل لقرار.

قالها بالكاد، ولم يكن من حقه أبداً منعي من تلك المقالات، كان كالجرادة الحزينة الممصوصة والعالقة في مكان لا يراه أحد في أعلى شجرة نائية بجزيرة غير مأهولة على شاطئ لا تصل له السفن. لا أعرف بأي حق يمنعني من نشر المقالات بدلاً من ركنها في حقيبة يعلوها الغبار لم يفتحها منذ أن جاء إلى القاهرة وسكن معي في شقتي! لم يكن من حقه أبداً أن يؤمّم أحلامي وطموحاتي ويختزل ثأري من «حلمي المنياوي» في رزمة أوراق مهترئة في حقيبة مركونة في شقة يسكنها اثنان عُزّاب يغلفهما الأسى، فقط لكي يحتفظ بذكرى خائبة لفتاة في مدينة بعيدة لا يعرف عنها شيئاً.

نظرت إليه مرة أخرى، ونفثت دخان سيجارتي في الهواء، كان صامتاً لا يحرّكه أي شيء.. اقترب منا «رزق»، وقف صامتاً ممسكاً صينية فارغة و«ماشة»، نظرت لكليهما في قرف، وقلت لـ«رزق»: وانت إيه اللي جرالك انت كمان؟» نظر لي وسكت ولم يرد، وكأن الصمت يلتهمه من الداخل، لكن كوباً فارغاً به بقايا من تفل شاي على ترابيزة مجاورة اهتزّ مع ضحكات بعض الجالسين،

وسقط فانكسر، جعل «رزق» يتحرك مسرعاً دون أن ينطق لكي ينظف الأرض من كسر الزجاج المتناثر، في اللحظة التي سقط فيها ذلك الكوب نظر الدكتور إلى الكوب المكسور.. لمحت شيئاً على رقبته لم أره من قبل.. تزحزحت الكوفية قليلاً عن رقبته من الخلف، فلمحت ندبة بدت وكأنها بقايا وشم قديم تم التخلص منه بالكيّ.. غير أني لم أتأكد، مرّت لحظات وهو ينظر ناحية الكوب المكسور حتى بعد أن كنسه «رزق»، استفزّني صمته المطبق، جعلني أشعر وكأني غير موجود، في كل الأحوال ما دمت لست موجوداً بالنسبة له فكرت في القيام غير أنه باغتني قائلاً: «بقالي تلات أيام مستني تليفون، مجرد تليفون عشان أعرف هي فين، لكن واضح إن مفيش ردّ لحد النهارده، بالمناسبة أنا لقيت شغل في صيدلية قريبة وهبدأ بكره، باركلي» قالها بابتسامة بريئة لكنها فاترة ليس بها أي شغف من أي نوع أو هكذا بدا لي، تصنعت ابتسامة وقلت له: «مبروك» ثم قمت، وتحسست النظر لألمح أثر الوشم على رقبته، لكن الكوفية أخفته خلفها دون رجعة. ذهبت مسرعاً إلى الشقة، لم يكن في بالي أي مبدأ ألجأ إليه، كانت حاجتي للمقالات مُلحّة، أسرعت إلى الحقيبة أعلى الدولاب وأنزلتها وفتحتها، كانت ممتلئة بملابس شتوية وأشياء تذكارية.. ساعة ومحفظة وامتحانات للمرحلة الابتدائية حصل فيها الدكتور على

درجات نهائية وكشكول كبير ممتلئ بكلمات للذكرى من أصدقاء لا أعرف من هم، وحقائب بلاستيكية كثيرة لم أفتحها، ودوسيه به المقالات، أخذت الدوسيه دونما تفكير، نزلت أجري إلى أقرب محل تصوير، كنت أتلفّت حولي وكأني «قتلت قتيل»، صوّرت كل المقالات، كانت كلها بخطّ يده، وفي آخر ثلاث ورقات انقطعت الكهرباء، كان العرق يتصبّب من رأسي، وبدا التوتر عليّ، خفت أن يرجع الدكتور إلى الشقة ويجد الحقيبة مفتوحة، جريت بسرعة وأعدت الدوسيه مكانه، لكني احتفظت بآخر ثلاث ورقات من الدوسيه لأكمل الأوراق، أعدت الحقيبة كما كانت، ونزلت أجري، كنت أمشي مسرعاً متلفتاً والأوراق بين يديّ كقتيل يسيل دمه، ويوشك أن يفضحني أمام الجميع، أسرعت الخطى ولاحقني صوت كلاكس سيارة يسرع ويلح، وكأن هناك تحذيراً مهماً من أمر خطير، نظرت خلفي فوجدت عمّ سيد في التاكسي يشير لي، كدت أبول على نفسي من الخضّة، لم أعرف ماذا عليّ أن أفعل، ووجدتني مستسلماً تماماً للدهشة وللموقف وللخوف، حتى انتبهت على كلمات عم سيد: «جرى إيه يا أستاذ مجدي إنت مش سامعني، ما تركب».

تركت عم «سيد» يتولى الموقف كما يشاء، ليس لأي سبب، ولكن لمجرد أني تهت ولم أعرف كيف أتصرف، سكتّ تماماً وتمسّكت بالورق كما لو أتمسك بحبل نجاة في مهبّ الريح. «ما لك يا مجدي يا ابني فيه حاجة؟».. «مليش يا عم سيد نزّلني بس والنبي في أقرب مكان لوسط البلد»، كنت أتصبّب عرقاً، وكانت يداي ابتلتا من العرق حتى إني خفت على الأوراق من البلل، لكني لم أستطع أن أقلل من إحكام قبضتي عليها، كان فعلاً لا إرادياً. نزلت من التاكسي وشكرت عم «سيد»، وطلبت منه ألا يخبر أحداً من الأصدقاء بالمقهى أنه صادفني، تعللت بأن الأستاذ «شاهين» كان ينتظرني وأنا مضطر للذهاب لقضاء شيء مهم، وحتى لا أحرج منه، كانت تظهر عليه تعابير عدم الارتياح لكنه دعا لي ومشى، قال: «ربنا يسترك ويوفقك».. أحسست أنه اختار تلك الدعوة تحديداً للاشتباه فيّ! «ربنا يسترك» ولماذا يدعو لي بالستر إلا لو كنت مفضوحاً أو فعلت شيئاً مفضوحاً، لم تكن نظرات عم «سيد» مريحة بالنسبة لي، ولم أكن مرتاحاً على كلٍّ، لكني كنت مستعجلاً، فجأة، توقف الكون عن الدوران، لم تكن الأوراق في يدي! وبهدوء بدأ صوت «الوَشّ» القديم يعاودني، أصبح الميدان كله يمشي بالتصوير البطيء مع صوت «وَشّ» رتيب يصيبني بالتنميل، مع إحساس عميق يدبّ في داخلي بالضياع، لم أجد

الأوراق في يدي، وتذكرت أني وضعتها على تابلوه السيارة، وأنا أفتح باب التاكسي؛ لأن باب التاكسي المتهالك لا يُفتح إلا من الخارج! انشغلت بتبرير موقفي لعم «سعد» ونسيت الورق، وكان الوَشّ يسيطر على المكان وعلى أفكاري وعلى جسدي، أحسست بوجع خفيف يسير بين عروقي من مقدمة يمين صدري متوجهاً نحو كتفي بالكامل، وظلّ الوجع يشتدّ ولا أسمع شيئاً من حولي، وأصبحت كل الناس والسيارات والشوارع مَجازية، لم أكن متأكداً من أي شيء، الأمر الوحيد الأكيد هو أن الله لم يستجب دعوة عم «سيد»؛ لأن الله لم يسترني، أو لأنني لست أهلاً للستر، كانت المرة الأولى التي أتذكر الله فيها منذ فترة طويلة، وكنت ضائعاً وتائهاً وغير مرتَّب، ولا أقوى على شيء ومفضوح ويعتريني العار، وكيف سأبرِّر أمري للجميع ولنفسي، ثم ماذا سأفعل لأعمل بالجريدة. كل ترتيباتي قد أصابها العطب.. لا مقالات يعني البحث لمدة طويلة عن تجربة قد لا تأتي، ثم انخراط لمدة أطول في التجربة، ثم كتابة، ثم... ثم... وطوال كل هذا الوقت ستلاحقني نظرات التصيّد والاشمئزاز، حتى أقرب الناس لي قد يتركني وحيداً في الشقة بعدما ألِفت وجوده، يا ربي ما كل هذا الأسى المتجدد؟ «يا ربي».. ياااه أخيراً لجأت إليه بعد طول فراق، لم يكن أمامي سواه، للحظة بدأ صوت الوَشّ يختفي ويعود صوت الحياة تدريجياً إلى مسمعي،

لكن الوجع في كتفي لم يتوقف، فكرت في الله، واستأنفت سيري، وصلت إلى شارع طلعت حرب، ومشيت وأنا تسيطر عليّ فكرة الاستعانة بالله، في منتصف الشارع توقفت لأشتري سجائر من كشك، وسألت البائع إذا كان يوجد كنيسة بالقرب، ووصف لي كنيسة قريبة.

دخّنت السيجارة، بعدها السيجارة، بعدها السيجارة، حتى وصلت الكنيسة، وعلى أبواب الكنيسة أطفأت السيجارة الأخيرة، واستحضرت في نفسي خشوعاً لا أعرفه، لكني كنت أشعر بالله قريباً مني ويحيطني، كنت ضائعاً، والضائع يتعلق بأي شيء لينجو، التائه يسلك أي طريق فقط لكي يصل لأي مكان، ليس المهم أن يصل لمكان يعرفه أو يريده، ولكن فقط ليصل لمكان يبدأ منه سفراً جديداً وبحثاً جديداً عن مكانه المرتجى، كنت لا شيء، ولم أرغب أن أظل «مستجداً» في هذه الدنيا كما كنت مستجداً في الجيش، لذلك دخلت الكنيسة، وأنا أستحضر خشوعاً، وأحسست بأن الله سيقبلني، وكانت الكنيسة جميلة، كانت تشبه في شكلها سفينة في وضع رأسيّ، مقوّسة من الأعلى بشكل مدبب، يأخذ استدارة خفيفة وكأنها مقدمة السفينة، حكى لي أبي أن السبب في ذلك هو طلب النجاة، استحضاراً لسفينة نوح، ولم

تكن تلفت تلك الأمور نظري، لم أدخل كنيسة منذ يوم فرحي أنا و«مريم»، كانت نهاية أيامي مع الكنيسة. لكني اليوم في حاجة إلى ذلك السلام الذي يكمن في هذا الإحساس المهيب باستحضار روح الرب، دخلت، وكان السقف مرتفعاً جداً، والشبابيك ملوّنة. وكنت أشعر بأن المكان به رحابة ومساحة تتسع لكل المذنبين أمثالي، جلست.. ولم يكن بالكنيسة الكثير من الأشخاص، بضعة أشخاص قليلين جاؤوا مع ذويهم، دعوت الله أن يسترني ويرشدني كيف أتحسس الطريق إلى النجاة، ومن جرّب الكلام في حضرة الرب وفي هذا المشهد الجليل وجد في نفسه شيئاً لا يمكن وصفه، شيء غير محسوس، إحساس بالفيضان، لا يقوى المرء على تحمّل كل هذا التجلي، كنت أشعر بأن الله تقبّلني، وأنه سيهديني سبيلاً قريباً، كان الناس يقلّون عدداً مع الوقت، وبقي أمامي رجل كبير بدأ صوت شخيره يرتفع قليلاً، مرّ بجواري قسّ نظر نحو الرجل ثم نظر لي وابتسم، هممت لأتحدث معه، ثم أوجزت، فبادرني: «الرب يسوع بيقبل أي كسير، بس إنت تطلب منه»، ثم مشى هادئاً.. جريت خلفه واستوقفته: «يا أبونا لو سمحت عاوز حضرتك في موضوع»، جلسنا في آخر القاعة، كنت أتلفّت وأرجو أن نجلس في مكان منفردين، لكنه لاحظ ارتباكي فهدّأني وقال بصوت مطمئن هادئ: «اتكلم وانت مطمن، هنا كل واحد في ملكوت ومحدش

هيركز معانا، احكي متخافش، ربنا بيرعاك وبيحرسك». وكان لأسلوبه أثر عجيب، وكأني لأول مرة في حياتي لم أعد يتيماً. انفكّت عقدة لساني وانطلقت أخبره بكل شيء، من أيام انفصال أمي عن أبي وحتى فرحي على «مريم»، وما حدث بعدها، وحتى انتظار قرار الدكتور بتسليمي الأوراق، لم أقدر على قول أنني سرقت المقالات من حقيبة الدكتور، كنت أحكي له أخطاء الجميع في حقي، وكيف أن الحياة أدارت لي ظهرها، وتركتني وحيداً أصارع زمناً لم أطلب أن أولد فيه حتى، انتهيت من حديثي، وقد أحسست أني أفرغت كل أحمال الماضي، وبقيت غصة في حلقي وألم في كتفي ما زال ينبض بتفكير مضطرب ملحّ عن ماذا سيحدث مساءً على المقهى مع عم «سيد» والجميع، قال لي أبونا كلاماً كثيراً عن الصبر، وعن ضرورة التعلق بالرب وانتظار الخلاص، لكني كنت أنتظر كلاماً مختلفاً، لم أكن أنتظر وعظاً مكرراً محفوظاً أو كلاماً منمّقاً عن أخلاقياتٍ التحلي بها سيفصلني عن هدفي أكثر من ذي قبل، سمعت كلام الأب حتى انتهى، وقد بدت على وجهه استراحة المنتصر، غير أن كل مشاعر الراحة تجاهه تبددت، واستحالت إلى مشاعر غضب وسخرية متوهجة.

سألته إن كان يستطيع مساعدتي في الوصول إلى عمل بتلك

الجريدة، وبدا له الأمر غريباً، قلت له: «بصراحة كده يا أبونا أنا عارف كويس إن الكنيسة واصلة، وليها إيد وعلاقات ونفوذ. كلمة منك لحد من المسؤولين عن الأمور دي في الكنيسة وتشغلوني في الجرنال، وهبقى راجلكم هناك، ومش هنسى أبداً وقفة الكنيسة جنبي». تحدثت كثيراً عن هذا الموضوع وكان وجهه يتغيّر ويتغيّر حتى خرج عن هدوئه ووقف منتفضاً فجأة، وقال بلهجة حاسمة واضحة: «يا ابني إحنا هنا في خدمة ربنا. لا عندنا سلطة ولا نفوذ ولا واسطة، لو حابب تصلي أو حابب نغفر لك هتلاقينا دايماً موجودين، عن إذنك لأن ورايا أمور تانية». تركني ومضى، وأنا أنظر له في حنق وغضب أعمى، نظرت نحو المذبح، ولم تكن أي مشاعر تفيض بداخلي، كنت أشعر وكأن الرب يهزأ بي، وكأن الكنيسة تلفظني، أحسست بأن سفينة نوح تعصف بها الأمواج في قلب المحيط، نظرت للزوار، وكان الرجل العجوز ما زال صوت شخيره يرتفع، أسمعه من بعيد، هزأت من ذلك الملكوت الذي حدّثني عنه الأب، بدت لي فكرة الملكوت رومانسية ومفتعلة، مشيت خطوتين، وقبل أن أخرج من باب الكنيسة، أشعلت سيجارة أخرى، نظرت خلفي نحو الكنيسة نظرة أخيرة لا توحي بأي شيء ولا أفهم لِمَ نظرت، ثم التفتّ ومشيت بعيداً.. بعيداً جداً، وأنا أشعل السيجارة تلو الأخرى.

شـاهين

العب.. وهل بقي لنا سوى اللعب؟!

العب حتى أعرفك، وحتى أفهم ما تنوي وما تبطن وما تعلن وكيف تتصرف، وكيف تخطو خطواتك الحثيثة في رقعة الحياة المدهونة بالصبر، ارمِ النرد لتكشف لي حظك من الدنيا ونصيبك من الأرقام. العب يا دكتور، ومتخافش والحساب عندي حتى لو خسرت، أنا حبيتك من أول يوم شوفتك فيه وإنت داخل مع الواد مجدي النتن دا.. العب يا دكتور جايز تكسب...

وهل بقي لنا شيء نخسره؟! وهل بقي للمكسب معنى أو قيمة؟! نحن وُلدنا في هذه الحياة عراة، مبللين وجائعين ثم تزداد الأمور سوءاً.. لذلك لم يتبقَ لنا غير اللعب، اللعب المطيع والهادئ والمستمر.. منذ متى وأنا ألعب الطاولة والشطرنج؟ لا أدري، لا

أعرف ما الذي دفعني إلى اللعب وما الذي أتى بي إلى هنا، ولا أعرف متى بدأت اللعب حتى، أوليس أمراً عجيباً؟ وجدتني ألعب، فجأة هكذا ولم ألحظ أي شيء، فجأة وجدتني كبرت وعجزت وزادت سني عن الثمانين!! ثمانون عاماً في هذه الدنيا كثير جداً، عذاب سرمدي مقيم لا ينفكّ عن الفتك الرتيب الممل والموجع والسخيف بالأعضاء، وقبل كل ذلك بالعقل، بالأفكار والذاكرة والأمل، أكثر من ثمانين سنة في هذه الدنيا كثير، كثير جداً، أكثر من كل عذابات العالم، أكثر من احتمال الإنسان لنفسه، ثمانين عاماً من التلف والذبول والهلاك والوهن، وهل بقي لي بعد كل تلك الأعوام إلا اللعب.. العب يا دكتور، أهو دُشّ أهو، حظك حلو، دُش كمان وهتبقى لعبتك الجاية خطر، شكل اللعب هيسخن.. يا «رزق» هات شاي للدكتور على حسابي وهاتلي شيشة.

- على فكرة أنا قلقان عليك من كتر الشيشة، خفّ شوية.

- إنت هتعمل عليا دكتور بجد ولا إيه؟ العب يا واد وانت ساكت.

- أنا بلعب بس عشان تحكيلي عن حكاياتك القديمة وعن «عبد الناصر»، لكن لو على اللعب فأنا آخر واحد ممكن يفكر يلعب!

- سيبك من الحكايات دلوقتي، الحكايات مبتخلصش.

الحكايات لا تنتهي على عكس ما نتوقَّع، الحكايات تأسرنا وتحيطنا وتأبى أن تتركنا نلهو في فضاء الأيام بعيداً عنها؛ لأننا لو صرنا بلا حكايات فلن يبقى لنا ذِكر، وهل نحن إلا حُكاية بدأت ولم تنتهِ؟! على كلٍّ أنا لم يعد لديّ الكثير لأحكي عنه، كل من يجلس هنا في هذا المقهى المعتاد، وكل من يعرفني وكل من سكن بجواري أو سلّم عليّ يوماً أو ترافعت عنه في قضية بعد أن عملت في المحاماة، أو صلى بجانبي في المسجد، كل شخص مرّ بجواري، وسمحت لنا الحياة أن نتحدث لبرهة من الوقت لا نعرف مقدارها، كل شخص ركبت بجواره في ترام مصر الجديدة أو أتوبيس هيئة نقل عام، أو صاحبني في قمرة باخرة مسافرة إلى باريس، أو زارني في السجن الحربي يوماً، الجميع يعرف حكايتي التي لا أملّ منها، وهل لديّ ما أفعله سوى أن أحكي، أنا خلاص أدركت من العمر ما لم يصل إليه أبي، وهل سأعيش أكثر من أبي! وهل أنسى أبي؟ «كمال باشا شاهين»، خمسمائة فدان من الفاكهة والمحاصيل الزراعية الممتدة حتى تخال أن ليس لها آخر، أرض يرمح فيها الخيل ولا يصل إلى آخرها، أطيان وأملاك لا حصر لها في أرض تعود ملكيتها الى جدي الكبير، امتلكها كلها في عهد الخديوي «إسماعيل». وجدي الأكبر الذي امتلك الأرض لم يتوقف عن تطويرها وتطوير العزب والقرى من حولها، كل الناس تشهد بذلك، لكن مع الأسف

هؤلاء الشهود كلهم ماتوا وانقضوا ربما قبل أن أولد حتى، لكن جدي هذا كان يهوى التوسّع ويهوى الصيد، سافر في رحلات صيد طويلة في كل مكان، كان لكل رحلة حكايات نسمعها ونحن أطفال. أوقعته ظروفه في أن وُلد لعائلة تعمل في بيع الصقور، كانوا أشهر صقارين في تركيا حينها، وكانت تجارة مهمة ورائجة؛ إذ كان يهوى اقتناء الصقور علية القوم وسادة الناس، هل كانت للصقور قيمة حقيقية؟ لا أدري، لكنها كانت أغلى من الذهب، وكان اقتناؤها وجاهة اجتماعية ومحطاً للمقارنة والتفاخر والاستشهاد، والصقور أنواع وعائلات ورتب، واصطيادها فنّ وصبر وحنكة، لكن عائلة جدي الأكبر تعرضت لحالة من الكساد في الرزق، سافروا أعواماً وجابوا الصحراء والطرقات، حتى وصلوا منطقة نائية في شمال روسيا، ولم يكن للصقور وجود، حتى أتعبهم الهمّ وقضت عليهم الحسرة، كانت العائلة ترحل كلها بحثاً عن الصقور، ولا يذكر أي شيء عن سبب اختفاء الصقور في تلك الفترة، غير أن القدر له تدابير، وفي ذلك المكان البعيد في الصحراء الجليدية في شمال روسيا، في إحدى الليالي القاسية التي اشتدّ فيها الصقيع وأصوات الرياح المذعورة وصفير العواصف، لاح لهم في الأفق كهف بدوي تهتزّ أمامه شعلة تحترق في صمت، ولما وصلوا الكهف وجدوا فيه عائلة عربية من التجار خرجوا في نزهة وغرّهم

مشهد الثلج البديع الذي لا يعرفونه في بلادهم. فأضلّهم الطريق حتى احتموا بالكهف، في تلك الليلة الباردة في ذلك الكهف نصف المضيء ونصف المعتم، وفي هذه الظروف الغريبة كانت بذرة جدي الكبير قد بُذِرت في رحم أمه، وفي صباح ذلك اليوم خرجت عائلة جدي مع العائلة العربية ودلّهم العرب على مصر، قالوا إن صحاري مصر بها صقور لن يروا مثلها؛ لأن صحاري مصر ممتدة وشاسعة وبها جرذان وحيوانات ليل تقتات عليها الصقور. جاءت عائلة جدي إلى مصر، واصطادت صقراً واحداً اشتراه «إبراهيم باشا» بن «محمد علي باشا»، وأغدق عليهم الأموال؛ لأن الصقور كانت نادرة في ذلك الوقت، حينها وُلد جدي الأكبر وسموه «شاهين» أي الصقر. ومن يومها وأصبح «شاهين باشا» جدي صديق الكبراء والخديوية والأمراء، لكنه ظلّ صقاراً أصيلاً يدرك أن بخته معلق بالصقور، لذلك كان يأخذنا جدي في رحلات الصيد، ولما مات كان يأخذنا أبي، كان صيد الصقور هوية العائلة التي لا يمكن التفريط فيها، وكنت أغضب وأتذمر وأبكي لكي لا أخرج في رحلة الصيد، لكن أبي كان يبتسم ويخبرني بأنْ يوماً ما سأدرك قيمة صيد الصقور، كنا نخرج إلى الصحراء، معنا ما يكفينا لعشرة أيام من طعام وشراب، ونبتعد، نبتعد أكثر مما ينبغي، نبتعد حتى يدركنا الوقت، نكتشف أننا مشينا في الصحراء

ثلاثة أيام، حينها لا يبقى للصيد غير أربع أيام فقط وإلا متنا عطشاً في هذه الأرض القاحلة قبل أن يدركنا الموت، في هذا المكان، حيث لا أحد، فقط نحن والشمس المحرقة والرمال، في هذا المكان حيث لا صوت ولا همّ ولا غمّ ولا انشغال، في هذه الصحراء العدمية ينبت الصبر. ننصب الخيمة ونفرغ الصناديق، صندوق به حمامات ملونة، وصندوق به أحبال مختلفة وصناديق بها الطعام. يخرج والدي ويمسك وتداً حديدياً ومطرقة، يبتعد عن الخيمة بأقصى ما يسمح له البصر بأن يرى الخيمة من بعيد، يدقّ الوتد في الأرض ثم يعود، ننتظر حتى تقترب الشمس من المغيب، يجب أن يبتعد عن الوتد حتى تأمن الصقور للمنطقة، قبل المغيب، نذهب جميعاً، نربط خيطاً سميكاً طويلاً في الوتد، وفي طرفه الآخر راية حمراء صغيرة على شكل مثلث.. ثم نربط في هذا الخيط خيطاً آخر رفيعاً لونه أبيض وطويل جداً، أطول مما كنت أتوقع، وفي آخر الخيط الأبيض نربط حمامة صغيرة من قدمها، نضع في الأرض صارياً خشبياً طويلاً ممتلئاً بالنتوءات الحادة والأشواك، وفي أعلاه عشّ، ونضع الحمامة في العش لتكون في مأمن من حيوانات الأرض. ثم نبتعد.. نبتعد إلى الخيمة وننتظر، وفي الليل نغني، ونُشعل النار ونأكل ونمرح ونسمر، نفعل كل شيء، غير أن الليل لم يكن يمضي بسرعة، وكأن الليل لن

ينتهي أبداً، في الصباح تطير الحمامة وننتظر.. أسأل أبي وماذا بعد، يقول: «انتظر».. انتظار يتبعه انتظار يتبعه انتظار، خواء لا ينتهي وسط سكون ليس له مدى، الصمت ولا شيء غيره هو بطل حكاية الصيد تلك، الصمت وحده؛ لأن التذمر سيُجهدك وحدك بين هؤلاء الأشباح الذي أصبح وجودهم كخيالات في ليلة معتمة. ننتظر من الصباح وحتى الزوال، ثم نشعل النار ونغني ونأكل ولا ينتهي بنا الليل أبداً، ثم نصبح فننتظر والحمامة تطير ثم تتعب وتحط وتطير من جديد ولا شيء.. ننتظر حتى يأكلنا الصمت وتفقد أحبالنا الصوتية قدرتها على العمل، نسكت ونتابع حركة الحمامة من بعيد، لاحظت أن الحمامة تطير حتى ارتفاع معين ولا تقوى على اجتيازه، أجنحتها الضعيفة ترفعها لقدر معين، كانت فكرة غريبة لم تخطر لي أبداً، كنت طفلاً حينها وظننت أن الحمامات تستطيع الطيران حتى السحب، لكن الحقيقة دائماً غير بريئة ولا تناسب الأطفال، كان الخيط الأبيض طويلاً بالقدر الذي تستطيع الحمامة بلوغه.. انتظرت حدوث أي شيء حتى أصبح الانتظار بألفي.. وقبل الزوال.. اختلنا جميعاً بطائر يحوم في الأفق، لم نكن متأكدين حتى ارتفعت الراية الحمراء في الهواء، في تلك اللحظة تحديداً ارتسمت على وجه أبي ابتسامة هادئة.. فقط ليس إلا! وكان الجميع يصرخ ويضحك، عرفت حينها أن الصقر صاد

الحمامة، وطار بها لأعلى حتى انتهى الخيط الأبيض وبدأ الخيط السميك الذي به الراية والمثبت في الوتد، ولما ارتفعت الراية جرينا إلى الوتد، شدّ أبي الخيط المربوط برجل الحمامة المسكينة بين مخالب الصقر، غير أن أبي كان قد ربط شبكة من خيط حريري بين أجنحة الحمامة شبكت بها مخالب الصقر وأصبح هو والحمامة شيئاً واحداً.. وهكذا حصل أبي على الصقر.. الحرير والحمام وأيام طويلة مميتة في صحراء بعيدة، وانتظار مديد لكي نحصل على صقر.. صقر واحد فقط.. وكل صقر جديد برحلة كتلك.

ولما كبرت أراد أبي أن أكون ضابطاً في الجيش، كان أبي متصلاً بالكبار، وقد عرف أن المستقبل لرجال الجيش؛ لأن المستقبل لأهل البلد، وكانت أصولنا التركية نخبوية. قال لي أبي يوماً، إن الشعب ومن يثق فيهم الشعب هم الباقون، وأخبرني بأن هناك لعبة كبيرة لا يلتفت إليها أحد، لعبة كبيرة ستغير كل شيء، وأن الجيش هو بطل المرحلة القادمة، لذلك أنهى اتصالاته وأدخلني المدرسة الحربية.. قبل ذهابي إلى المدرسة الحربية بيوم أخبرني أبي بشيء أخير متعلق بالصقور، وقال إن هذا هو سر عائلتنا فقط. الجميع يصطاد بالحرير، لكنه أحياناً يتقطّع، عائلتنا تصطاد

بشعر ذيل الخيول، وهذا سر.. وحفظت السر، حفظته لكن بداخلي.. في أعماق أعماقي كنت أشعر أنني لن أصطاد صقوراً مرة أخرى.. في تلابيب القلب كانت فكرة جديدة فتية تشبّ في قلبي وتسيطر عليه، فكرة الجيش..

الحكايات لا تنتهي يا دكتور، العب وكفاني حكايات، لست إلا بعض الحكايات النادرة والمهترئة والمثقلة بالتقلب والتشفّي والأمل والانكسار، العب، وهل بقي للّعب قيمة؟

- كمل يا عم «شاهين».

- لأ مش هكمل، إذا مكنتش عاوز تلعب، عنك م لعبت، هو حتى حبة اللعب كتير عليا، مش عاوز أحكي أنا النهارده. عاوز أنسى يوم واحد، يوم واحد بس، كتير عليا؟!

زممت فمي وأمسكت العكاز الخشبي، أحكمت قبضتي عليه، وحاولت أن أقوم ولم أقدر، ساعدني الدكتور دون كلمة واحدة، ساعدني بمنتهى الصمت واحترمت فيه صمته، مشيت إلى خارج المقهى، كنا قد جلسنا في المقهى حتى آخر الليل، ولم يتبقّ لديّ رغبة في البقاء، خرجت من المقهى نكِداً ومغلوباً في اللعب، ومغلوباً على أمري من وجع الدنيا وحصار الذكريات.. في الخارج قابلت «سيد» التاكسجي، أعطاني رزمة من الأوراق وقال إن «مجدي»

نسيها معه في التاكسي، وطلب مني أن أسلمهم لـ«مجدي»؛ لأنه مستعجل ولن ينتظر «مجدي». أخذت الرزمة دون تفكير، وطلبت منه أن يوصلني في طريقه. لم يبدُ مرتاحاً لهذا الطلب لكنه وافق. ركبت معه في سيارته المتهالكة، والتي يرفض أن يغيّرها؛ لأنها عزيزة عليه. في الطريق أحسست بأن الشوارع متغيرة، الناس مكتئبون.. حزانى أو حيرى، لا أعرف لكن ما يبدو أن هناك شيء غلط في الناس.. الشعب مكتئب.. حتى البنات الصغيرة في سن الجامعة يبدو عليهن القلق، لبسن البنطلونات الجينز والملابس الغريبة التي تشبه تلك الأطعمة السريعة في المطاعم الأمريكاني. أين ذهبت تلك الفساتين الجميلة التي كانت ترتديها البنات في الخمسينيات والستينيات؟ أين ذهبت تلك القصات والموديلات وحمالات الفساتين ذات الكرانيش والدانتيل؟ أين ذهبت تلك البهجة في قصات الشعر، وتلك الأنوثة في انحسار الفستان على الخصر وكشكشة الذيل، وطقطقة الكعوب؟ كل شيء أصبح مسخاً سخيفاً لا طعم فيه، بل أصبح مرعباً، مرعباً جداً. أنا لم أعد أعرف الشاب من البنت من ظهورهم لولا الحجاب، أصبحوا متشابهين تماماً، حتى البنات لم يعد لديهن «وِسط»، أصبحن صبّة واحدة من الكتف وحتى المؤخرة، شكل هندسي بنفس الأبعاد وكأنه لوح خشبي مستطيل يعلوه طرحة ليس إلا! أين

ذهب «الوسط»؟! ذلك الوسط الجميل المحبب الذي يفصح عن
الرشاقة، هل بقي للرشاقة قيمة؟! لم يبقَ للرشاقة قيمة، الواحد
هذه الأيام لا يجد طعماً لأي شيء سوى البؤس، حتى الفساتين
اتلغت! قاطعني «سيد» التاكسجي: «سرحان في إيه يا أستاذ
شاهين؟» هممت أن أردّ عليه، لكن القرف كبّلني، القرف من
منظر الشوارع والناس والبلد كلها، لكن يكفي أن الرجل يوصلني
إلى البيت، كان الطريق مزدحماً والسيارة بالكاد تمشي، ركبت معه
السيارة منذ ربع ساعة ولم نتحرك سوى بضعة أمتار معدودة،
أحسست بأني عصبي، صرت عصبياً منذ أيام.. قاطعني «سيد»
مرة أخرى:

- «ما لك يا عم شاهين؟»..

- «ماليش، بس الناس مش مبسوطة، البنت بنت ابني بتحكيلي
عن حاجات غريبة، فيه واحد متقدملها من النت، النت يا
«سيد»! البنات مبقاش عندهم وِسْط ومبقوش يلبسوا فساتين،
البت بنت ابني بقت تركّب رموش صناعي يا «سيد»، رموش
وضوافر! الناس بقت مغشوشة! جرى إيه يا بلد؟، جرى إيه؟». لم
أكن أنتظر أي رد من «سيد» التاكسجي، كنت مشغولاً بالطريق
الذي بدأ ولن ينتهي، زحام ممتد عبر الأفق، أضواء حمراء وصفراء
مستفزة وممتدة إلى آخر الشارع في مؤخرة السيارات، قرف لا

ينتهي، كل شيء في حياتي كان ينتهي بسرعة إلا الصحراء، عندما كنت أذهب إلى الصحراء مع جدي وأبي لصيد الصقور كانت الصحراء هي الشيء الوحيد الذي لا ينتهي، لا يزال كلام أبي يرنّ في أذني عن أني يوماً ما سأدرك قيمة الصحراء.. حتى اليوم لم أنسَ ليالي الصبر في انتظار الصيد، وأنا أقبع في صمت ملول حزين، بينما يأكلني جزع الشباب ويشوهني انتظار اللا شيء.. لكن بعد ذلك، في ليالي الكلية الحربية.. في هذا الهنجر المتسع الممتلئ بالأحلام المنسية والمعقوفة بين ثنيات الوسادات الثكلى في هذا المكان المظلم، وحدي مستيقظاً بين مائتين من الطلبة النيام الذين لا ينتبهون لصحوي أو ربما لوجودي، في تلك الليالي المفعمة بالصمت والصبر، كنت أتذكر ظلمة الصحراء في ليالي الصيد، وبعد فترة وجيزة لم يعد يصيبني الجزع، أصبحت مغرقاً في هذه الحالة المرابطة من الانتظار.. ثم اعتدتها ثم آنستها، فأصبحت تلك الحالة الممتدة من السكون هي سلواي الوحيدة، في الكلية الحربية كان كل شيء منتظماً، وكل شيء بمعيار.. كنت خليقاً بأن أكون ضابطاً في الجيش المصري، فتربيتي وعائلتي وجداراتي الشخصية كان لهم رصيد كبير في حياة شاب على وشك أن يكون ضابطاً في الجيش.. لم أفهم في ذلك الوقت ماذا كان يقصد أبي بتلك اللعبة الكبيرة أو تلك الإرادة التي ستجعل مصير البلد في يد

الجيش، لكني أحببت الجيش.. كانت حكايات معركة التل الكبير تسري بين طلاب الكلية والخريجين.. حكايات عن الأميرالاي «محمد نجيب» الذي ترك موقعه في القيادة ونزل بنفسه بين الجنود والضباط يضرب معهم يداً إلى يد، حكايات كثيرة عن شجاعة ذلك الرجل الذي خاطر بحياته وترك رفاهية القيادة ورمى بنفسه في أتون معركة أقرب الاحتمالات فيها هو الموت.. الموت ولا شيء غيره! غير أن حكايات البطولة ولهفة التفاخر لم تكن بديلاً عن الحزن، في اليوم التالي كان خبر استشهاد «محمد نجيب» يجري في أرجاء الجيش كله، كلنا تجرّعنا الأسى من خبر موت بطل، مثّل لنا رمزاً أنار طريقاً في مهد الانتصار.. كان خبر وفاته مكبلاً لكل شغف، وكل شيء في حياة أي فرد مبني على الشغف.. الشغف هو الطاقة التي تدفعنا للبقاء، وهل بقي للشغف قيمة؟! لم يبقَ لأي شيء قيمة.. في ذلك النهار المعتم أدركنا أن النصر يعني الموت ولا شيء سوى الموت، ولم تكن فكرة مرعبة بقدر ما كانت فكرة تدعو للتأمل، لماذا على الطيبين أن يموتوا ويتركونا نتجرّع أسى البقاء في هذا العالم المقرف الذي يصيب بالغثيان؟! لكن فكرة الموت نفسها في سبيل النصر أو الهزيمة أو المحاولة أو التهور أو أي شيء أصبحت فكرة مطروحة. أصبحت فكرة في حد ذاتها، الموت فكرة! وما المشكلة في ذلك، إذا

كان «نجيب» قد مات في سبيل فكرة، ففكرة الموت مقبولة، على الأقل يتبقى فيها بعض الاحتمالات للحياة ولو قليلة.. في نهاية ذلك النهار سرت شائعة مفادها أن «نجيب» لم يُستشهد بل أصيب إصابات بالغة وهو في العمليات الآن.. بلعت ريقي لأول مرة منذ الصباح وبقي في وجهي بعض الرمق يدفعني لانتظار احتمالات مفرحة بنجاة «نجيب».. يومها، ويومها فقط لم أرجُ شيء في حياتي إلا نجاة «نجيب»، وهكذا كان حال كل الضباط في الجيش. في المساء سرت أخبار غير متواترة عن احتمال خروج «نجيب» من المستشفى، هل أخذت إذناً لأترك الوحدة وأذهب إلى المستشفى؟ لا أدري، لكني جريت في الشارع وأنا في بذّتي العسكرية.. جريت حتى وصلت إلى المستشفى.. وهناك كان عدد الضباط والجنود لا يُحصى.. لا أعرف هل كان هناك إذن جماعي بالذهاب أم لا، لكن العدد كان يدعو للفخر.. انتظرنا.. انتظرنا حتى منتصف الليل. وبعدها وقف «نجيب» في نافذة زجاجية، وأشار لنا، وكان هناك شخصان يسندانه.. كان صوت الهتافات والنداءات يتعالى مع صوت التصفيق، وقبل أن تهدأ صدح في آذاننا صوت سوداني يطنّ من الخلف بالنشيد الوطني «اسلمي يا مصر إنني الفدا، ذي يدي إن مدت الدنيا يدا» قالها واستمرّ وأنشدنا خلفه.. أنشدنا دون توقف، أنشدنا والدموع تسيل والأبدان ترتعش، وانضمّ إلينا

الأهالي وتحوّل الشارع كله إلى احتفالية كبرى تنشد« اسلمي يا مصر » ليلتها فقط أدركت كلمات أبي عن أن المستقبل للجيش..

ليلتها لم ينم الجيش المصري كله، للصباح كانت الحكايات والإنشاد، والهنجر الصامت الذي كنت أبقى فيه مستيقظاً وحدي أصبح يضجّ بالحكايات.. حكايات لا تنتهي.. لكني ليلتها نمت.. نمت؛ لأني كنت في حاجة للراحة وللأحلام.

- «جري إيه يا أستاذ شاهين»؟!!

نطق بها «سيد» التاكسجي في تململ وقاطع أفكاري.. قلت:

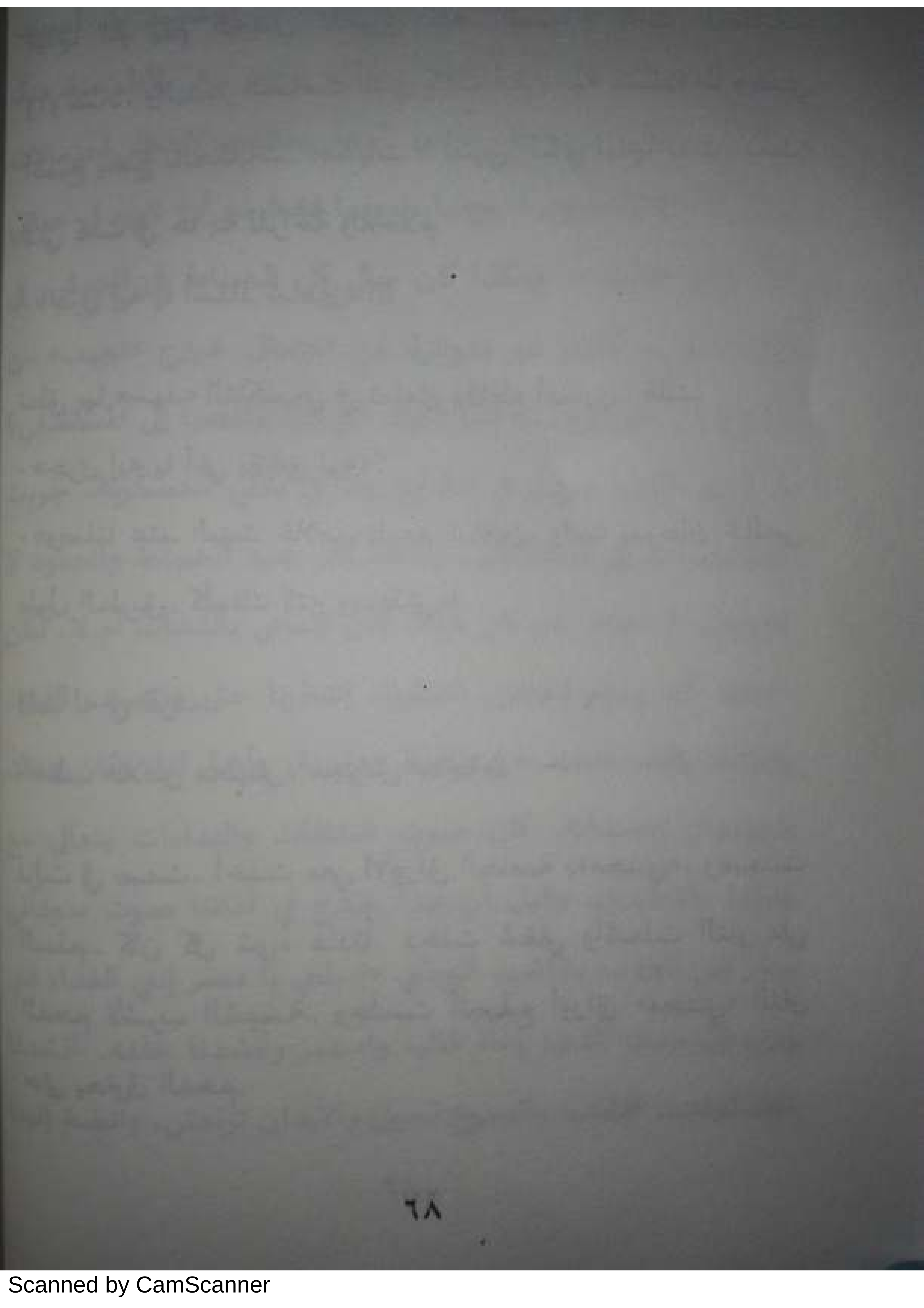
- «جرى إيه يا أخي بتزعق ليه»؟

- «وصلنا عند البيت خلاص يا عم شاهين، وانت سرحان خالص طول الطريق.. كلّمتك كتير ومردتش»!

قلت له في قرف:

- «طب خلاص معلهش، مجراش حاجة»..

نزلت في صمت.. أخذت معي الأوراق الخاصة بـ«مجدي»، وصعدت السلم.. كان كل شيء هادئاً.. دخلت شقتي وأشعلت النار على الفحم لأشرب الشيشة.. وجلست أتصفّح أوراق «مجدي» النتن حتى يحترق الفحم.



الدكتور

أغلقت باب الغرفة التي أعيش فيها مع «مجدي» في شقته، وأطفأت جميع الأنوار، كان داخلي طبيب يئنّ من ألم الروح المكلومة، ومن عطن الانتظار في سبيل مجهول لا يفضي إلى شيء.. كل محاولات البحث عن «ليلى» صارت كأحجية تأبى أن تتضح، كمتاهة في أرض مقفرة مليئة بالنتوءات والعقارب والضباع، أغلقت على نفسي باب غرفتي وانطويت مستسلماً داخل نفسي في كموش مهين أنتظر حدوث أي شيء. حتى لو تخرج تلك النفس الملتاعة من بين جنبات ذلك الجسد المنهك بالأنباء غير الواردة عن حبيبة لم يرها منذ سنين ولا يجد أي وسيلة اتصال بها، حتى أرقامها القديمة باتت مع أشخاص غيرها، وأرقامي القديمة أصبحت مع أشخاص غيري، كل أمل باللقاء صار لصيقاً بالصدفة

فقط، الصدفة ولا شيء آخر.. أي مسخ مشوّه غير معروف الملامح صرت عليه، والتصقت به روحي الثكلى المفعمة بالاحتضار، أي جحيم ذلك الذي ألقى بصهده المستعر في طرقات حياتي فأحال كل شيء فيها إلى رماد أسود متفحم ومنسلخ من كل عتبات الحياة.. أنا لا شيء، حتى الطبيب الذي شبّ يوماً فتياً في أعماق أعماقي لم يبقَ له رمق، ضيّعته الأيام في غياهب القهر والخوف والترقب واللاشيء، ما أجبن الدمع الذي ينشأ بسبب «لا شيء!» صارت حياتي خاوية، ليس بها أي جديد، لا يحدث أمر يؤثر في آخر، ولا شيء يغيّر أي شيء، يا ربي ما كل هذا الخواء المستفز والجزع الذي يدفعني حتماً للجنون! الغرفة المغلقة والظلام، وحدي في المنزل تماماً كصبيحة يوم المظاهرة قبل أن أنزل لأرى «ليلى»، عندما كانت تحاصرني الأحلام من الداخل ويحاصرني والدي من الخارج، يومها.. حينما غنينا مع «فيروز»، لما كان للشوق علامات، وللاشتياق وهج، وللحب طريق، يوم أن كنا معاً وحدنا نغني وننظر للبحر والطريق الطويل المفتوح أمامنا وكأن كل شيء آتٍ هو بالتأكيد أجمل وأنبل وأطهر وأبقى وأنقى، حينها لمست يدها في خشوع مستتر، كنت أرجو فقط أن تستمر تلك اللحظة أكثر من ذلك، ولم أكن أعلم كم أتمنى أن تبقى؛ لأن اللحظات الحلوة وُجدت لكي لا تبقى.. ولكن فقط لنتذكرها فنمنّي أنفسنا

بلحظة مشابهة قريباً.. و«قريباً» هذا لا يأتي أبداً. لذلك، ومع الأسف وقتها كنت أعرف أن اللحظة ستنتهي حتماً وقسراً ورغماً عني، فرجوت فقط لو تبقى للحظة إضافية. بعض الوقت المستقطع الذي يمنح القلب فرصة كانت ضائعة ليغتسل من حزنه الدفين، ويتطهر من رجس الأيام ومن حماقة الماضي، فالقلوب تشقى كما يشقى البدن.. وقد كان حبنا مشتعلاً لحظتها، وأردت أن يبقى هكذا، لم أتمنّ أن تبرد بيننا اللهفة، فيبقى ما بيننا اسمه حب وليس له طعم!

أوصلت «ليلى» للكلية، واتفقنا أن نلتقي بالداخل، وذهبت لأتخلص من السيارة التي تفصلني عن البقاء معها، لم أجد مكاناً للركن بسهولة، وكان الطريق حول سور الجامعة مزدحماً، ولما بدأت أقترب من مصدر الازدحام أوقفني شرطي ومعه رجال في ملابس عادية، لكنهم ينظرون نحوي، طلب مني الرخص، وقلت له إنها سيارة والدي، وردّ بسخافة «طب اركن على جنب لما نشوف موضوع عربية أبوك إيه؟» ركنت السيارة إلى الرصيف، ونزلت منها وفتّشوها. لاحظت أن حقيبة الظهر الخاصة بليلى في المقعد الخلفي، فتحوها فوجدوا بها لافتات ضد النظام.. بعدها لم أعرف من أين تأتي الضربات، حملوني ووضعوني في سيارة ميكروباص،

وسمعت جهاز اللاسلكي يصرخ وشخص بجواري يقول: «لقينا واحد منهم يا افندم». ألبسونى كيساً أسود من القماش، وأنزلوني في أرضية السيارة وانطلقوا، ولا أعرف كم من الوقت ظللنا نسير، لكن ما أعرفه جيداً أنني لم أخرج سوى من ستة أشهر، ولم أجد «ليلى»، ووجدت الأعوام تبدّلت، ومضى على هذا اليوم عام كامل، وأظنّ أنه أطول يوم في حياتي.. خرجت من المعتقل بعد عام من الحبس الاحتياطي غير المبرر، فوجدت كل شيء تغيّر، فصلوا أبي من الحزب، وضيّقوا عليه في تجارته حتى خسر أموالاً طائلة، وأصيب بالشلل من الحزن على ابنه الوحيد الذي مزّقت عمره الزنازين، والحزن على أمواله التي ضاعت وتجارته التي خربت، وهيبته التي تمّ التحرش بها علناً دون مواربة، كان أبي بمثابة رجل النظام الوفيّ المحافظ المتبع السامع المطيع، ولم يتخيَّل أبداً أن النظام والدولة ورجالها سيضحُّون به عند أول صدام؛ لأن أتباع النظام كثيرون، واللافتات التي يجامل بها التجار في الانتخابات، والتبرعات للحزب ولرجال الحزب وللحملات الانتخابية لا حصر لها، ولو راح كلب فهنالك عشرة يلهثون خلف فضلات السُّلطة والنفوذ، لذلك لم يتحمَّل أبي الصدمة ولم يدرك ماذا حدث، خرجت ولم أجد أبي الذي تركته، وجدت شبحاً يتحدّث بلسان أعوج ولا يقوى على الحركة، وجدته منكسراً صامتاً منزوياً، ولم

أجد «ليلى» ولم أعرف عنها أي شيء.. قلبت الإسكندرية والجامعة عليها. ولم أجد لها طريقاً. فقط وجدت نفسي أمشي وحيداً في ساحة الجامعة قرب آخر النهار، وشعرت ببرد الشتاء يجتاحني، وكنت لا أمتلك أي مبالغ للمعيشة، منعتني عزة نفسي من طلب أي نقود من والدي وهو في تلك الحالة: كنت أشعر أني مسؤول عن كل ما حلّ بالعائلة، أخرجت ظرفاً أبيض قد اهترأ واصفرّ لونه به متعلقاتي التي أخذوها مني يوم دخولي المعتقل، البطاقة وكارنيه الكلية وبعض النقود، كانت إحدى ورقات النقود مكتوب عليها رقم هاتف وبجواره كلمة «لمون». ثار في رأسي فجأة دبيب صداع رتيب ممل ليس بالشديد لكنه مربك، اتخذت منحى من الطريق، وانزويت إلى ظلّ ممتد على رصيف جانبي اصطفّت عليه كراسي مقهى بلدي بسيط. كراسي خشبية قديمة. جلست أشرب قهوة زيادة، كانت «ليلى» تقول إن القهوة أحياناً تسيطر على الصداع، ولم أصدّق ذلك. لكن على الأقل كان ذلك الشيء يذكّرني بها، أخرجت ورقة النقود ورأيت كلمة «لمون» ورقم هاتف محمول، يا ربي هل يكون رقم الفتاة التي قابلتها ليلة الاعتقال في كازينو «إيليت»، هل تكون هي فعلاً، ولكن متى كتبت لي الرقم!! وضعت ورقة النقود في جيبي، واتصلت بما تبقى من أصدقاء لأسأل عن «ليلى».. وبعد طول انتظار بدأ وخز خفيف يحلّ على

جبهتي، أصبحت كعجوز شمطاء يأكلها انتظار الموت وهي تجلس وحيدة في بيت كبير يعتريه الصمت المهيب، كل الأشياء البسيطة تبدو منطقية في البداية.. وكل الأشياء البسيطة التي يمكن أن نسألها لأنفسنا.. والتي من المنطقي أن نعرف إجاباتها، مع الأسف ليس لها إجابة! من نحن؟ لماذا نعيش إذا كنا سنموت في النهاية؟ ماذا ننتظر؟ ما هي احتمالات الفرح أو البقاء أو اللقاء أو المستقبل؟ كيف يكون المستقبل؟ ما هو اليأس؟ ما هي السعادة؟ هل السعادة في أن نجد من نحب، أم في أن نعيش معه، أم في أن نجده ونعيش معه دون مشاكل، أم أن نعيش معاً في ظروف حياة كريمة؟ هل لو وجدناه وعشنا معاً دون مشاكل في ظروف متواضعة سنكون سعداء؟ ما هو تعريف الظروف المتواضعة؟ ما هي الظروف أصلاً.. ماذا سيحدث لو مات الأهل ولم نجد شريكاً نكمل معه الحياة؟ لماذا الانتحار كفر؟ ما هي الخيارات المتاحة؟ وهل تلك الخيارات ملك لنا فعلاً؟ وقبل كل ذلك، لماذا دوماً تتصاعد الدراما في حياتنا باستمرار؟ لماذا اختفت ليلى؟ ولماذا نسيت حقيبتها في سيارتي يومها؟ ألم يكن من الأفضل أن تأخذ الحقيبة.. فربما -وقتها- تغيّر كل شيء؟ لماذا تصرّ الحبكة الدرامية أن تكمل قصتي القدرية مع الحياة؟ كل الأشياء البسيطة تبدو منطقية، لكن الحقيقي والمنطقي الوحيد أنه لا يوجد منطق في

كل ما يحدث.. أنا لا شيء، كنت أهذي من جديد في ذلك المقهى عند الظل، وذلك الدبيب والوخز يجتاح جسدي، كنت أهذي وأكفر بكل شيء، عاودت الاتصال بكل الأصدقاء مراراً حتى ردّت عليّ إحداهن، اندهشت لما سمعت صوتي وتلعثمت وسكتت للحظات، سألتها عن «ليلى» وأخبرتني بأن ليلى ارتدت النقاب وذهبت مع العائلة لتعيش في القاهرة، وأن أهلها قطعوا كل وسيلة اتصال بها بعد المظاهرة الأخيرة..

قاطع «مجدي» غفلتي وشرودي في ذكرياتي القديمة، ودخل عليّ الغرفة المظلمة، أضاء النور، وجلس على طرف السرير صامتاً حزيناً ومهموماً، رغبت بشدة في تلك اللحظة البقاء منفرداً، واستحييت أن أطلعه على رغبتي فبقيت ساكتاً.. صمتنا طويلاً، كل منا في سكونه الداخلي المتصل، حتى انتبه «مجدي» لكونه دخل ولم يُلقِ أي سلام.. أخرج علبة السجائر وعزم عليّ بسيجارة، أخذ نفساً عميقاً وابتسم وسألني:

- «هي ليلى كانت حلوة»؟

- عادية، الجمال شيء نسبي.

- «مريم» برضو كانت عادية، لكن كنت بحبها، فكنت بشوفها أجمل بنت في أسيوط.

- كل بنت ممكن تبقى أحلى واحدة أول ما تحب.

- إيه أكتر حاجة كانت بتعجبك في «ليلى»؟

- روحها.. كنا أصحاب جداً.

- وأكتر حاجة كانت بتعجبك في شكلها؟

- برضو روحها!

استشعرت حرجاً يسيطر على «مجدي» لا أعرف سببه أو مصدره، وتوقف الكلام فجأة، فرجوت لو يتركني وحيداً في ذلك الوقت وبسرعة، غير أنه بقي، فبقيت ساكتاً منتظراً أي جديد، وللحظة أحسست بشفقة تجاه ذلك الشاب التائه الحيران الذي يسعى حثيثاً ليصنع ذاته في بلد لا يعرف الذات ولا يؤمن بالمواهب، ولا أنصاف المواهب.. فكرت في المذكرات التي طلبها مني عن اتحاد الطلبة، ورأيت أنه من المنصف ومن الذوق ومن الشفقة أن أمنحه تلك الأوراق المركونة بلا قيمة.. رأيت أنها قد تفيده وتبدل حاله، وربما يكون في ذلك تكفير لما تسببت فيه من أذى لنفسي وعائلتي ووالدي. استحضرت ابتسامة زائفة بالكاد، وقلت:

- «مجدي، المذكرات اللي كنت عاوزها في الشنطة فوق الدولاب، خدها وانشرها، ربنا يوفقك».

ولم يُبدِ «مجدي» أي اهتمام أو فرح أو حتى اندهاش. فقط سكت ونظر لي نظرة لم أفهمها أبداً. ولما استعصى عليّ الفهم قمت وأطفأت النور وعدت للسرير، ولم أنظر لـ«مجدي» فقام. وقبل أن يخرج نظر لي نظرة مرتابة وقال:

- «شكراً».

خرج وتركني وحيداً أسأل نفسي أسئلة متكررة لا تنتهي عن حياتي بكل ما فيها من أحداث. كنت أهرب من الحاضر إلى الماضي. كنت أجد نفسي في الحزن، يستهويني الشجن. عندما أتذكر كل ما حدث لي في الماضي أشعر أني حي. فقط أشعر بذلك عندما أبدأ في الاستسلام لشرنقة الذكريات.. اعتدلت في نومي، ونظرت لسقف الغرفة المظلمة، وتذكرت سقف الزنزانة «٢ حبس انفرادي» في المعتقل، ليلتها.. بعد أن أشبعوني ضرباً وطحناً طوال النهار، أدخلوني في عنبر حجز. الممر طويل ومعتم، به بعض لمبات صفراء تجمّع عليها التراب منذ زمن سحيق. بالكاد يخرج منها ضوء. على اليمين واليسار أبواب حديدية لزنازين مختلفة الأحجام. لكن الحوائط والزنازين بقي عليها آثار من لون بُنّي قديم لطَخته الدماء والأيدي الملوثة، وقذارة الدنيا. حوائط تبعث على التقيؤ والإحباط واليأس والتوتر. كل شيء كان يجول في رأسي هو خراب

قاتم مقيم لا يفضي إلى شيء. فتح المخبر باب الزنزانة وكان في الداخل فتاة وحيدة تدخّن.. زعق فيها «اطلعي برا يا بت». قامت مسرعة تلمّ أشياءها. طرحتها وعلبة السجائر والولاعة وحقيبة بها خبز وبعض الأطعمة. لكنه لم يمنحها رفاهية التلكؤ. فزعق فيها مرة أخرى: «شهلي شوية يا روح أمك» ثم دفعني إلى الزنزانة وأغلقها ورحل.. رحل وتركني وحيداً أصارع هول الموقف. وبالرغم من كونه سجّاني إلا أنه عندما تركني وحدي انتابني خوف ووحدة وجزع ورغبة في أن يبقى معي أي شخص. كانت الزنزانة خاوية تماماً إلا من بضع زجاجات بلاستيكية بها مياه. ومصطبة من الأسمنت ولا شيء آخر.. وقفت أنظر إلى تلك الحوائط الرمادية القاتمة وأتأمل البابين الحديدين للزنزانة.. أحدهما مصمت تماماً وبه شراعة صغيرة تفتح وتغلق من الخارج.. ومن داخله باب حديدي آخر. لكنه مكون من شبكة من الأسياخ. وقفت وحدي. ولم أجد ما أفعله. جالت برأسي ألف فكرة في الثانية الواحدة. كل شيء عاديّ تحوّل فجأة إلى سؤال ليس له إجابات نموذجية أو مثالية أو حتى مجرد إجابات.. الكلية؟ الأهل؟ أمي؟ ليلى؟ المستقبل؟ العمل؟ الطب؟ الناس؟ السيارة المفتوحة والمتروكة في الشارع؟ أبي؟!! أنا؟! أنهكتني الأفكار فهربت منها سريعاً. ونظرت من الشراعة الصغيرة في باب الزنزانة.. لم أرَ أحداً. كانت البنت التي

خرجت من الزنزانة تجلس على كرسيّ خشبي في ممر الزنازين. وخلفها باب حديدي مغلق، لمحتها بطرف عيني بالكاد وهي تدخن سيجارة، نظرت لي باشمئزاز وكأني أفسدت عليها خلوتها الشرعية مع حبيب مرتقب، لم أكن أنا السبب في تكدير صفو ليلتك أيتها الحمقاء، لم أرغب أصلاً في أن أكون هنا أو في أي مكان مماثل. ولم أتمنّ زنزانتك المفضلة تلك، في كل الأحوال لست خصماً لك.

أشحت بوجهي عنها، وفي المقابل كانت شراعة زنزانة أخرى مفتوحة وبها شخص ينظر نحوي بشكل غير مفهوم، كان يعزّ بأسنانه على شفته السفلى.. ابتعدت عن الشراعة سريعاً ومددت جسدي على الأرض، وغفلت، حلمت بأمي تصلّي بجواري في غرفتي بالمنزل، وسمعت أصوات تحركات تحت بيتنا، فخرجت أنظر من الشرفة، كانت مجموعة من عصابات الأمن تطوق البيت في جوف الليل، والبعض بدأ يتسلل إلى البيت، دخلت بسرعة وأنا مضطرب أرتجف، لكن أمي وضعت يدها على يدي وهي تصلي ولم تخرج من الصلاة، أحكمت قبضتها على يدي بشدة حتى استيقظت من غفلتي، كان ثلاثة أشخاص ينظرون من خارج الزنزانة عليّ وأنا ممدد على الأرض، ثم سمعت أصواتاً لعساكر ومخبرين يصفعون البعض ويسبون أمهاتهم، فانتبه هؤلاء الثلاثة وأداروا وجوههم عني، لم يكن بالزنزانة مفتاح لأطفئ النور.. قمت

وحاولت أن أغلق الشراعة الصغيرة ولم أستطع، وجلست على المصطبة أفكر، كان دبيب من الوخز والتنميل يصيب جسدي كله، بتّ مشوّشاً وشبه غائب عن الوعي، أكثر الأسئلة التي ألحّت عليّ هي: متى سيحين موعد تعذيبي مثلهم؟ وبعد قليل انطفأت لمبة الزنزانة وكان نور أحمر خفيف يأتي من شراعة الزنزانة .هو الشيء الوحيد الذي ينير لي بالداخل ويربطني بالخارج..

.

«يا نمرة اتنين» ظلّ هذا النداء وهذا الصوت يتكرّر طوال الليل حتى بدأت أعصابي تنهار من ذلك النداء، جحيم مستمر من النداءات على أحمق لا يردّ على رقمه، تمنّيت لو يقوم نمرة اتنين من سباته ويرد على ذلك الصوت لعله يسكت، لكن أبداً لم يردّ نمرة اتنين على ذلك الصوت حتى سمعنا الأذان، سكت الصوت فقط لحظة الأذان.. ولما سمعت عبارة «الصلاة خير من النوم» أدركت أنه موعد الفجر، لم يكن أي شيء يدل على الوقت، لا شيء يدل على الليل أو النهار، انتظرت حتى انتهى الأذان ثم قمت أنظر من الشراعة، كانت لمبة حمراء صغيرة في سقف ممر الزنازين هي مصدر الضوء الأحمر، نظرت ووجدت الفتاة قد تكوّمت على الأرض ونامت، أحسست أن البقاء هنا يؤدي إلى التكيّف مع أي وضع، وأنني حتماً سأبقى هنا حتى أعتاد التكوّم، والنوم في أي

مكان، فجأة عاد صوت النداء: «يا نمرة اتنين.. يا نمرة اتنين» عاد الصوت ولم يتوقف، تماماً كمنبّه يرن في شقة الجيران بجوار نافذة غرفتك، ولا يتوقف عن الرنين حتى تهلك وتفقد أعصابك ويطير النوم من عينيك، ويسيطر عليك الصداع.. جملة واحدة متكررة رتيبة لا تهدأ.. كنت قد قرأت أن من أدوات التعذيب في السجون ترك صنبور مفتوح بدرجة تسمح لأن تتسرب قطرة مياه واحدة كل بضع ثوانٍ لتسقط في دلو مملوء بالماء، فتحدث صوتاً خفيفاً له وقع رتيب بسيط، لكن ذلك الإيقاع الرتيب البسيط المتكرر قد يدمّر جهازك العصبي تماماً، تخيلت الموقف.. قطرة ماء كل بضع ثوانٍ تُحدث صوتاً يأتي من بعيد ولا ينقطع، بعد ٦ ساعات من الاستماع لهذا الصوت سوف يتوقف عقلي عن التفكير في أي شيء سوى انتظار صوت القطرة التالية، ثم التي بعدها، ثم التي بعدها.. وهكذا حتى أهلك أو أصاب بالجنون؛ لأن العالم سيتحوّل إلى ظلام وصوت متكرر، تخيلت أن هذا الصوت الذي ينادي «يا نمرة اتنين.. يا نمرة اتنين» هو نوع من العذاب الذي سيتحول بعد لحظات إلى صراخ مرعب يمنعني من ترتيب أفكاري قبل التعرض لتحقيق، ليلتها سهرت حتى الصبح لا أفكر في شيء غير متى سيتوقف ذلك الصوت عن النداء.. حتى توقف فجأة، ثم بدأ يسعل بشدة حتى سكت تماماً.. ترقبت للحظات

ماذا سيحدث ولم يحدث شيء، نظرت من الشراعة ولاحظت أن يدي كانت مكتسية باللون الأحمر من ضوء اللمبة الحمراء، وأنا ممسك بحديد الشراعة الصغيرة، لمحت الشخص الذي في الزنزانة الأمامية ينظر لي مرة أخرى، غير أنه لم يكن وحيداً كان معه العديد من المساجين الجنائيين.. نظر لي وقال:

- «إنت سياسي»؟

قلت:

- «مش عارف!».

- «إنت محبوس انفرادي»؟

- «أيوه»

- «تبقى سياسي، نهارك إسود».

لم أردّ؛ لأني لم أحب التورط في مشاكل إضافية، ولم أكن أعرف هل عدم الرد سيورطني في مشاكل أكبر؟ إذ ربما يظن ذلك الشخص أنني تعمّدت إهانته بعدم ردّي، لكن سريعاً عاد صوت «يا نمرة اتنين.. يا نمرة اتنين» تلفَتُّ من الشراعة أبحث عن مصدر الصوت ولم ألحظ شيئاً.. ثم سمعت الصوت يسأل الشخص في الزنزانة المقابلة: «أنت بتتكلم مع نمرة اتنين»؟ وردّ الشخص: «أيوه» فعاد ينادي: «يا نمرة اتنين» سألت الشخص

المقابل لي: «هو بينادي على مين؟»، ردّ باستغراب: «عليك».. فهمت فجأة أني نمرة اتنين، لعنت نفسي آلاف المرات، فلو كنت تنبّهت لذلك منذ البداية لأرحت نفسي من توتر الليل بطوله. رحت أرد عليه:

- «نعم».

- «بقولك يا نمرة اتنين.. أنت بتصلّي»؟

سؤاله غير المنطقي دفعني إلى الصمت والبحث عن تبرير وراء ذلك التساؤل العجيب، طوال ساعات الليل كلها كان ينادي ليسألني فقط هذا السؤال غير المفهوم، وماذا يفيد إن كنت أصلّي أو لا أصلّي، كنت أصلّي منذ صغري، وعندما دخلت كلية الطب أصبحت أكثر حرصاً على الصلاة والالتزام، كنت أجلس في الصف الأول وأتابع بتركيز كل ما يقوله دكتور المادة، في العام الأول حصلت على تقدير «ممتاز»، وترتيبي السادس على الدفعة، لحظة سعيدة في عمري لا أنساها، اشترى لي أبي السيارة بعدها؛ لأن ابنه أصبح على أعتاب لقب دكتور، وفي بلدنا الألقاب مهمة، أهم من البني آدم نفسه. لذلك نسعى نحن لاكتساب اللقب قبل أن نكسب أنفسنا، وقبل حتى أن نكتسب آداب المهنة، لكني سعيت جاهداً لأكون طبيباً جيداً، وفي العام التالي انضممت إلى نشاط

طلابي تابع لاتحاد الطلبة. أغواني شغف النشاط وحياة القيادة والممارسة السياسية. أقبلت على النشاط بكل طاقتي، وأخذ مني أغلب وقتي. كان النشاط الطلابي هو محور تكويني الفكري، بعد أن أمضيت أول أسبوعين مع اتحاد الطلبة أخبروني بأني مرشح لانتخابات الاتحاد للعام الجديد، ولكن أولاً يجب أن أقابل رئيس الاتحاد الأسبق، ذهبت معهم لأقابله خارج الجامعة. مشينا سوياً حتى كامب شيزار، وهناك على كافيه «والي» على الكورنيش وجدت شاباً ذا شارب كبير يبدو أكبر مني بعشرة أعوام ربما أكثر، وجدته في انتظارنا ومعه بعض الشباب لا أعرفهم، ولما جلسنا تعرف إلينا وحكى لنا عن أنه أول من أسّس لاتحاد طلاب مستقل بعيداً عن الإخوان وبعيداً عن السلطة، وأنه يريد أن يساعد البقية من بعده، في البداية أحببته واحترمته وشعرت بعمله الجلل في مساعدة الطلاب الجدد، لكن ليلة انتخابات اتحاد الطلبة جاءني أحد الزملاء وأخبرني بأني لن أستطيع الترشح هذا العام؛ لأني تغيبت عن لقاء ذلك المؤسس في آخر مرتين، وبالتالي اختار شخصاً بديلاً عني يمكنه الثقة به! تحوّلت كل مشاعري الإيجابية تجاهه إلى مشاعر سلبية، وبدأت أبحث وراءه، لماذا يجب على عضو الاتحاد أن يكون ثقة طالب سابق لم تعد له أي صفة، وأي سلطة يملكها هذا الشخص ليمنعني أو ليسمع كلامه هؤلاء

الزملاء، قررت الترشح منفرداً، وليتني ما فعلت، أصبحت منبوذاً بين بقية الأصدقاء وتجنبني الجميع بحجة أني «بتاع مشاكل ومش ثقة»، لكني كنت مجتهداً جداً في كل ما أفعل فأصبحت رغماً عنهم عضواً مهما، ويجب التعاون معه، ساعتها اتصل بي أحد الزملاء، وقال:

- «إحنا بنعمل أسرة جديدة اسمها أسرة «النسر» ونازلين انتخابات السنة الجاية وهنكسبها، عاوزينك معانا».

- «طب وهتعمل إيه مع شباب الاتحاد والتظبيط مع كبيرهم»؟

- «لأ متقلقش، من الآخر أسرة النسر دي واصلة، وتبع قائد الحرس ورائدها وكيل الكلية، والاتفاق إننا ناخد الدورة السنة دي».

- «اتفاق إيه»؟

- «اتفاق مع الاتحاد الحالي، ما هم تبع الحزب، واحنا والحزب واحد».

- «طب والتيار الإسلامي»؟

- «لأ دول ليهم كليات واحنا لينا كليات تانية. متقلقش. ها هتنزل معانا»؟

- «معرفش، هصلّي استخارة».

عندما أخبرته بأني سأصلي استخارة، ضحك بشدة واستهزأ بي وقال:

- «حد يستخير مع الأمن؟! يا ابني بقولك دي أسرة الأمن»..

ظلّ يضحك ويستغرب دهشتي، وعجبت لاستغرابه، وكأن كلامه هو المنطقي، بينما ليس من حقي التعجب والاندهاش والتفكير.. ارتبكت طوال أسبوع، حتى إني لم أصلّ استخارة، ولم أشارك في الانتخابات، ولم أحب اللعبة، كانت الخيارات محدودة، كحجرة مكتظة بالقذارة فليس أمامي إلا أن أنظّف مساحة صغيرة، وأعيش فيها بينما تحيط بي القذارة من كل جانب، أو أترك الحجرة وأخرج، أو أحاول التنظيف وأتحمل الوساخات، غير أن الوساخات أكثر من قدرتي على المقاومة، لذلك استسلمت لأقل الخسائر، قررت أن أترك الغرفة تماماً ولم أقترب من اتحاد الطلبة أبداً بعد ذلك، لكني لم أنس أبداً تلك المكالمة التي انتهت بصلاة استخارة لم تحدث أبداً، فلماذا تسألني اليوم إن كنت أصلّي أم لا، وماذا يفيدك في ذلك؟ كان صوته قد عاود بإلحاح مبالغ فيه:

- «رد يا نمرة اتنين، سكتّ ليه.. يا نمرة اتنين».

- «نعم».

- «إنت بتصلّي»؟

- «ساعات».

- «طب إوعي تقول إنك بتصلّي لما تطلع فوق، لو عرفوا إنك متدين هينفخوك ضرب، هتتاخد جماعات».

- «فوق فين»؟!!

- «فوق في التحقيقات، إوعي تقول يا ابني»؟

- «طب أقول إيه»؟

- «قول إنك ملحد. قول أي حاجة تانية إلا إنك بتصلي».

لم أثق بكلام الرجل، ولم يبدُ كلامه منطقياً، لم أفهم الرابط بين ذلك وذلك، لكني حاولت أن أفهم أي شيء في ذلك اليوم العجيب، فسايرته في الكلام وقلت له «حاضر». لكن هنا تدخّل الشخص في الزنزانة المقابلة، والذي كان ينظر لنا نحن الاثنين، بينما نحن الاثنان أنا والآخر لم نكن نرى بعضنا، كان في الزنزانة المجاورة لي، فكنت أسمع صوته فقط، تدخّل السجين المشترك ونظر لي في شفقة هذه المرة وقال:

- «إنت كده كده هتتنفخ في كل الأحوال، لكن نمرة تلاتة بينصحك عشان ميعملوش فيك زيه»..

بدا كلامه مطمئناً قليلاً، بالرغم من تأكدي أن التعذيب قادم قادم لا محالة، لكن على الأقل أملك الآن ميزة تجعل العذاب أقل، العذاب لم يكن أبداً في الضرب بقدر ما كان في الإهانة، في الذل وفي التفكير، الحبس الانفرادي لعنة لا يدركها إلا من جرّبها، لعنة أن تبقى وحيداً رغماً عنك، لعنة الوحدة الإجبارية في جوار سجين لا تعرفه يرأف بحالك ولا يملّ النداء: «يا نمرة اتنين.. روحت فين يا نمرة اتنين.. ردّ عليا».

غير أني لم أردّ عليه.. ضعت في شرود لا متناهٍ يغالب المدى، ويستحوذ على الذاكرة، ضِعتُ في دوامات من البحث عن نفسي وسط كل ما حدث، وبعد كل ما سيحدث، كان ضوء أحمر خفيف يدخل إلى زنزانتي من خلال شراعة حديدية عتيدة، فأنار لي ممراً ضيقاً حرجاً داخل نفسي، استلهمت منه الإيمان وسط شك عميق، لم أكن أنا في تلك اللحظة، صرت خلقاً آخر، وكانت أهداب الكلام بداخلي تشتاق إلى ربيع أخضر من الاتساق مع النفس، سرحت في اتحاد الطلاب والمظاهرة التي ذهبت إليها «ليلى»، سرحت في أبي والكلية ونفسي، وندمت على أني قررت قديماً أن أبقى في مساحتي النظيفة بعيداً عن القذارات؛ لأن الاتساخ طالني وأنا بعيد.. ندمت على أني لم أشارك في المظاهرة

مع «ليلى»، وأني أرهقتها ليلة بأكملها محاولاً إثناءها عن قرار هو في كل الأحوال صحيح؛ لأني أدفع الآن فاتورة مظاهرة لم أمشِ فيها! يا ربي ما كل هذا الألم. وكيف تستبيح الحسرة أرواحنا فتصنع منا ذلك المسخ الممجوج النزق؟ لو كنت فقط شاركت مع «ليلى» في المظاهرة، لكان لكل ما يحدث معنى وثمن وقيمة، على الأقل لأصبحت راضياً عن نفسي الآن! لكن للقدر تدابير لا ندركها، يضعنا محطّ اختبار غيّر متوقع ليربينا، أو يمنحنا الفرصة للاختيار الصائب. تهت في شرودي وحسرتي آسفاً، وكان دبيب رتيب يسيطر على جسدي ويصيبني بوخز فوق عيني على نغمة متكررة لصوت لحوح: «يا نمرة اتنين.. يا نمرة اتنين».

أفقت من شرودي في غرفتي المظلمة، وأنا أنظر للسقف المعتم الذي يذكّرني بسقف الزنزانة، أفقت على صوت «مجدي» يهلل ويصرخ فرحاً في الصالة، رأيت أنه من الذوق مشاركته لحظة فرح مبهمة بالنسبة لي، خرجت وجلاً، فأوجع نور الصالة المفاجئ عيني، وضعت يدي أمام عيني لحظات؛ لأقلل من حدة النور حتى اعتاده، كان «مجدي» يتحدث في التلفون، ويشكر شخصاً لا أعرفه على شيء أجهله، يشكره بكل أدوات الامتنان المعروفة والمبتكرة والمرتجلة، نظرت نحو اللمبة النيون في الصالة بينما

يرتعش بداخلها النور. اعتادت عيني النور ببطء لكنه كان كفيلاً ليمنحني وقتاً مستقطعاً من الشرود. بعد أن انتهى «مجدي» من المحادثة، جرى إليّ واحتضنني بشدة، وقال:

- «بارك لي يا صاحبي أنا اشتغلت في الجرنال، باركلي يا صاحبي، واعتبر نفسك معزوم على العشاء والغداء والحلو».

- «ألف مبروك يا مجدي، مبروك من كل قلبي».

- «مال صوتك؟! زي ما يكون مش فرحان»!

- «طبعاً فرحان جداً، لكن بالي مشغول، من شوية قولتلك خد المقالات، دلوقتي مقدرش أرجع في وعدي.. عموماً ألف مبروك، متشغلش بالك بتوهاني اليومين دول، إنت عارف مشغول بليلى».

كانت عينا «مجدي» ترقصان من الفرح، سعادة حقيقية تظهر في نظراته كطفل تعلّم اللهو منذ ساعة، أخذت «مجدي وقررت أن أعزمه أنا احتفالاً بالوظيفة، أحببت أن أبتعد قليلاً عن تلك الغرفة المظلمة بكل ما فيها من ذكريات مؤسفة. خرجنا لنشتري جاتوه وبسبوسة وذهبنا إلى المقهى لنحتفل مع الشلة كلها.. في الطريق كان «مجدي» مبتسماً لكنه صامت، مبتسم وصامت أو ربما شارد.. أو تائه أو مستغرق في التفكير، ليس ذلك كله مهماً، المهم أنني ربما كنت التائه والشارد والمستغرق في أي شيء؛

للخلاص من أي فكرة تلحّ عليّ بألم الماضي، لذلك ركّزت في شكل «مجدي»، وأخذت أحلّل صمته دون جدوى!

سألت «مجدي»:

- اشتغلت ازاي في الجرنال من غير موضوع المقالات؟

سكت لثوانٍ ثم ردّ في ارتباك:

- جبت واسطة لرئيس التحرير.

سكتنا. لو كانت «ليلى» معنا في تلك اللحظة لبصقت في وجهه، لكني لم أكن لأفعل ذلك.. كل الناس تبحث عن واسطة قبل أن تبحث عن فرصة عمل، تبحث عن الاستثناء قبل القاعدة، عن الفساد قبل الكفاءة.. وليلى لم تكن لتقبل بذلك أبداً.. سألني هو هذه المرة:

- «مش نفسك تشتغل معانا في الجرنال»؟

- «خلاص بقيت تقول «معانا» زي ما تكون بقيت صحفي مؤسس في الجريدة»!

ضحك بشدة وقال:

- «وشرفك خلال شهور هبقى مؤسس.. (ثم سكت قليلا) وقال: حاسس زي ما يكون ربنا بيطبب عليّ بعد ما كان ناسيني».

ولم أردّ عليه مطلقاً.. سرحت في أشياء كثيرة لا أعرفها ولا أتذكرها ولا أريد أن أذكرها.. بدأت أشعر بأني غير موجود وغير حقيقي، وأني مجرد مجموعة من أفكار شخص مات ولا يزال يظنّ أنه على قيد الحياة، غير أن الحياة لم تكن أكثر من مجرد قيد فعلاً، لذلك ما زلت أشعر ببعض الأشياء من حولي، لكني لم أعد متأكداً من أي شيء.. حتى «مجدي» صديقي الذي يسير بجواري أحياناً أشعر بأني لا أعرف شكله جيداً، وأني أعرف فقط أنه موجود.. وكأن كل الأمور ضبابية غائمة وهائمة وتائهة، لم أعد أتنبه لملامح الناس من حولي، وصار كل من أعرفهم مجموعة من التهاويم المتطايرة في فضاء غير مكتمل.. ولم تكن تزعجني تلك الفكرة أو تفزعني بقدر ما كنت أخاف أن أنسى ملامح «ليلى».. فقط هي ولا أحد غيرها..

قاطعني «مجدي» قائلاً:

- «إنت مبتحسش كده»؟

- «مبحسش إيه»؟

- «إن ربنا ساعات بيطبطب عليك».

- «أكيد لأ».

- «ليه يا عم؟، دا انت حتى المفروض ربنا يكون بيطبطب عليك أوي وأكتر مننا كلنا»!

فكرت في إجابة تليق بالموقف، وبكلامه وبتدابير ربنا ولم أجد سوى قناعة واحدة قديمة رحت أخبره بها :

- «مش بحس كده لأسباب تتلخص في إني أخاف أقول إن ربنا بيطبطب على حد، وأخاف أفكر إن ربنا المفروض يعمل حاجة زي دي معايا؛ لأن أكيد ربنا مش مفروض عليه حاجة.. والسبب الأكبر إن لو فرضنا إن ربنا هيعمل كده، فأكيد مش مع حد فاشل ومش نضيف زيي».

كنا قد وصلنا المقهى، دخلنا وأعلنّا الخبر، وانهالت المباركات على «مجدي»، وبدأ الأستاذ «شاهين» في السخرية منا والضحك معنا، أكلنا وشربنا وتحدثنا، حتى رحل كل الزبائن وبقينا وحدنا.. أنا و«مجدي» و«رزق» وعم «سيد» التاكسجي والأستاذ «شاهين».. بقينا وحدنا ندخّن السجائر وننظر لبعضنا.. كان الشارع بالخارج هادئاً جداً وتيار هواء بارد يأتي من خارج الأبواب الزجاجية للمقهى.. في الجانب الآخر من الشارع كان النيل يمتدّ في ظلمة معتمة، وتظهر في الجانب الآخر من شط النيل أرجوحات مضيئة لمدينة ملاهٍ شعبية تقبع وحيدة في ضواحي إمبابة، كانت الأرجوحة تدور كالساقية وأنوارها ترقص في عيني برغم بُعد المسافة. وكلما دارت الأرجوحة دار رأسي، ودخت في دوامة من اللاشيء كالمعتاد..

حتى قاطعنا «رزق» وقال:

- لا مؤاخذة يا جماعة لازم نقفل بعد شوية..

وبدأ يحضر لغلق المقهى بالترتيب والتنظيف، لكن أحداً لم يتحرك من مكانه.. نظرت إلى الأرجوحة المضيئة في الجانب الآخر من شط النيل وقد لمحت أضواءها تنعكس على سطح النيل المظلم.. خرجت في هدوء أتلمّس نسيم الهواء البارد يلفحه دخان سجائري المتعاقبة، شددت الكوفية حول رقبتي أكثر، وأخذت أنظر إلى كلب ضال يشمشم حول مقاعد المطعم المجاور عن بقايا فتات يقتات عليها قبل أن يشتدّ الليل، كلب وديع شعره بني اللون، وبه بعض المناطق البسيطة صفراء اللون، اقترب الكلب من كرسي بلاستيك أبيض، ووجد شيئاً لم أره جيداً لكنه أكله في نهم شديد.. وقفت أتأمل ذلك الكلب الضال الذي وقفت أمامه كل الظروف وعايرته الأيام ليس فقط ليولد ضالاً ولكن ليولد في بلد لا تأوي الكلاب الضالة ولا تساعدها، وأغلب الظن أنها تعدمها بحكم القانون، أو في أفضل الأحوال تتركه يصارع عذابات التعامل مع بشر ضالة جائعة مثله بل ومريضة نفسياً أيضاً! خرج «رزق» ووقف بجواري، أخرج علبة سجائره وأشعل سيجارة ونظر نحو الأرجوحة مثلي، في تلك اللحظة بالذات بدا «رزق» نحيلاً جداً وبؤبؤ عينيه قد غاص

في ضباع أبدي بعيد جداً، تجاعيد وجهه النحيل وبشرته التي أهلكها الأسى، ولحيته غير الحليقة وغير المتروكة، هيأته كلها غريبة لرجل دمّرته الظروف أو العوز.. شغلني «رزق» عن الأرجوحة، لكني عدت أنظر نحوها وتدور عيني مع حركتها، وتعجبت من الأطفال الذين سهروا حتى ذلك الوقت في تلك الملاهي البعيدة في الشاطئ الآخر..

- «أنا عارف إنك دكتور، وإنك وراك سر مش عاوز تحكيه».

قالها «رزق» في هدوء وعدم اكتراث أربكني وهزّني فلم أستطع الرد، سكتّ للحظات عن الكلام ونظرت له، ثم بدلت نظراتي بينه وبين سيجارته وبين الأرض وبين الأرجوحة. حاولت التملّص من البقاء متسمراً في مكاني أمامه ولم أردَ، غير أني بتّ أفقد القدرة على أن أبقى متهماً، لذلك حفزت نفسي سريعاً وقلت إني لم أخفِ عنه كوني طبيباً لكنه لم يسأل.. ولم أعلّق على موضوع السرّ.. دخل «رزق» وأحضر كرسيين وأجلسني وبدأ يحكي دونما استئذان.. كان «رزق» يعاني من نوبات أرق متكررة وملحّة وقاسية.. حكى لي عن حياته..

يعيش مع أمه في منزل من طابقين، هو وأسرته في الطابق الثاني وأمه في شقة أول دور.. غير أن أمه مريضة مرضاً مزمناً منذ أعوام

طويلة في الليالي الحزينة القاسية التي يتشاجر فيها «رزق» مع زوجته أو ابنه الكبير الذي يريد الزواج من بنت الجيران.. في تلك الليالي.. ينزل «رزق» ليبيت ليلته مع أمه. لكن في تلك الليالي يجد «رزق» في نفسه شعوراً مخيفاً وغريباً وغير مبرر. في بعض اللحظات يفكر في أن موت أمه قد يحلّ كل المشاكل. موت أمه سوف يريحها هي شخصياً من عناء المرض غير المنتهي.. من آلام الوحدة والوجع والمرض والذل.. وسوف يوفر على «رزق» مصاريف علاج أمه ونفقتها. كما أن الشقة ستصبح خالية لزواج ابنه الكبير الذي يسبّب له الكثير من المشاكل.. ظلّ «رزق» يحكي عن أحواله وأنا أسمع في صمت وانتباه. لكني أبداً لم أنظر لعينيه.. كنت أتحاشى النظر لعينيه. إذ كانتا ممتلئتين بحزن عميق لا أحب أن يصيبني بعض منه! ظل «رزق» يكرر ويقول:

- «أنا مش ببقى حابب إن أمي تموت يعني يا دكتور.. لا والله أنا مش خسيس.. إوعى تاخد عني فكرة إني أرمي أمي أو أتخلى عنها، إذا كنت أنا وعيالي عايشين في بيتها. أنا بس أمي بتصعب عليا، وبتفضل تكحّ وتتوجع طول الليل، ببقى نايم فوق وسامعها.. فبقول يعني.. يعني بس لو ربنا يكرمها ومتتذلش أكتر من كده.. من كام يوم كنت متخانق مع الواد ابني الكبير ونمت متنكد.. سمعت أمي بتنده: «يا رزق.. عاوزة أشرب يا ابني.. يا رزق حد ينزل

يسقيني»، فضلت تنده طول الليل.. وأنا من كتر نكدي منزلتش.. اتخمدت وقلت حد هينزل يسقيها من العيال.. لكن محدش نزل.. من ساعتها وأنا حاسس إني هموت عطشان.. تفتكر في حد ممكن يموت من العطش يا ـكتور؟

كان «رزق» يعاني من ضعف عام وصداع دائم، شكا لي كثيراً من صداع فوق عينيه، واحمرار دائم في عينيه، وطنين متكرر كل ليلة في أذنيه، لكني كنت أعرف أن كل أدوية الدنيا لن تُذهب الصداع والطنين والاحمرار، وحتى لو فعلت فلن تُذهِب الأرق والتوتر والقلق، كنت أعرف جيداً أن «رزق» ككل الناس، ككل الشعب، ضائع وضالّ وجائع وغير آمن، ولا يشعر بنفسه ولا يجد إجابات عن الأسئلة الكونية التي تظهر أمامه كل يوم.. لماذا يحدث فينا كل ما يحدث؟، لماذا لا نعيش محترمين؟، هل يجب أن تموت أمي لكي يبدأ ابني حياته؟ لماذا لم أسقِ أمي وهي عطشانة؟!! إلى متى سيظل النكد؟ ما الحل؟!! لكني كنت أعرف جيداً أنه لا يوجد حل في الفترة الحالية؛ لأن التعويل على البلد لا يوجد من ورائه أي فائدة.. كنت بدأت أؤمن بأن التعويل والاهتمام يجب أن يكون على الناس، على المواطنين، على الغلابة؛ لأن البلد حالها لن ينصلح.. لكن الناس وحدهم إذا انصلحت أحوالهم.. كل شيء

سيتغير.. لو انصلح حال الظابط الذي عذبني في المعتقل دون ذنب، فلن يعذب أحداً أبداً حتى لو لم تتغير القوانين ولم تلغ المعتقلات.. أو ربما هو وأمثاله وكل من انصلحت أحوالهم سيثورون ضد المعتقلات..

لم يكن لديّ علاج لحالة «رزق» ولا مسكنات لأوجاعه، كان يحتاج لعلاج نفسي لا عضوي، نظر لي في يأس وسحب نفساً أخيراً من سيجارة تنتحب في صمت، وظلّ متسمراً في مكانه، نظرت نحو الأرجوحة وسرحت قليلاً في حالة اليأس التي أصابتني في المعتقل، ظللت وحيداً في زنزانة منفردة حتى أضربت عن الطعام ليالي طويلة، وعندما أوشك موتي نقلوني إلى عنبر جماعي به العديد من المعتقلين السياسيين.. وهناك تعرفت على «مجدي»، بقينا معاً ١٧ يوماً في العنبر، صرنا صديقين مقرّبين، ولما خرجت اتصلت به، ونزلت أعيش معه في القاهرة.. كانت أياماً.

انتبهت من شرودي على نظرات «رزق» متلهفاً لردّي، قلت:

- «هكتبلك اسم علاج ومسكّن بيشتغلوا على الأعصاب، هتمشي عليهم بمواعيد ونظام لازم تحافظ عليه».

- «هتكتبلي على علاج واحد لكل دا، وداني ولا عيني ولا الصداع ولا إيه ولا إيه»؟!

- «يا رزق أنا هكتبلك على حاجة تشتغل على حالة التوتر والاكتئاب اللي عندك، ولما تبدأ تنبسط أغلب الأمور دي هتختفي مع المسكّن».

كتبت لـ«رزق» اسم عقار مضاد للاكتئاب؛ لأني لم أجد لأوجاعه سبباً غير حالته النفسية، لذلك رأيت أنه من الأصلح أن يبدأ بالإقبال على الحياة، ثم نلتفت إلى الأمور التي تسهل معالجتها.
كان صوت المجموعة بالداخل يعلو، وقد بدأ نقاش وجدال كبير بين أستاذ «شاهين» و«مجدي»، وبدأ الأستاذ «شاهين» بتسفيه «مجدي» وسبّه كالعادة، كانوا يضحكون بشدة، ولم التفتْ لهم لكن فجأة سكتوا جميعاً، سكتوا وكأن شيئاً أصابهم، كان صوت الأستاذ «شاهين» يضحك وحده ولا يزال يتحدث، التفتُّ إليهم، فوجدتهم كلهم صامتين ومُحرجين، وكان الأستاذ «شاهين» يضحك بشدة، وقد تبوّل في ملابسه ولم يشعر، لم تكن المرة الأولى التي تحدث مع عم «شاهين»، عادة كان لا يسيطر على بوله كلما انفعل أو تحمّس، نظر لي «شاهين» وأنا أتابع المشهد من خارج المقهى، قال «رزق» بصوت هامس: «مسكين الأستاذ شاهين»، ولما لاحظ «شاهين» أننا جميعاً صامتون تغيّرت ملامح وجهه، وكأنه شعر فجأة بما حدث.

نظر إلى نفسه وملابسه وقال:

- «أنا آسف يا جماعة، معادش ليا حد غيركم»..

ذرف دمعتين وبدأ بفرك عينيه، نظروا لي جميعهم، لكن لم يكن بيدي حيلة، كان ذلك من أثر العمر والعمر يُذلّ، قام «مجدي» ومدّ يده لعم «شاهين»، قال له:

- «شفت بقى آهو دا ذنب اللي يستعفى على واحد مسيحي أقلية زيي!».

وضحك فضحكوا جميعاً وابتسم عم «شاهين»، ابتسم لكني كنت أعرف أن كسراً لن ينصلح قد حدث بداخله الآن، أدرت وجهي في الاتجاه المقابل، كانت الأرجوحة قد توقّفت، والكلب الضال قد انكمش على نفسه بجوار باب العمارة، وجلس يلهث في هدوء، نظرت إلى «رزق» وقد انطفأت عيناه، كانت سيجارة جديدة تصارع الأسى بين أصابعه وشفتيه ويستبيح دخانها رئتيه، فكرت في التوقف عن التدخين.. نظرت لأنوار الأرجوحة المنعكسة على ضفة النيل، وتمنّيت لو تعود الأرجوحة للدوران من جديد، فأشغل نفسي بها أو بأي شيء بدلاً من السجائر.

شـــاهين

يمضي العمر ولا يكفي الصبر، نهيم في أروقة رمادية معتمة بين عتبات المدينة العابسة اللاهية القاسية، تحاصرنا أضواء أعمدة النور لتهدينا في ظلمات الليل الطويل، فنهتدي إلى ليل أطول بداخلنا يمتدّ بلا أعمدة نور ولا مصابيح نيتروجينية أو زئبقية أو حتى مصابيح كيروسين قديمة ومتهالكة وشبه معتمة، ليل طويل وحيد يقبع داخل النفس، يسيطر عليها ويحيلها إلى مسخ بشري معدوم الملامح فلا يقوى على شيء.. كل شخص في مدينتي مشوه أو يعاني من شخص مشوّه، المدينة، القاهرة، صارت وجعاً يئن صباح مساء..

الليلة، بعد أن رأيتهم ينظرون لي وأنا مبتل كطفل في المهد، أدركت كوني كبرت أكثر مما ينبغي، كبرت وأصبحت لا أتحكم في نفسي بل يتحكم فيّ العمر والعجز، كبرت وصرت أنسى الأمور العادية

والأمور المهمة، لكني لا أنسى الأمور التي تسبب الوجع.. والأشياء التي قررنا أن ننساها، هل نسيناها؟! كنت أسير مع «مجدي» و«سيد» حتى التاكسي المركون بالقرب من المقهى، لم أرغب في أن يحضر «سيد» التاكسي أمام المقهى، أردت أن أمشي في الهواء بضع خطوات ربما يجفّ البول عن ملابسي، أو ربما ينقضي العمر قبل أن أبلغ السيارة فيكون كل شيء قد انصلح، لو أننا نموت فجأة.. لو أننا نفنى وننتهي كما تفنى ذرات التراب في مهبّ الريح، لو أننا نهلك ولا يحلّ مكاننا خلق جديد وجيل آخر، هل يصبح العالم أفضل؟ هل يبقى العالم أصلاً؟ لو أن كل شاب أحب فتاة تزوجها ببساطة دون الدخول في دراما الاتفاقات، لو أن كل فتاة أرادت أن ترقص أو تسافر أو تنجح فعلت ذلك ببساطة، لو أن كل شاب حقق طموحه بجهد معقول، لو أن كل الأشياء الجميلة حدثت؟ هل كنا سنرضى؟ أم إن المتعة تكمن في المغامرة والمقامرة والابتلاء؟ ولكننا لسنا في الجنة. لذلك فلكل فعل شقاء ولكل مكسب مغرم.. مشينا إلى السيارة في صمت، لكن «مجدي» تطوّع ليغير روح الموقف وبدأ يضحك ويقول: «جرى إيه يا عم شاهين يعني انت مش غريب عننا. وبعدين يا سيدي بكرة نكبر ونعجز ومنقدرش نمشي شوية المشي دول ولا نلعب طاولة ونكسب زيك. ربنا يديك الصحة. متقلبهاش أحزان بقى»

ولم أكن أحاول أن أقلب الأحزان عليهم، كنت حزيناً وحسب..

كنت حزيناً ولم أحاول أن أشرك أحداً في حزني، وكان الحزن بلائمني في تلك اللحظة، ويتوافق مع رغبتي فتمسكت به، وركبت السيارة في صمت.. كانت السيارة متهالكة وبها رائحة بنزين، ولا يعمل فيها إلا الفتيس والدواسات وعجلة القيادة، لم يكن بها أنوار ولا مرايات، وكانت سيارات تاكسي العاصمة الصفراء التي تعمل بالعداد قد ملأت الشوارع وتمرق من حولنا.. نظرت لـ«سيد» وسألته لماذا لا يبيع سيارته تلك ويأخذ بدلاً منها واحدة جديدة بها كل الكماليات، كنت أحاول أن أجد أي كلام يقال بدلاً من تكديرهم معي في حزني الوحيد، ويبدو أن «سيد» كان يتلهّف للحديث. ما أن قلت له ذلك حتى بدأ في حديثه المتكرر ولم يتوقف.. ظلّ «سيد» يحكي:

- «أغير العربية ازاي بس؟ إنت عارف العربية دي معايا بقالها أد إيه.. فين احنا وفين العربيات الجديدة، اشتريت العربية دي لما «السادات» عمل معاهدة الصلح، وقال اللي مش هيغتني في عهدي مش هيغتني تاني.. الله يرحمه كان عنده نظر، قالك الغني هيركب المرسيدس، طب والمتوسط يموت؟!! لأ هركبه «١٢٨» وهو دا اللي حصل.. ساعتها كنت أروح مع أخويا الكبير عند «نبيل الشيخ» في الضاهر.. أكبر تاجر عربيات أجرة.. دفعت العربون ٢٠٠ جنيه

واستلمت العربية.. وعليها من فوق إشارة التاكسي ومكتوب تحتها «نبيل الشيخ».. يااه كانت أيام.. وكان القسط ٣٠ جنيهاً في الشهر، كل يوم جنيه.. العربية من ساعتها مْعايا، فكرك يا أستاذ «شاهين» إني مش عاوز أبيعها عشان مريحاني.. لأ أبداً.. أنا مش عاوز أبيعها عشان عشرة عمر، وعشان مش هلاقي زيها تاني، وعشان هي دي اللي باقيالي من ريحة «السادات» الله يرحمه، ومن بعده مجاش حاجة عدلة أبداً.. لو بعتها هشتري شوية بلاستيك على كاوتش عيرة، العربية دي عاملة زي أم العيال.. زي أول ست في حياتك.. مينفعش تطلقها بس ممكن تتجوز عليها».

ختم جملته الأخيرة وضحك ضحكة تفصح عن نية حقيقية فباغتّه بسؤال سريع:

- «وانت عاوز تتجوّز على مراتك ليه»؟

- «عارف لما ترجع من الشغل تعبان ومتلاقيش أكل في البيت، ساعتها بتعمل إيه»؟

- «مباكلش».

- «أو بتنزل تاكل برا»؟

- «ساعات».

- «أهو أنا دلوقتي في مرحلة الأكل برا البيت».

قالها وضحكنا كلنا، وتندّرنا على تفكيره، وقال «مجدي»:

- «تلاقي مراتك بتقول إلهي يفطس البعيد وهو بياكل برا».

ضحكنا مرة ثانية وقال كل منا طرفته وتعليقه الساخر على موضوع برا البيت، ظل «مجدي» يؤكد أن «سيد» يقصد بعبارته أنه في مرحلة العلاقة مع عدة نساء، وظلّ «سيد» يدافع عن نفسه وينفي التهمة ويقول إنه يقصد حرفياً معنى عدم الراحة.

مرت الدقائق المعدودة في الضحك وعدنا للصمت، لكننا عندما كنا أعلى كوبري أكتوبر، وتحديداً فوق النيل، عندما تصطفّ عربات الحمص والكسكسي وبائعي اللب والمكسرات، في ذلك المكان المزدحم بالسيارات المصفوفة بجوار الرصيف ليجلس هؤلاء المكتومون لساعة أو نصف ساعة ربما يجدون هواءً نظيفاً يصلح لردّ روحهم المكلومة، هنا تحديداً طلبت من «سيد» أن يركن بنا ونزلنا، جلست على كرسي بلاستيك يمتلكه أحد باعة الشاي وطلبت شاياً، ووقف «سيد» و«مجدي» بجواري مستندين على سور الكوبري وناظرين نحو النيل، كانت الكازينوهات والمراكب تصطفّ على شاطئ النيل، وقد بدأ العمال في مهمات التنظيف وغسيل الأرضيات بعد أن رحل كل الزبائن.. طلبت من «مجدي» سيجارة، وأعطاني واحدة بعد مجادلة كبيرة عن صحتي وإنه

كفاية عليّ الشيشة التي أقضي نصف يومي في شربها على المقهى، لكنني أردت أن أرتكب أي حماقة سريعة تلهيني عن خيبة الأمل المركّبة التي أقضي فيها أيّامي الأخيرة.. سحبت نفساً من السيجارة وبدأت أسعل.. دخان السجائر مُرّ ومقرف ويترك أثر حشرجة داخلية كادت تقتلني.. سعلت بصوت مرتفع واهتزّت كل أطرافي وانحنيت بخصري نحو الأرض وأنا أستند بذراعي على سور الكوبري، ولما هدأت.. رحت أنظر إلى النيل وتلك الكازينوهات بأنوارها مختلفة الألوان.. رحت أفكّر في امتداد النيل في ذلك الليل المظلم، وأنا لا أرى آخره.. تماماً كما لا أعرف ماذا سيحدث في آخر أيامي التي أعيشها بين الحسرة وقلة الحيلة..

في آخر أيام أبي ونحن جالسان في التراس الأمامي لسرايا جدي الأكبر، نظر لي أبي وهو يسرّح شاربه الأصفر الذي لم ينحله الزمن، نظر لي طويلاً وتحدّث بهدوء كعادته، قال لي:

- «هل تعرف لماذا أصررتُ على أن تصبح ضابطاً بالجيش»؟

ولم أكن أعرف.. فأكمل:

- «لأن الخطة تقتضي بديلاً، بديل عن كل ما يحدث وما كان، والبديل لن يكون إلا بالقوة.. من يملك القوة يملك كل شيء»..

حينها سكت أبي طويلاً ثم قال لي:

- «إنت عارف ليه بنربط عين الصقر ٨ أيام بعد ما نصطاده»؟

ولم أكن أعرف.. فأكمل:

- «لأن الصقور لا تأكل لحماً ميتاً.. بنربط عينيها عشان متشوفش اللحم المدبوح اللي بتاكله.. ولما نفك عنها تكون اتعودت على الأكل بتاعنا، هو بالنسبة لها أكل فاسد وعلى غير فطرتها.. لكن بعد ما تغمّيها فوق الأسبوع بيبقى دا أكلها الوحيد، وبتبقى دي فطرتها الجديدة»!

كان أبي دائماً يطرح الأسئلة قبل الإجابات التي يعرف سلفاً أني أجهلها. لم تكن رغبته أبداً في الأسئلة، ولكن في التحفيز على انتظار الإجابة.. التحفيز على كشف المستور وفتش السر.. لذلك سألني كثيراً ذلك اليوم عن كل شيء تقريباً مرّ في حياتنا وعن عاداتنا وتقاليدنا.. كان يجلس على الكرسي الكبير في التراس أمام الحديقة الأمامية للسرايا.. سكت أبي طويلاً وهو ينظر إلى شجرة الرماد، وقد احمرّت أوراقها مع دخول الخريف.. كانت أزهارها تفوح برائحة عجيبة في ذلك الوقت، وكانت تلك الرائحة الغريبة تترك في أبي أثراً خاصاً.. كان يشعر أكثر بأنه في رحاب بلاده البعيدة، حيث موطن تلك الشجرة الأصلي.. هناك في تركيا وما

وراء البحار.. ظلّ مغمضاً عينيه وكأنه يودّع الشجرة، ومع تساقط الأوراق الناعمة الذابلة كرماد اهتزّت به الريح.. خرج أبي من سرحانه ونظر لي نظرة طويلة متأنية ثم سألني من جديد:

- «إنت عارف أنا سألتك كل الأسئلة النهارده ليه»؟

ولم ينتظر مني إجابة.. أكمل مباشرة:

- «عشان لما الخطة تكمل أنا دوري هيكون انتهى، وحتى البيت دا دوره ممكن يكون انتهى»..

ولما أخبرته إني «مش فاهم».. قال بهدوء:

- «المحتل مبيمشيش بدون مقاومة.. فلما هيمشي باتفاق هيكون باتفاق.. افهم دا كويس»

ولم أكن أفهم أي شيء، فسألته عن قصده وألححت عليه.. فقال في يأس:

- «اللي يصاحب الحرامي بيكون حرامي أو طماع أو جبان، وأنا ظني فيك خير.. لكن يا ابني إوعى تنسى عاداتنا.. علّم ولادك صيد الصقور.. إوعى تسيب تراث العيلة يضيع وسط الهوس والمجون.. علّمهم الصيد والصبر».

ولم أعلم أولادي الصيد ولا أعرف إذا كانوا قد تعلموا الصبر أم لا! بعد ذلك بعدة أيام وأنا في استعدادي للذهاب لوحدتي العسكرية.. سلّمت على أبي وودّعته، وكان حضنه طويلاً هذه المرة.. ولا أعرف لماذا أطال الحضن هكذا.. لكنني ذهبت إلى الوحدة وبعد أيام جاءني العريف المسؤول عن الوحدة وقال: «جالك إذن بالإجازة»، وكان يبقى على موعد الإجازة ثلاثة أسابيع.. لكن خبر وفاة أبي وصل إلى الوحدة، وأذنوا لي بالخروج لتشييع جنازته..

أفقت من شرودي على لهيب السيجارة يحرق أصابعي، وقد احترقت تنازع نسيم الهواء الذي يزيدها اشتعالاً. كان «سيد» يهمس لـ«مجدي»: «سيبه في حاله دا في ملكوت تاني»، رحت أزعق فيه: «ملكوت تاني إيه يا راجل يا ناقص.. قصدك إيه يعني؟ مجنون أنا بكلم نفسي ولا إيه؟» وبدلاً من الخوف مني ضحكا.. ضحكا وأحضرا كراسي بلاستيكية خفيفة وطلبا شاياً.. سألت «مجدي» عن المذكرات التي وصلتني من «سيد» التاكسجي ولم يرد، لكني لم أسكت، حكيت لهم دون أن يطلبوا عن سرحاني والملكوت الذي كنت فيه.. حكيت ولم أتوقف عن آخر أيام لي بسلاح الفرسان.. في ذلك الوقت كانت الأقاويل تدور عن صراع

على السلطة، بين تيار ديمقراطي وتيار يسعى للسيطرة.. كنا قد تخرجنا منذ فترة وكان ربيع الثورة يُشعل قلوبنا بالحماس.. ولاء سلاح الفرسان للفكرة طغى على ولاء الضباط للجيش نفسه.. في مرة خرج علينا الضابط المسؤول عن كتيبة المستجدين، وخطب في السلاح كله. قال كلاماً كثيراً عفوياً عن كوننا فرسان الجيش وفرسان الثورة.. نفس الضابط هو الذي كان يتحدث عن كون الفارس بحصانه ودرعه وقوسه وسهمه وحربته هو بمثابة آلية عسكرية مجنزرة.. كنا نستغرب في دراستنا لتاريخ سلاح الفرسان عن قدرة ٥٠ فارساً على احتلال مدينة صغيرة بمساعدة بعض المشاه.. لكننا مع أوائل التدريب كنا نشعر بالأرض تهتز تحت سنابك الخيل. هل كنا نشعر بالخوف حينها؟ لا أدري! ما أعرفه أننا كنا فوارس بحق.. كانت أخلاقنا أخلاق فرسان، ووقفنا في صف الثورة.. أيّدناها منذ سمعنا اسم «نجيب»، أحببناه هو ورفاقه. إخلاصنا لهم جعلنا الأقرب لصفوف القيادة، وحماسنا الملتهب جعلنا الأجدر بالتحرك في أي موقف مفاجئ.. لن أنسى يوم خرجنا نطوّق القصر، ليلتها تذكرت كلمات أبي، وتملكتني رغبة ملحّة في استرجاع كل ما تعلّمته من صبر أيام الصيد الأولى، ليلتها فقط بقينا الليل كله بين أقاويل عن رحيل فاروق وعدم رحيله.. عن انشقاقات ستحدث في صفوفنا واستحالة ذلك.. عن وقوف

الحرس الحديدي الخاص به معه، وعن التزامه الحياد، عن فيالق من الشرطة المدنية بدعم من الباشوات والحكومة سيدعمون الملك ويواجهون انقلاب الجيش عليه، وعن مواءمات تم حسمها بين «نجيب» ورفاقه وبين الباشوات والشرطة وكل عناصر القوى.. ليلة طويلة مميتة كليالي الصيد في الصحراء.. بقينا الليل كله نسمع الأقاويل.. لكن سلاح الفرسان لم يشارك في تداولها.. تناقلت أمامنا وبيننا غير أننا التزمنا الصمت، كنا ننظر لبعضنا، ونتناول السجائر مع الصمت بدلاً من الشائعات، همنا الأكبر كان الحفاظ على وحدة الصف وحياة الضباط الشرفاء.. تناقلنا همساتنا الخاصة من ضابط لآخر من أهل الثقة فقط، وكان الفرسان كلهم أهل ثقة؛ إذ إن الفارس لا يخون.. الفارس يحمي الفارس، ويحمي خلفه المشاة ويخترق أمامهم الصفوف؛ ليفتح الثغرات للجنود، لكنه أبداً لا يفتح ثغرة في الاتجاه الذي أتى منه.. ثغرة واحدة تكفي لموته هو شخصياً قبل الجميع.. لذلك تناقلنا همساتنا الخاصة.. عقدنا العزم ليلتها لو أن كل تلك الحركة لم تكتمل.. فإننا سنخرج كلنا دفاعاً عن نجيب ومن معه.. سنخرج ونسلّم سلاحنا ونقف أمامهم في ميدان الرمي بالرصاص؛ لنعلنها بقوة أن الفوارس لن يتخلوا عن أصدقائهم.. لم أنسَ تلك الليلة أبداً بالرغم من أننا لم نكن نعلم من الأساس سبب ترحيل الملك..

كانت كل المشكلة مع قيادة الجيش وأردنا تطهيره.. كل أزمة الملك لم تكن تروقنا، ولم يكن ببالنا أن يتحول الأمر لهذا الشكل أبداً. لكننا التزمنا الصمت والوحدة.. وكانت الأقاويل عن الإصلاح والفلاحين والأراضي والخير الوفير الذي سيعمّ البلاد يُسكتنا كلما فكرنا في هول ما يحدث.. فجأة وجدت الأيام قد تبدّلت ورحل الملك وبعد عدة شهور.. استدعاني قائد السلاح، وأخبرني أن مسؤولي وضع الحراسة على الممتلكات المؤمّمة رصدوا سرايا عائلتنا وأراضينا.. وأنهم لما علموا بأن ملكيتها ترجع لضابط بالجيش قرروا ألا يذهبوا بأنفسهم لتسلّم الممتلكات، وأن يتركوا لي مهلة أسبوع أنقل فيها ما أرغب من ممتلكات من البيت إلا الذهب والفضة والأموال، وأنقل عائلتي إلى مسكن سوف يُوفرونه لي في إحدى ضواحي القاهرة.. هل كنت مستاءً حينها؟ لا أدري! كنت أحبّ «نجيب» و«عبد الناصر».. لم تتملكني مرارة الحنق، وأنا أودّع بيت أبي.. كنت مخدّراً وسكرات الشعارات الرنانة تأخذني وتلقّني كرماد متطاير في يوم عاصف.. كنت أتوه في الأحلام المؤجلة والإيمان بالانتصار للصالح العام عن الصالح الخاص.. عشت في دوامة من المماطلة، ولم أذكر كلمات أبي عندما قال لي: «عندما تتمّ الخطة ربما هذا البيت نفسه لن يكون موجوداً».. صدق أبي، وسلّمت البيت واحتفظت ببعض الممتلكات والأوراق وصور

مرسومة لجدي وأبي، وقفص كبير به صقر أسود هو آخر ما اصطاده أبي، وكيس به بذور لشجرة الرماد ولا شيء آخر.. نقلت العائلة إلى شقة صغيرة على حدود القاهرة، ولم أكن أشعر بالضيق.. كنت مغفلاً كاملاً.. لكني لم أدرك ذلك إلا في الأيام التي سرت فيها الأقاويل عن الصراع بين تيارين كبيرين مؤيد لعودة الديمقراطية وآخر مؤيد للتمسك بالسلطة.. حينها فقط كانت الأمور تتضح، خرجت في أول إجازة، وسافرت إلى أرضنا التي أصبحت ملك مجموعة من الفلاحين.. كلهم يعرفونني.. هل تصافحنا بحرارة وبكوا لما رأوني؟ ربما بعضهم فعل ذلك والبعض الآخر تنكّر مني وكأنه يهرب من دَيْن قديم.. أما شيخ المسجد فلا أنسى استقباله وحضنه وكلامه.. قال لي إنهم لم يروا من جدي أو أبي غير كل خير، وأن الأرض بركتها قلّت.. كل فلاح حصل على فدانين بنى في وسطهما بيتاً كبيراً وزرع محصولاً على مزاجه.. الأرض التي كانت تُزرع كلها قطناً في عام فتُخرج آلاف الأطنان من القطن، وفي العام الثاني تُزرع كلها قمحاً فتخرج آلاف الأردبّات من القمح صارت تُزرع عشرة محاصيل مختلفة ربما أكثر، والبيوت التي بُنيت في وسط كل أرض بوّرت مكانها وحولها.. كل شيء قلّت بركته بسبب المال الحرام.. قالها وسكت ولمحت عليه

أثر الارتباك، فأصررت عليه أن يشرح كلمته الأخيرة.. فردّ في ترقب واقتضاب:

- «طبعاً مال حرام أمال فكرك إيه؟ حد ياخد أرض من صحابها غصب وقال إيه يوزعها على ناس تانيين لا اشتروها ولا دفعوا لصحابها مليم ويبقى دا حلال؟ طبعاً مال حرام.. اللي وزع واللي خد واللي قبل على نفسه».

قالها ولم ينطق وكان يتلفت كل دقيقة حتى شعرت بخوفه فودّعته ورجعت خائباً.. لم ألتفت من قبل لهذا المعنى، وكنت أشعر بغفلة تتملكني: لأن ما أسكتني في الماضي.. في تلك الليلة شديدة الحرارة.. ونحن نصطفّ أمام قصر الملك.. ما أسكتني حينها هو وعود العدل والخير التي باتت تبدو وكأنها وعود حرام.. لكني لم أفقد إيماني بالثورة يومها ولا أي يوم، كان إيماني يزداد بضرورة الكفاح من أجل وحدة الصف ورحيل المحتل.. لكن الوقت لم يمنحنا الكثير.. الأقاويل التي كانت في السر عن الصراع الداخلي.. صارت في العلن، و«نجيب» الذي عزمنا على أن نفديه بروحنا خرج مطروداً من قصر الرئاسة.. ليلتها لم يلتزم الفوارس الصمت.. اتصلنا بكل قيادات كل الأسلحة وأعلنّا دعمنا الكامل لـ«نجيب».. هل كنا على حق؟ لا أدري! لكننا كنا نقف مع الشخص

الذي ارتضينا أن يمثّلنا بالإجماع.. ليلتها جاءنا بعض الضباط من رفاق «نجيب»، ثم سمعنا عن حضور «عبد الناصر».. ولما سمعت اسم «ناصر» اطمأننت، أحسست أن شخصاً محترماً حضر أخيراً. وكنت على حق.. في اليوم التالي خرج «نجيب» يحيي الجماهير ممسكاً يد «ناصر» وهتف: «كلنا يد واحدة» وصرنا يداً واحدة من جديد.. في تلك الفترة نشطت في الجيش، وكنت أعقد جلسات مسائية أتحدث عن ضرورة تنفيذ الثورة لأهدافها.. وأؤكد أن الأمة لن يستقيم حالها إلا بالعلم وسيادة القانون، كان «محمد نجيب» أيضاً ينشط في دعوته لعودة الأمور لطبيعتها، وكانت الأمور تتغير.. تتغير ببطء، لكن في اليوم الذي استيقظنا فيه على فرق المشاه تحفر خندقاً حول باب المعسكر، والطائرات الحربية تحلّق فوقنا والدبابات تقف أمام بوابة المعسكر الأمامية.. في ذلك اليوم تحديداً الذي تمّ القبض فيه على «نجيب».. تم نفي كل أصدقائي في السلاح.. وساعدني أحد الضباط في سلاح المدفعية على الهرب للشام.. يوم ودّعني ذلك الصديق سألته: «وما مصير باقي الدفعة؟» قال لي في يأس إن الدفعة كلها ستتفرّق وهوية السلاح ستتغير.. واليوم بعد كل تلك الأعوام لم يبقَ من السلاح غير الشعار فقط وأصبح اسمه سلاح المدرعات بدلاً من الفرسان..

لكن الفارس الذي كان بداخلي لم يمُت ولم يتفرق.. هو فقط التزم الصمت تماماً كما اعتاد أن يفعل..

قلت جملتي الأخيرة ونظرت نحو «مجدي» و«سيد» وهما مطرقان في صمت بالغ.. زعقت فيهما: «إيه انتو نمتوا؟ أنا بحكي لنفسي كل ده»؟

ظلا صامتين وكأن حق الالتزام بالصمت أصابهما من فارس قديم لم يقوَ على الصمت، وهو في الثمانين من العمر، فظلّ يحكي لكل من راح أو جاء.. لكن «مجدي» تنهد ثم قال: «إنت بتقضيلنا على ثوابتنا كده يا عم شاهين»!

ولم يكن ذلك هدفي أبداً. كنت أحكي؛ لأني لم أعد أجد ما أفعله.. لا أملك من حظ الدنيا غير النفَس الذي يخرج وقد لا يدخل.. أنا كهل شبه قعيد، بائس ولا أقوى على شيء، لا أستطيع أن أحرك ساكناً ولا حتى أن أحبس البول بداخلي.. لا أملك من الدنيا غير النفَس.. لذلك أحسن استغلاله، أحكي وأدخن.. وهل بقي لي شيء آخر أفعله؟ لا أدري! ربما بعد أن اختبأت بالشام.. لحظة وصولي إلى تلك القرية.. حيث الطريق يعلو ويهبط بنا وتمتد الروابي من الأرض الصفراء المطعمة بزرع أخضر مبهج غير الذي تعوّدته في

مصر.. ربما في تلك الفترة.. حيث كنت هائماً على وجهي في بلاد الله أتخذ منها ملجأ من الموت، وملاذاً من القهر، وحصناً من التيه في غياهب اليأس وبحر الجنون.. ربما في ذلك الوقت عندما ذهبت إلى السوق ورأتني تلك الفتاة الشامية الفاتنة الرقيقة، وكان يملأ عينيها حنوّ أمٍ بكر وصفاء قلب خبر من الدنيا الهموم قبل الرخاء، وكانت نظرتها واثقة ومشيتها رائقة، وبسمتها بحساب وصوتها له أول وليس له آخر كنهر امتدّ فلا يترك من ظمأ الأرض شيئاً إلا رواه.. ربما عندما لمحتها ولم تكن عيناها ملونة كأغلب أهل الشام.. كانت سوداء داكنة وواسعة، وكأنها تحوي بداخلها ليل الأرض ونور السماوات! وشعرها الغجري الطويل البني الذي يميل إلى الاصفرار في خجل مكبوت.. ربما حينما رأيتها وفي تلك اللحظة فقط دبّت بداخلي كل المشاعر التي تجعلني أقدر على فعل أي شيء فقط لأكون معها.. ولما اقتربت منها لمحت ندبة على كفّ يدها، ندبة صغيرة يعلوها بعض حسنات بنية اللون، فكانت هي كالندبة التي أصابت قلبي فلم تخرج منه، وأصابت حسناتها عمري فكانت هي رحيق العمر وحسن الأيام.. ولما اقتربت أكثر أدركت أن العمر وحده لا يكفيها. هل بقيت معها؟ نعم. رهنت عمري بها.. تبعتها وأحضرت لها خاتماً على شكل قلب صغير يتوسطه فصّ جوهرة صغيرة.. ذهبت إلى بلدتهم التي تبعد عني، وجلست أسفل

قدميها وقلت لها «تزوجيني».. جلست أسفل قدميها؛ لأني منذ رأيتها ولم أرغب فيها بقدر ما رغبت في أن أكون سبباً في سعادتها.. أردت أن أخبرها منذ اللحظة الأولى أنني سأكون فارساً في مملكة هي أميرتها.. والفارس النبيل يبقى تحت قدم مولاته، ولا يقلل ذلك من قيمته وكبريائه شيئاً.. قبل أن نتزوج.. أخذتني إلى مكان يسمى «وادي الشتاء » كانت غابة من الأشجار الصنوبرية وأشجار الأرز والرماد تكسو المكان من كل جانب.. طريق طويل ممتد بين غابة من الأشجار ومرتفعات من الهضاب وانحناءات بين السهول والوديان الجافة.. طريق لا ينقطع ولم نصل إلى آخره.. فقط أرادت أن نكون وحدنا.. ولما كنا في نقطة أعلى ما يكون من جبل مرتفع بين غابة الأشجار.. جلسنا على حافة الجبل.. وأشارت إلى بلدة بعيدة بالكاد رأيت أشباح بيوتها على مرمى البصر أسفل الجبل.. قالت: «هناك القدس بلدي الأصلي.. أنا من هناك، وراح أرجع في يوم.. بدّك تكون معي؟ هيك لازم تعرف إني بيصير أرجع».. هل بقيت معها؟ ربما وددت في تلك اللحظة تحديداً أن أبقى معها العمر كله مهما واجهت من أهوال في سبيل أن أسعدها.. لكني اليوم كهل لا أقوى على مواجهة هول واحد.. كل ما أستطيعه هو الحكايات عن الأيام التي كنت أقوى فيها على أي شيء..

سكتُّ فتحدث «مجدي»: «كمل حكاية وادي الشتا»! لكني لم أكمل، لم أكن أرغب في الكلام بعد الآن.. يوماً ما سوف أحكي عن وادي الشتاء.. سوف أحكي عنها وأدوّن قصتي معها.. يوماً ما سوف أكتب عن تلك الفتاة التي علّمتني الحب قبل أن تحبني، وعلمتني ألا أفكر كثيراً في الأمور التي تتعلق بالقلب.. لكني كنت أشعر بالبرد القارس يأتي من الشرق.. طلبت من «سيد» أن يوصلني للبيت.. في الطريق أخبرت «مجدي» أني قرأت المذكرات، وأني أستغرب أنه كان ناشطاً في اتحاد الطلبة.. وسألته عن تلك الفتاة التي أحبّها من كلية أخرى، ولم يستطِع أنْ يثنيها عن الاستمرار في النشاط بعد أن فقد الثقة فيه.. لمحت عليه الارتباك وكأنه لم يكن يرغب في الحديث.. قلت له إنها مادة دسمة للنشر، وأنه لو بدأ مقالاته بها في الجريدة فسيصبح حديث القراء، وسألته عن آخر المذكرات؛ إذ إنها لم تكن مكتملة.. كانت مبتورة.. لكنه لم يجبني أبداً.. سكت طويلاً، ودخّن سيجارة على مضض، ثم سألني:

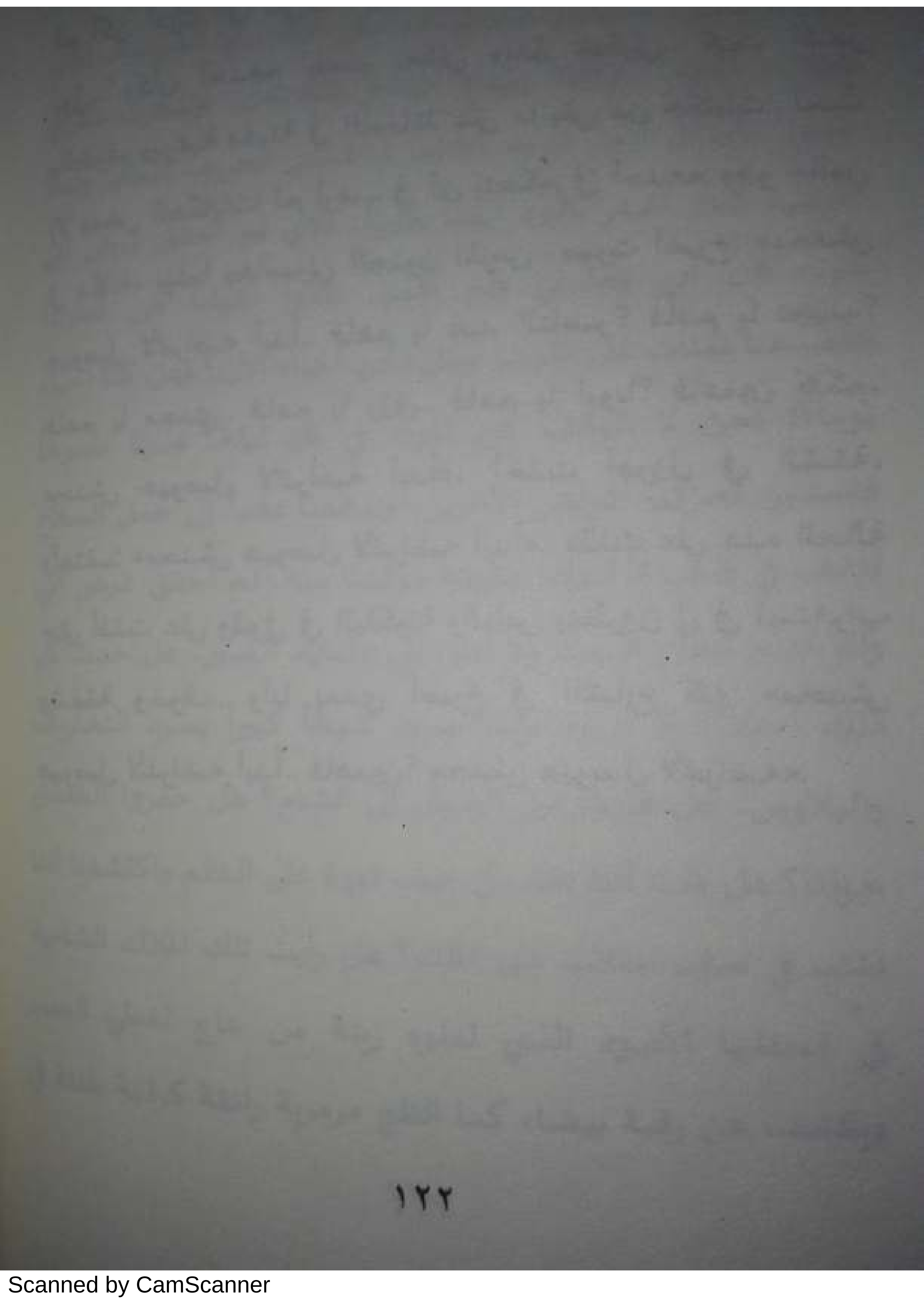
- «تفتكر لو نشرتها حد هيهتم يقرأ مذكراتي الشخصية»؟!

- «دي مش مجرد مذكرات.. دي رواية مكتملة فيها دراما وكواليس محدش سمع عنها قبل كده.. إوعى تتردد.. مكنتش أعرف عنك إنك بتفهم للدرجة دي»..

ولمحت في عيني «مجدي» نظرة رائقة بها انكسار لم أفهمه أكلمنا الحديث والنكات والضحك ضحكنا كثيراً غير أني لما وصلت البيت كنت أشعر بالوحدة تلفّني من كل جانب.. تدثّرت بروب صوف قديم، وأشعلت الفحم.. لم أكن أرغب في الشيشة.. لكني شعرت بالبرد.. تدفّأت بوهج الفحم المشتعل.. وتذكرت سراي جدي.. وأوراق شجر الرماد الأحمر في فصل الخريف تتطاير وتملأ الأرض، كنت أشعر بالبرد أيضاً حينها.. لكني لم أحقق غرض أبي مني.. كان أبي يحذّرني ولم أفهم.. غموا أعيننا عن فطرتنا فأصبحنا نقتات على الموت.. وهل نحن أحياء الآن؟ وهل كنا أحياء يوماً؟! نحن لا نتوقف عن الموت في كل ليلة.. صرنا مسوخاً فاسدين تُحرّكنا أغراض الآخرين، وتدفعنا دفعاً إلى حمل السلاح لنقف في صف لا ندرك حقيقة موقفنا منه.. لم أحقق غرض أبي ولم أُعلّم أبنائي الصيد ولا أظن أني علّمتهم الصبر.. هل حدث كل ذلك أصلاً؟! لا أدري.. ربما صرت شيخاً كبيراً يسرد التخاريف والهلاوس.. هل هربت من الجيش إلى الشام؟ هل حفروا الخندق حولنا؟ هل ظننا أننا نقف في صف ثورة على الظلم واكتشفنا أننا نقف في صف انقلاب على الملك؟ هل رأيت تلك الملاك الشامية في فستانها الأسود الذي تعلوه زينة من عاج تغطي الصدر ويكشف عن رقبة بيضاء كما الثلج مرمرية رائقة كرقبة طفلة في

العاشرة؟ هل قرأت مذكرات «مجدي»؟ وقبل كل ذلك هل علّمني أبي لماذا نغني عين الصقر؟!!

لم أكن أدرك أي شيء.. أحسست بأني أفقد عقلي مثلما أفقد بولي.. وكأن أحدهم يلعب بعقلي ويغيّر فطرتي.. كنت أشعر بالخوف وبرغبة دفينة في الحفاظ على ما بقي من حكايات.. لستُ إلا بعض الحكايات! لم أرغب في أن يتحكم فيّ أحدهم وهو جالس في مكانه، بينما يحاصرني الجنون المزمن.. صرت أصرخ: «محدش هيوصل لأغراضه أبداً.. فاهم يا عبد الناصر؟ فاهم يا نجيب؟ فاهم يا مجدي.. فاهم يا رزق.. فاهم يا ابويا؟ فاهمين كلكم. محدش هيوصل لاغراضه أبداً». أخذت أهرول في الشقة، وأهتف: «محدش هيوصل لأغراضه أبداً».. ظللت على هذه الحالة حتى أفقت على وقوفي في البلكونة والناس ينظرون لي في استغراب وشفقة وخوف.. وأنا بعدي أصرخ في الشارع كله: «محدش هيوصل لأغراضه أبداً.. فاهمين؟ محدش هيوصل لأغراضه».



(٦)

مجدي

اسمي أصبح يتصدَّر صفحة الجريدة بشكل يرضيني ويسعدني، وذلك كل ما كنت آمله، صحيح أن المقالات لم تكن تخصني وأنني نشرتها دون استئذان من الدكتور، لكنه قال لي «خدها». وقد أخذتها، أخذتها من الأستاذ شاهين يوم أوصلناه بيته، وكانت تنقصها الورقات الثلاث الأخيرة.. أخذتها من عم شاهين بعد أن رأيت في عينه شغف الاهتمام بالمقالات أو الذكريات أو أياً ما كان! كما أنني في تلك الأيام انشغلت بتسلم مهامي الجديدة في الجريدة، ولم أجد بالاً لكتابة أو مزاجاً لتأليف، ثم إنني أعرف مسبقاً أن موهبتي تكمن في الاجتهاد والهمة، وليس في الكتابة نفسها، لذلك بعد أن أوصلت عم شاهين إلى بيته وأخذت منه الأوراق، جلست تحت بيته على دكة محطة أتوبيس، طلبت من سيد أن يتركني وحدي، أخرجت علبة السجائر، فوجدت فيها سيجارة أخيرة تعاني

الوحدة والانتظار! مَن منا لا يعاني الوحدة؟ نحن أصبحنا نأتنس الوحدة ونشتاق إلى الانتظار، باتت طبيعتنا معطوبة، أصبحنا نرتبث من الأوضاع الطبيعية ونشتاق إلى الاستثناء! الونس أصبح يُربكنا ويوتّرنا، والوحدة أصبحت ملجأنا الأول، والانتظار غلّفنا فصرنا نخشى فراقه، كلنا حمقى، سُذج، أو مجموعة من المغفلين يستهويهم الأسى!

لذلك أخرجت سيجارتي الأخيرة، وجلست أقرأ المذكرات في صمت. كان يحكي فيها عن طرق تزوير الانتخابات في اتحاد الطلاب، وخلق كيان موازٍ تابع لجهات أمنية يسيطر على اتحاد الطلبة داخل الجامعات، حكى عن نفسه وعن ليلى وعن قراره بالبعد تماماً عن كل ما له علاقة بالنشاط الطلابي، ولما أخذت القرار بأن أنشر المذكرات كان عليَّ أن أُغيّر بعض التفاصيل، لكي لا أورِّط نفسي في مشكلات أمنية أولاً، ولكي أضفي بعضاً من شخصيّتي على الكتابات، ولكي أعرف كيف سأختم المقالات؛ إذ إن الأوراق الثلاثة الأخيرة ضاعت بكل تفاصيلها.. ليلتها وأنا أجلس في الشارع كان صوت الأستاذ «شاهين» بدأ يرتفع بالصراخ، كان يُتمتم بعبارات غير واضحة، لكنه لمّا اقترب من شيش البلكونة، وبدأ خياله يظهر من خلف الشيش، كانت عبارته قد اتضحت، وهو

يصرخ «ماحدش هيوصل لأغراضه أبداً»، ظل يُردّدها حتى وقف في البلكونة وهو يردّد العبارة ويهدأ قليلاً، ولما أردتُ أن أصعد لأكون معه كان الجيران كلهم ينظرون إليه في شفقة، فتسمَّرت في مكاني من الإحراج.. وقف الأستاذ «شاهين» حتى سكت تماماً، وكان بنطاله يرشح بولاً، وأخذ الرشح يزداد اتساعاً.. كان المشهد واضحاً من خلف السور الحديدي لبلكونته القديمة، ولمَّا أحسّ بذلك نظر إلى الجيران، وقال لهم: «بتبصوا على إيه؟ تحبوا أطلعهولكم؟»، وظل يُردّد كلماته حتى اختفى كل الجيران، نظرت إليه في يأس خانع مستكين، وقلت لنفسي: «ربنا يلطف بيه»، ومشيت.

نشرت المقالات في الجريدة، وأخذت المباركات تهطل على مكتبي من كل مكان، كنت نهماً وشبقاً لسماع عبارات الامتداح والثناء، حتى إن رئيس التحرير طلب مني التفكير في عنوان لعمود ثابت يومي، تمنَّيت لو كانت «مريم» معي في هذا التوقيت تحديداً، لم أكن أنسى حبي لـ«مريم» أبداً، ولم أكن أنساها، والأصعب من الحب ذكريات المحبِّين! كنت أرجو لو تكون «مريم» معي فتباركني في يوم كهذا، وتضع رأسي على رجليها، وتداعب خصلات شعري كطفل مدلل محبب إلى قلبها، «مريم» الهادئة الطيبة التي كانت تقول لكل

شيء «حاضر»، ونحن الرجال لا نحبّ مِن الكلام أكثر من كلمة «حاضر».. «حاضر» تقطع علينا كل احتمالات الانفعال، وكل سُبل الجدال وكل خُطوات الشيطان.. «حاضر» تبقينا في مربع الراحة وتقصّر علينا مسافات الإقناع والمناهدة ووجع القلب، وكانت هي تقول «حاضر» دائماً وأبداً..

«مريم» التي رفض عم «حلمي» زواجي منها، ورفض أن يُعطيني نصيبي من فرن أبي، وتعلّل بضيق الحال وفساد موظفي التموين الذين يذهبون بكل أرباح الفرن، وما يبقى منها هو فقط ما يبقيها تعمل! لكنني كنت أراه كل فترة يبني طابقاً جديداً في بيته، وكل فترة يشتري قيراط أرض جديداً ويضمه إلى أرضه، حتى بات من أكثر الناس أرضاً، ولمّا كنت أواجهه كان يمسك حفنة تراب من الأرض، وينظر إليّ وهو يترك ذرات الرمال تهوي مع الريح ويقول:

- «يا ابني الأرض دي حبة تراب، والتراب بيجيب تراب، فِكرك يعني إني اشتريت الأرض كلها من الفرن الهلكان ده؟ أنا أجّرت أرضي، وبفلوس الإيجار ومساعدة من الدير اشتريت الباقي».

ولم أكن أصدّق؛ لأن الغضب عندما يصبح بديلاً عن العقل، والموقف المسبق عندما يصبح مكان القلب، فلا معنى للمنطق ولا جدوى للصدق، لم أكن أصدّقه وحسب، لذلك رحت لكل كبار

البلد، ذهبت إلى بيت العمدة وإلى شيخ الجامع وشيخ الصوفية والبابا وتجّار وأعيان البلد.. ذهبت إلى الجميع، وطلبت منهم عمل مجلس حكم بيننا، وألححت عليهم وتوسّلت لهم، ولمّا حاول بعضهم الكلام معه دون جدوى، حددوا موعداً، وكان مجلس الحكم في بيت العمدة.. لن أنسى ذلك اليوم.. كنتُ قد حضّرت كلامي كله وحضّرت الأوراق، ليلتها تسلّلت إلى الفرن فجراً، كانت الليلة معتمة، والقمر فيها محاقاً، تسلّلت وأخذت أبحث عن الدفاتر على ضوء كشّاف صغير، ولمّا وجدت الدفاتر كان منها لونان، دفاتر زرقاء وأخرى خضراء ملوّثة بالدقيق. أخذت الدفاتر كلها، خرجتُ من سقف الفرن وهبطت إلى الشارع الكبير، كانت هناك مجموعة من الكلاب في الظلام لم أرَها ودُسْت أقدامها، فظلّت تعوي وتهاجمني، رحت أضربها بالدفاتر في ذعر، حتى خرج عم «حلمي» من الشباك وراح يزعق: «مين اللي عند الفرن؟».. كنت قد مت حيّاً، لكن المتعلق بالحب من عرقوبه تموت فيه الدماء ولا يموت الحب، لذلك تمالكت نفسي ولم أهمس، وكنت أعلم أن الكلاب تشمّ رائحة الخوف، أو تشمّ رائحة الأدرينالين الناتج عن الخوف، لذلك هدأت ولم أهاجمها، فسكتت عني.. بقيتُ حتى دخل عم «حلمي» وجريت إلى البيت، لكن يوم جلسة الحكم جئت دون الدفاتر؛ لأن الصعيدي يدرك جيداً أنه لا يجب

أن يلجأ إلى الفضيحة قبل الستر، ولا الانتقام قبل الوعيد! لذلك
مرقت إلى بيت العمدة في ثبات، وأنا أرتدي عباءة والدي وعمامته
وأحمل عصاه.. كنت أستشعر روح أبي في تلك الحالة، وأتلبّس
الهيبة التي ضاقت عليه واتّسعت عليّ.. كنت كمن ارتحل داخل
نفسه، فصار يسمع ويرى ما لا يسمعه الناس ولا يرونه، ارتحلت
بداخلي، وصرت أرمّم الصدع الذي شكّلته الأيام وشكّله البعد
والهجر والخوف، وقفت أمامهم في هدوء، وقلت: «مش الواجب
قبل أن نتحاجج إننا نتعاتب؟» قالوا: «واجب برضه».. فقلت:
«طيب وأنا ليَّ عند عم حلمي كلمتين عتاب على جنب»، اختليت
به وقلت له في ثبات وكنت أرمق عينه بنظرات جريئة واضحة
ثابتة، قلت: «بقى دلوقتي أنا معايا الدفاتر كلها اللي كنت بتخبّيها
في الدقيق من الضرائب والتموين، والتانية البرّاني، وإنت كنت
شريك أبويا وعيب أصغّرك.. دفاترك في أمان ومش هجيب سيرتها
حتى لو فضل موقفك مني زي ما هو».

كانت عينه تزوغ مني وتعود، ولما انتهيت قال: «فِكرك إني ماكنتش
عارف؟ كنت عارف لمّا سمعت صوت الكلاب في الليل، بس كان
خلاص اللي خد حاجة خدها.. أنا مانمتش طول الليل، لا قدرت

أنزل أبص على الفرن ولا عرفت أطمّن، أبوك قال لي كلمة زمان:
«اللي اتاخد مابيرجعش»، الله يرحمه.

أنهى كلماته في يأس ورجعنا، ولمّا تكلّمنا بدأ الكلام عم «حلمي»، وقال: «لو عاوز الفرن ياخده ويسدد نصيبي على راحته»، كان الستر قد كسره أكثر من الفضيحة ذاتها، ربما لو فضحته لكان كذّبني ودافع عن سمعته ونفسه، ورفض أن يعترف بكلامي.. في صغري علّمني أبي أن هناك حقاً وهناك طريقة لأخذ الحق، وأن الطريقة الغلط قد تضيعه للأبد، ولما رأيته منكسراً لم أطِل في الكلام معه قلت: «والفرن مَهر مريم»، لكنه انتفض وقال: «بعينك، مريم بنتي ومافرطش فيها بميت فرن علشان واحد زيك»، وكانت كلماته هي الطريقة الخطأ التي أنصفتني، أخبرتهم جميعاً أن البلد تعرفني وتعرف أبي، وتشهد باحترامنا، وأن الدار كبيرة تَسَع مريم وذريتنا من بعدنا، وأنني مُتعلِّم ومعي شهادة عالية، وبعد الجيش ساكون من أصحاب المهن المحترمة، ثم إنه أقرّ بملكيتي للفرن، والشريك في المال شريك في النسب.. قلت لهم ذلك دون خوف، ولم يكن بإمكانهم غير أن يغلّطوه، ويخبروه أنه لا سبب مطلقاً لرفضه زواجي من «مريم»، ولا أعرف كيف وافق. المهم أنه وافق، وفي اليوم التالي ذهبت إلى بيتهم، ولم يكن

موجوداً. فتحت لي «مريم» الدرفتَيْن، كل مرة كانت تفتح درفة واحدة من الباب.. ابتسامتها.. فرحتها، النور الذي كان يضيء عينها.. البهجة التي كانت تضفيها على قلبي، أمسكت يدي دون خوف، وجرّتني جراً إلى الداخل، ثم إلى غرفة الجلوس، وكان التليفزيون على قناة تعرض الأغاني.. سكتت وظلّت تنظر إليّ، وسكتّ، فقالت: «بتفكَّر في إيه؟».. «مش بافكر».. «لا بتفكّر في حاجة»! «والله أبداً باسمعك».

ولم تكن تقول شيئاً، لكنني كنت أسمعها، كنت أسمع بداخلها كل كلمات الحب والخوف والتردد والاشتياق واللهفة والتمني.. كنت أعشق تفاصيل عينها وارتعاشة أناملها ونهجان أنفاسها ورائحة بشرتها.. «بحبك لما تبصّلي كتير.. باحسّك بتحوشني جواك، بتركّز مع كل تفصيلة فيّ». وكانت التفاصيل تمتلكني، لم أكن فقط أركّز مع كل تفصيلة، بقدر ما كنت أسير كل تفصيلة، أحفظ ملامحها بداخلي كوشم أبدي لا يخرج إلا بالكيّ، فيترك مكانه ندباً جديداً مشوّهاً لا يندمل أبداً! ولمّا طال السكوت وكانت «أنغام» تغنّي، فتترك بداخلنا ذكرى تطوف في فضاء ملوّن بألوان تشبه صوتها، ولا نعرف لها اسماً.. قالت لي: «الأغنية دي معبّرة»، وضحكنا، ضحكنا جداً، ثم كانت كل الأغنيات التي تليها من نوعية الأغنيات

المعتِّرة، فضحكت وقالت: «أنت دافع لهم ولا إيه؟» ولم يأتِ عم «حلمي» يومها أبداً.

وجاء موعد الفرح، وكنا قد أعددنا حصانَيْن، أركبتها حصاناً وركبت الآخر، ومشينا في البلد حتى الكنيسة. لا أعرف لماذا اخترت الخيل تحديداً، ربما لأنها كانت تُناسبني كصعيدي، وربما لأنني وجدت في الأمر مفارقة سوف يحكيها الناس، لكن الأكيد أن «مريم» كانت تتمنى ركوب الخيل، فأردت أن أحقِّق لها أمنيتها الخاصة في أول ليلة بيننا.. وصلنا إلى الكنيسة، وكان كل شيء معدّاً سلفاً، أنزلتها من فوق حصانها البنيّ، وكان عم «حلمي» يقف بالقرب منا، ويبتسم ابتسامة لم أرَها من قبل على وجهه، لم تكن ابتسامة فرحة، ولا ابتسامة مجاملة، ولا ابتسامة استسلام، كانت مختلفة وغريبة، وتدفع إلى التأمل والترقب والحذر والتأني، لكن الوقت لم يسمح لي بالتأني، دخلت ومعي «مريم»، ولما كان المكان يكتظّ بأهل البلد، ولمّا اقترب القسّ من القاعة، ولما كانت النوافذ الزجاجية المعشّقة بزجاج ملوّن عليه رسوم ليسوع المسيح ومريم العذراء وتدخل منه ألوية الشمس فتترك انطباعاً وأثراً ونوراً ملوّناً على النفس والحوائط معاً، ولما كانت الستائر تهتز والنسيم يلفح أجسادنا بهواء الخريف الرطب، وشعلات الشموع تهتز

جميعها في اتجاه واحد مع كل هبة ريح خفيفة. في تلك اللحظة التي كانت تشبه التصوير البطيء كان صوت أمي يهبّ من الخلف كريح عاتية تجتثّ الأرض فلا تبقي ولا تذر.. كان صوت أمي يسبق يدها التي امتدت لتشدّني من بذلتي البيضاء، وهي تصرخ في هيستيريا مقيتة كغوريلا هوجاء رأت من يتحرش بمنطقة تحت سيادتها في غابة لا يملكها أحد في أقصى الأرض. هبشتني يد أمي واقتلعتني من ذراع «مريم». كالعاصفة تقتلع النبتة من أرضها، ولما كدت أسقط وتمالكت نفسي نظرت لها وأنا في هول الموقف مكبل بالصمت لا أدري مَن أنا. أنظر إليها في ذهول وهي تسبّ وتشتم، ولا أسمع مِن كل كلامها غير تمتمة عبارات مكررة: «تتجوّز من غير ما تعزم أمك ولا تعرّفها يا ابن الوسخة؟! بقى شوية الرمم دول أهم عندك مني يا وسخ ياللي دفنت أمك بالحيا؟». كنت أُصرع مِن هول ما سمعت، ومن صفعاتها على وجهي وهي تشدني وسط الناس، وأنا أبتعد عن «مريم» بين قبضتَي أمي التي غادرت وسافرت وتركتني وأبي لا نعرف عنها شيئاً، غير مبلغ من المال ترسله إليّ كلما أرادت.. أمي التي أرادت الطلاق، ولما ضاقت الحيل هجرتنا وهربت، ولم نعرف لها طريقاً، جاءت الآن دون دعوة، وبعد أن بقيت لأيام أتصل بها بلا رد، جاءت لتُفسد كل ما دبّرته الأيام. للحظات كان دبيب الوشّ يسيطر عليّ؛

ولم أكن أسمع أي شيء من حولي، فقط أتلقى الصفعة تلو الصفعة، ولا أفعل شيئاً. كان «حلمي المنياوي» يسحب «مريم» من يدها ويجرّها في الأرض، وهو يشوح بيده ويقول للعمدة: «فضحتنا»، وعبارات أخرى لم أسمعها، لكنني فهمت أنه حتماً استغلّ كل ما يحدث لتفريقي عن «مريم».. دبيب تنميل يصيب جسدي كله، وصوت وَش متقطّع، والدموع تجعل الرؤية ضبابية، والناس تضرب كفاً بكفّ، و«مريم» تبتعد وهي تنظر نحوي وتصرخ، كل شيء كان كارثياً.. ملحمة من الهبوط والخذلان والعار والفضيحة التي لا ينفعها ستر، ولا يصلح معها تعويض ولا ينقطع عنها ذم.. نظرت إلى العمدة، إلى الناس، إلى «مريم» تبتعد عني، إلى «حلمي المنياوي» وهو يتظاهر بالضيق، بينما يملأ قلبه السرور.. تلك الابتسامة التي علت وجهه لم تكن تنبئ بالخير، ربما هو مَن أرسل إلى أمي وحرّضها ضدي، نظرت إليها وهي تكرّر جملها وسبابها وصفعاتها، مسكتُ يدها بقوة قبل الصفعة الأخيرة ويدها الأخرى، قالت:

- «هتضرب أمك يا وسخ؟!».

قلت:

- «لو ضربك هيفيد كنت دبحتك. أنا مش وسخ إنتِ اللي وسخة ومريضة وماتستاهليش الحياة، أنا فعلاً ابن وسخة».

خرجت إلى الشارع وأنا أحاول أن أتنفَّس. كنت أحتاج إلى نَفَس، إلى هواء مختلف ومكان مختلف وروائح مختلفة. روائح نظيفة بعيداً عن العطن والقذارة والوساخات.. كانت المرة الأولى التي تمنَّيت فيها لو أكون شخصاً «وسخ» فعلاً لكي أستطيع أن أتعامل مع القذارات. أحسست كأن منظومة الستر التي اتّبعتها مع «حلمي المنياوي» لم تكن إلا مجرد سذاجة ليس إلا. وأن الفضيحة كانت أَوْلى بأبناء الشوارع هؤلاء وكل مَن باعوا ضمائرهم. لا أعرف لماذا فعلت أمي هذا! كل علاقتي بها منذ أعوام تقتصر على إرسال مبالغ من حين إلى آخر، ومكالمة يتيمة كل فترة طويلة.. لا أعرف كيف وصل لها «حلمي!» لا أعرف هل هو فعلاً الذي أبلغها أم إن المصادفة لعبت الدور كله في صفه! هل «حلمي المنياوي» هو الذي هرَّب أمي من سنوات، وكان يعلم أن ذلك سيُصيب أبي بالعار ويبتعد عن الظهور ويترك له الفرن؟! هل كان على اتصال بها كل تلك الفترة، ولذلك رفض زواجي من «مريم»! كانت كل الأسئلة دون إجابات، في زمن باتت فيه الأسئلة غير منطقية وغير مبررة وتبعث على الغثيان، ولما كانت الأسئلة غير منطقية، وأصبح من قلة العقل وقلة القيمة انتظار إجابات منطقية أو أي إجابات أصلاً! أسرعت إلى البيت. لم أعرف ماذا آخذ وماذا أترك.. أخذتُ حقيبة الجيش ونظرت إلى البيت في يأس. لمحت الدفاتر فأخذتها

معي ونزلت إلى الشارع أجري.. خرجت من البلدة هرباً من مصيري المغلوب إلى مصير أكثر غلباً وأشدّ قهراً.. كنت مكسوراً ضائعاً خاوياً وملبّداً بالعار والذل والخسران، والأبشع من كل ذلك هو نظرات «مريم» ونحن نبتعد في ذلك المشهد العبثي، رؤية «مريم» في فستان الفرح وسط مظاهر الفرح وهي تبكي، والدموع تلطّخ وجهها بلون الكحل الأسود، فيتحوّل وجهها إلى سكك من الدموع وطرقات سوداء لا تستقيم على حال، وأبوها يشدها ويسحبها بعيداً عني، بينما كل شيء يتحوّل إلى كابوس. مشيتُ وحيداً ومعي الدفاتر، أدركتُ أنني خسرت «مريم» والفرن وأمي والبيت والبلد، وأنه لا سبيل للعودة إلى هنا مرة أخرى.. بقيتُ الليالِي الطوال تحاصرني ذكريات الفرح/ المأتم، وتصيبني حالة من التشنّجات والصرع، كنت أبقى الليالي الطوال في الجيش وحيداً، تلحفني الرياح بالمآسي، ويقسم ضلوعي السقم والمرض والانتظار! واليوم أين أنا منكِ يا «مريم».. لا سبيل للعودة إلى «مريم» بعد كل تلك الأيام، لكن اليوم بعدما أصبح اسمي لامعاً في الجريدة، أرجو أن يسمع عني «حلمي المنياوي»، ويدرك جيداً أن ما سببه لي مِن وجع لم يقسمني بقدر ما حفّزني، اليوم أنا أتذكّر كل ما حدث معي في الماضي، وأقف وحدي في مواجهة الحاضر.

توجهت إلى مكتب رئيس التحرير، وجلست مع السكرتيرة أنتظر خروج صحفي أجنبي يجتمع به، قالت لي السكرتيرة: «تحب تطلع في برنامج على الراديو تحكي عن المقالات بتاعتك»؟ ابتسمتُ ووافقتُ سريعاً، كانت السكرتيرة ترتدي بلوزة حمراء، وتضع في إحدى أذنيْها حلقاً كبيراً دائرياً فضياً، وفي الأخرى حلقاً صغيراً كحبة اللؤلؤ، وقد تركت البلوزة مفتوحة من الأعلى، فتظهر رقبتها بوضوح مع مُقدِّمة صدرها.. تفحّصتها من بعيد، وكانت جميلة ولافتة وجذّابة، لمحتني أنظر إليها، فلمَّت فتحة البلوزة بيدها، وأشاحت بعينها عني في خجل، لم أكن أتعمَّد اختلاس النظر، كانت نظرتي تلقائية، وكنت أنظر تلقائيًا إلى صدر أي امرأة إذا كان مفتوحاً، كانت كل عدة ثوانٍ تختلس النظر نحوي، وتلمّ فتحة البلوزة بيدها، حتى بعد أن امتنعتُ عن النظر إليها مباشرة، تساءلت: «لماذا لا تغلق الزر الأعلى من البلوزة بدلاً من أن تلمّ الفتحة كل ثوانٍ»! أردتُ أن أبتعد بالتفكير عن الموضوع كله؛ لأنني كلما فكّرت فيه اختلست النظر نحوها دون تعمّد.. فتحت «اللاب توب » وأخذت أقلّب في بريدي الإلكتروني، كانت رسائل كثيرة من مهنّئين ومعلّقين على المقالات، جلست أقرأها في صمت، ومن بين الرسائل رسالة بها جملة واحدة «عاوزة أقابلك» من إيميل باسم «فريدة»، ابتسمت من اقتضاب الجملة وقدرتها على الفعل، كانت

كلمتين فقط، لكنهما كفيلتان بأن تجعلاني أفكّر كثيراً في مقابلتها فعلاً، حتى وأنا لا أعرف من هي ولا ماذا تريد.. كتبت «نتقابل». وأرسلت لها الرد، وأنا أتوقّع أن تكون الرسالة كلها مقلباً من أحد الأصدقاء، أعجبتني الطرفة، فشاركت في اللعبة بردّ أكثر اقتضاباً. ومن كلمة واحدة، لكن في الحال وصلني رد به رقم هاتف! كانت المفاجأة والجرأة أكبر من توقعاتي، ولم أجد من الفضول مفرّاً. والفضول لمن لا يعرف أشرّ من الشيطان ذاته، لذلك خرجت من المكتب واتصلت بها، وكان صوتاً فخماً صافياً، يفصح عن سن النضج وعن نقاء خاص في الشخصية، وجدت في صوتها حناناً تلقائياً غير متعمّد وصفاءً بريئاً لم يتلوّث بعذابات البشر.

- «مجدي»؟

- «أيوه».

- «إنت فين»؟

- «في الشغل»!

- «ينفع نتقابل بعد ساعة»؟

- «فين»؟

- «في وسط البلد»؟

- ....

- «مجدي، ألو».

- «معاكي. بس أنا ماعرفش مين حضرتك حتى».

- «ماتفكرش كتير. ممكن نتقابل»؟

- «حاضر».

قلت لها «حاضر» مباشرة هكذا، وأنا لا أعرف مَن هي، لكن توليفة الحنان، الجرأة، الصفاء، والوضوح.. كل ذلك أخذني مما كنت فيه، ولم أكن بحاجة إلى شيء أكثر من ذلك، لم أكن بحاجة إلى حب جديد، أو يأس أعمق، أو نجاح مؤقت أو أي شيء.. كنت فقط بحاجة إلى التوهان لفترة، التوهان أو السرحان، أو مهما كان المسمَّى!

دخلت إلى مكتب السكرتيرة، فأخبرتني أن رئيس التحرير ينتظرني، ابتسمت لها، وقلت: «تعملي فيَّ معروف وتقولي له إني مارجعتش تاني؟»، وأخذت «اللاب توب» وخرجت جرياً. ذهبت مباشرة إلى حيث اتفقنا، التقينا في مكان غير عادي، كان المقهى ذا طابع شرقي أو ربما تركي.. الشرفات المطلّة على الشارع المصنوعة من خشب مزخرف لا يشبه الأرابيسك الذي نعرفه جيداً ولا هو بالطراز الحديث الملوّن. كانت ألوان المكان باهتة وروائح الشيشة بنكهاتها تنتشر من حولنا. فتضفي على المشهد لمحة غائمة. لكن الجو العام كان مختلفاً وجديداً. أحسست كأنها تعمَّد أن

تشغلني بدخان الشيشة عن التركيز في ملامحها، كأنها كانت تراقبني منذ قليل، وأنا أتفحّص البلوزة الحمراء للسكرتيرة. لم تشغلني ملامحها كما شغلني ذلك الإحساس بالحضن الذي وصلني من صوتها. والذي أشعر به الآن وأنا أتكلّم معها.. أخذت تتحدّث دون توقف عن كل شيء في حياتها. حكت لي عن تفاصيل التفاصيل، عن خوفها وارتيابها من الأمور الجديدة، عن ترددها الدائم والمستمر، عن لحظات التراجع ولحظات الندم وأحلام الونس. حكت كثيراً، وكان يؤرّقها دخان سجائري، فكانت تسكت وتنظر إلى الشارع وتهشّ الدخان بيدها. فأنتبه وأطفئ السيجارة، ومع الحكايات تتوه الحواجز وتضيع الفوارق. كنت أشعر كأنني أدّخر فيها الأمل.. حكت ولم تسكت حتى تعبت، فتنهدت وابتسمت للمرة الأولى، قالت: «كفاية كده دوشتك، احكي إنت بقى».

لم أجد ما أحكيه، وكنت مشبعاً بحكاياتها، عرفت أنها مثلي أسيرة قصة لم تكتمل، «فيه بعض القصص ماينفعش تكمل؛ لأنها لو كملت هتخلص!» كانت تلك عبارتها التي رددتها كثيراً طوال جلوسنا. سألتها عن سبب اهتمامها بمقابلتي، فأخبرتني أنها المقالات المنشورة.. أضحت تلك المقالات تؤرّقني! بتّ خائفاً أن تصل يد كاتبها فلا أجد حينها مكاناً يحتويني من نظراته. كنت

أعرف أنه لن يفعل أكثر من النظرات، لم يعد يمتلك شيئاً، لذلك لما تذكّرته في لحظتي تلك، أخرجت هاتفي المحمول، وأرسلت له رسالة «نتقابل بعد ساعة في القهوة؟»، وأرسل ردّاً من كلمتين «أنا هناك»، نظرت إليها ولم أجد كلاماً، سألتها: «وإيه عجبك في المقالات»؟ كانت روائح الشيشة بدأت تخنقها أكثر مني، سألتها: «نخرج»؟ خرجنا.. مشينا في طريق طويل واسع وسط الناس والأحلام وانكسارات الأسى وشغف الوصول، نقترب من بعضنا كل فترة نتلامَس دون قصد، أشمّ عبق ريحها الخالص، أحسست أن لها رائحتيْن، كلاهما جميل، لشعرها رائحة ولبشرتها رائحة، تعمّدت بعد ذلك أن أركّز مع تلك الرائحة المميزة، يقولون إن الحبيبين تضيع رائحتهما في بعض، فتبقى في ذاكرة كل منهما رائحة الآخر المميزة التي لا يجدها في أي شريك جديد.. لكلّ منا بصمة رائحة كبصمة الضحك والأصابع والصوت والروح، لكل منا شفرة لا تنفكّ إلا ببصمة مجهزة خصيصاً لتنطبق على شفرات الروح فتحلها، وتفك كل شفرة بمفتاح خاص رباني مقدّس ليست له نسخ إضافية.. فقط نسخة واحدة لشخص واحد يمتلك وحده حق الولوج بداخلك وليس الولوج إليك، شخص واحد تمتلك بصمة شكله ونغمة صوته وسرعة خفقان قلبه وذوقه في الأكل واللبس، وطريقته في اللمس والمشي والرقص والهزار والكلام،

وحركة بنانه على ذراعك، وهنات صوته على مسامعك، ودفء أنفاسه بين راحتيك. واختلاط أنفاسكما وألسنتكما، وتصنّعكما للغضب وعبارة متكررة تفيد بأنكم «مش هتهونوا على بعض أبداً!». وأسأل نفسي: لماذا كلمة الهوان تحديداً وليس أي تعبير آخر؟ غير أنني لا أهتمّ بتلك التفاسير الآن، أهتمّ فقط بكوني بجوارها، لم أُقنع نفسي بأنني أحبها، بقدر ما فكّرت في أنني مستمتع وراضٍ فقط بوجودي معها، مشينا حتى وصلنا إلى ميدان «الإسعاف»، لم ندرك أن حرارة الجو كانت تحرقنا إلا بعد وقوفنا. كنا نغرق في بركة من العرق، قالت: «ماتكلّمناش عن المقالات».. وابتسمت، أخبرتها بأنه لا جدوى من الحديث عن المقالات الآن في هذا الإرهاق والتعرق، تبادلنا أرقام الهاتف، واتفقنا أن نتحدّث مساءً، وأصرّت أن تعزمني على عصير قصب من المحل الكبير أعلى محطة المترو، لم أمانع.. كان المحل يكتظّ بالعطشى أصحاب الكروش السمينة والنظارات السميكة، والذين اكْتووا بنار الشمس مثلنا، تأخرت قليلاً في تناول كوبي من العصير، ربما ألف واحد على الأقل شربوا من نفس الكوب منذ الصباح.. كانت الفكرة تُقلقني وتربكني وتشعرني بالغثيان.. لمحت في عينيها نظرة متأنية ساخرة.. قالت: «قرفان؟»، تحرّجت أن أقول «نعم»، ولا. أعرف لمَ علينا أن نتحرّج من مشاعرنا الطبيعية، نتحرّج أن نخبر

البعض أننا عطشى، جائعون، مرهقون. أو نشعر بالملل. أو نشعر بالرغبة في البقاء وحدنا! لماذا علينا أن نلتزم بما يرغب فيه غيرنا أو ما يرغب غيرنا في سماعه أو عدم سماعه!. لذلك لم أجبها، ولم تنتظر إجابتي وردّت هي بسرعة: «الوقت اللي هقعد أفكّر فيه أشرب من كوباية زي دي أو لأ في عز الحر ده، هيضيّع عليَّ بهجة العصير.. فيه حاجات بنقع فيها برغبتنا أسهل ما نفضل نفكّر كتير وإحنا على حافة الوقوع.. صدَّقني الوقوع في اللحظاتْ دي بيكون أسهل، أسهل بكتير من إنك تفضّل تفكّر كتير أنا إمتى هقع»!

قالتها وسلّمنا على بعضنا ورحلت، ظلّت جملتها الأخيرة ترنّ في أذني، كأنها تخبرني بشكل واضح ألا أفكّر في الأمور التي يسهل الاعتماد فيها على الإحساس.. انطلقت إلى المقهى وقابلتُ الدكتور، كانت نظرته البلهاء الصامتة المستكينة التي لا تفصح عن شيء، فقط مزيداً من الغموض والتوهان.. جلسنا وطلب لي شاياً، وجاء «رزق» بالشاي، لكنه لمّا أتى ظهرت عليه ملامح غير التي اعتدناها من أسى.. كان الأسى والوجع المعتاد يصاحبان «رزق» صباح مساء، لكنهما كانا يلائمانه، كان يعرف كيف يغمس أنّات الوجع في كوب من الشاي بلبن، فيشربه وحيداً أمام المقهى، وكيف ينتظر العذابات لتيأس منه فتهرب إلى شخص آخر تجيد التنكيد عليه؛

لأن «رزق» لم يكن يلقي بالاً للوجع ولا للعذابات ولا للنكد.. كان «رزق» وفقط ولا شيء آخر. يعيش على هامش من الحياة وهامش من الموت! كلما نظرت إليه سألتُ نفسي: مَن هم ملح الأرض؟ الأشخاص البسطاء الذين يملأون الدنيا حياة ولا يؤثِّرون في الحياة نفسها، هؤلاء المجهولون الذين ماتوا في الحروب، فلم نعرف لهم اسماً. والذين قضوا الأيام في العلاج والبحث عن لقمة عيش بين أفواه الجوع، والذين انتظروا الموت في ساحات المساجد وأروقة الكنائس وباحات مستشفيات التأمين الصحي وأرصفة الشوارع وشُرفات المنازل وأمام التليفزيون وبين أيدي ذرياتهم.. انتظروا الموت في صمت مهيب، لا تدري هل علموا باقترابه أم باغتهم كما باغتتهم الحياة بكل ما فيها؟! كان «رزق» هو ملح الأرض جميعهم، بكل ما فيهم من مشاعر وذكريات وتهميش وسكينة ورضا واتساق مع النفس وخنوع محبب إلى القلب، مع رغبة في البقاء والعدم معاً! أمسكتُ بيده قبل أن يرحل، وقلت له «تعالَ اشرب سيجارة»، وجلس مستكيناً خائباً وساكتاً، نظرت إلى الدكتور الذي لم ينطق هو الآخر منذ أن حضرت وقلت له:

- «وانت إيه اللي جرا لك إنت كمان»؟!

سكت للحظات ثم قال:

- «أنا ماجراليش.. رزق يحكي لك اللي جرا له»!

قلت لهم:

- «ده فيه حكاية بقى»!

وأخرجت علبة السجائر وتركتها مفتوحة، وقلت لهم:

- «علبة السجائر عندي والمشاريب كمان، احكي يا عم «رزق».

كانت عيناه تنظران في اتجاه غير الذي نحن فيه، ظلّ يحكي بهدوء ويستفيض في التفاصيل، ثم بدأ ينفعل أكثر ثم أكثر ثم أكثر.. قال لنا:

- «أنا بقالي شهرين مش عارف ألمس المدام، مش دي المشكلة، لكن أنا ماكانش ليَّ غيرها.. إنتم عارفين، أنا كنت باصبَّر نفسي على الدنيا بيها.. الحاجة الوحيدة الحلوة اللي كانت في حياتنا هي الموضوع ده، وهي كانت راضية، وأنا.. أنا كنت راضي والله، بس ولاد الكلب مش بيسيبوا لنا فرصة حتى نرضى.. ساعات باحس إن الدنيا بتخلص وإحنا مش واخدين بالنا، أنا كنت راجع كافي خيري شري من عند حماتي ومعايا مراتي وحاجتنا، قابلني الظابط اللي متخانق مع المعلّم، أوّل ما شافني قال لي أهلاً شرّفت.. وقفني في الكمين، وقال لي اقف هناك على جنب.. وقفت، طب هعمل إيه، وقفت على جنب أنا ومراتي لحد ما رجلنا ورمت، ماكناش بنعمل حاجة ومكانش بيعمل حاجة، فضل يتسلى مع صحابه ويشربوا

شاي، لحد ما جه ظابط كبير، قال لي بتعمل هنا إيه يالا؟ قلت له الباشا موقفنا، ولما جه الظابط سأله ما له ده، قال له عيِّل بايظ عامل هشاكل في المنطقة، قال له طب فتِّشه ولو معاهوش حاجة مشِّيه علشان الحريم اللي معاه.. الظابط فتِّشني، وفتِّش الشنط ومالقاش أي حاجة، قال لي: امشي، وبعدين لمح شنطة في إيد مراتي، قال لي: استنى ورِّيني الشنطة دي.. قلت له: يا باشا مايصحش دي فيها هدوم المدام وحاجات خصوصي، قال لي: مدام؟! مدام إيه يالا إنت فاكر نفسك محامي، وشد الشنطة من إيدها وفتّشها.. طلَّع.. طلَّع لا مؤاخذة السنتيالات والكلوتات وكل هدومها، وقعد يتفرج عليهم، وفضل يفرَّجهم للضباط، ويقول لهم: المدام شكلها مهتمة بنفسها أوي علشان خاطر الأستاذ، وقرَّب مني وقال لي: تسمح بقى نفتش المدام! وضحكوا كلهم.. ضحكوا والناس بتتفرَّج عليَّ في الشارع! قلت له: يا باشا المشكلة بينك وبين المعلم ماتدخلنيش بينكم، زعق فيَّ، وقال: معلم إيه يا روح أمك.. إنت فاكر المعلم ده ليه لازمة، طب هفتّشها أنا وكل العساكر والكمين كله، ولما حاولت أمنعهم ضربوني، وفتّشوها، فتّشوها يا أستاذ مجدي، وأنا مابقيتش قادر ألمسها ولا أبصّ في وشها.. بالليل.. كل يوم بالليل باحلم إنه -لا مؤاخذة- بيعرّيها.. أنا مابقيتش راجل يا أستاذ مجدي! مابقيتش راجل».

قالها «رزق» وكررها ولم أجد ما أقوله، لم يكن في يدي شيء أو حيلة، وكانت كل عبارات المواساة لا تفيد، وكل الوجع لا يكفي، نظرت إلى الدكتور وقلت: «عندك حل؟» وكنت أسأل نفسي: «وهل للعار من حل؟»! كنت جرّبت العار من قبل، وأعرف جيداً الإحساس بالعار، وأي ألم يعادل الشعور بالعار.. مسكين «رزق»! أطفأت السيجارة ولم أكملها.. كنت أشعر بالقرف.. القرف المركّب والمشؤوم والمنبوذ.. قرف يعتريه قرف.. سكتّ ولم أجد شيئاً أقوله.. كنت أزدري حتى نفسي؛ لأنني كصحفي لم أكن أملك حتى خيار الكلام عن هذا الموضوع.. أنا بائس مُعيَّن بواسطة، ونجحت بمقالات لم أكتبها، وليس لي سوى المواءمة، لذلك سكت وتمنيت لو بقيت مع «فريدة» ولم أرجع، على الأقل كان عصير القصب بكل ما فيه من شكوك أهون من هذا الموقف الأليم.. سكتّ ونظرت إلى الدكتور.. نظر نحو النيل وقال لـ«رزق» ولم ينظر إليه:

- «هكتب لك على جرعة زيادة من نوع مختلف من مضاد الاكتئاب تاخده إنت ومراتك وماتبطلوش مرة واحدة.. لازم تعرّفني لما تحس إنك بقيت كويس وعاوز تبطّله»..

قلت للدكتور:

- «اكتب لي اسمه وأنا هجيبه لـ«رزق» كل ما يخلص»..

سكت كلاهما ولم ينطق أحد. أردت أن أخفف من حدة الموقف.

قلت لـ«رزق» مازحاً:

- «هجيب لك جرعة زيادة حطها في كل المشاريب.. الناس كلها عندها اكتئاب مش إنت بس.. حتى الظابط ده.. تلاقيه عاجز وبيطلعهم عليك».

وضحكوا ضحكة خفيفة.. لمح الدكتور الطرفة فاستلمها ومازح «رزق» قائلاً:

- «تصدَّق صح.. تلاقيه ضايع، يا ريت تتصدَّق عليه بشريط من اللي هيجيبهم مجدي، هو محتاجهم أكتر منك».

وضحكنا جميعاً، ضحكنا جدّاً، وضحك «رزق»، وتبدّلت ملامحه وبدأ يبتسم.. ابتسم وقال: «الله يسامحكم» وقام..

كان الموقف مهيباً، وكنت لا أقدر على الكلام، لكن فضولاً دفعني إلى الحديث.. قلت للدكتور:

- «قابلت النهارده بِنت شكلها هتغيّر حياتي».

- «دي رابع بنت تقول عليها كده».

- «لا دي مختلفة».

- «إزاي»؟

- «حنيِّنة وجواها حضن أمّ كده»

- «حضن أمّ؟! باقول لك إيه خد مع «رزق» من العلاج».

- «يا أخي إنت مش كنت محترم ومش بتتريق عليَّ».

- «وأنت ما كنتش محترم»؟

- «أنا كنت محترم وعقلت».

قلتها وضحكنا.. ضحكنا حتى صرنا نتمايل من الضحك، والناس تتابعنا من داخل المقهى وفي الشارع.. ضحكت ولم أكن مستعداً للضحك.. ضحكت وكان الدكتور يضحك ولا ينظر نحوي، وكنت أتمنى لو أستطيع السرحان مثله في أي شيء غير «مريم»!

(٧)

الدكتور

سألت نفسي عن الأحلام التي لا تفضي إلى موت، عبثاً لم أجد سوى تلك التي أفيق منها مفزوعاً، وحدها أحلام النوم يمكننا أن نفيق منها على حياة أشدّ وطئاً من أصعب الكوابيس، لكن أحلام اليقظة، الطموحات والأماني، تؤول إلى موت محتوم مطبق من كل جانب، لا يستوقفه شفعاء، ولا يسترعيه استجداء، ولا يمنعه عمل صالح، ولا يقف دونه دعاء الصالحين.. موت يتبعه موت، لأن في ظروف كالتي نعيش فيها، في زمن كالذي جئنا فيه وبهذه المنطقة المكروبة من الأرض تحديداً، فإن الأحلام ستقودنا فقط إلى موت محقق، سواء بمواجهة مَن يتعمدون قتل الأحلام في المهد أو بانتهاء مدتك في الحياة، قبل أن تدرك حلمك، لأن ما يسمّى بـ«الظروف» لم تساعدك.. كنت أحلم بهلاوس لا تستوي على حال، أشياء كثيرة غير منطقية حلمت بها في نومي المتقطع، حلمت

برجل عجوز يجري في خفة بين السيارات المارة في طريق مزدحم، يبيع البارفان ويمسح زجاجات السيارات، ويبتسم ليتلقى الصدقات من أصحاب السيارات، ولم تنطفئ بسمته أبداً، وكنت أقود سيارتي ومعي بالخلف حقيبة الظهر الخاصة بليلى، اقترب مني الرجل وقال: «تاخد برفان يا بيه»، وأخذت منه زجاجة برفان، لكنه رفض أن أدفع له ثمنها، وأصرّ أن يأخذ حقيبة «ليلى» ثمناً للبرفان، وبعد أن تركته مررت بكمين وفتّشوني، ولم تكن الحقيبة موجودة، فمررت بسلام.. التفتُّ إلى الرجل بعد أن مررت ولم أجده، وجال في خاطري أنه لم يكن رجلاً أصلاً، كان ملاكاً أنقذني كنوع من الكرامة؛ لأنني كنت بريئاً جدّاً ربما، أو لأن الأحلام تقتضي ذلك!

لم تهدأ أسئلتي طوال اليوم، وكان خيالي الشقي لا يكفّ عن ابتكار مزيد من الأسئلة، لذلك لم أجد غير الهرب طريقاً لوقف نزيف التساؤلات الذي يجتاح عقلي ويسبِّب لي صداعاً مريراً.. قمت من الفراش وارتطمت يدي بكوب ماء نصف ممتلئ كان يمكث وحيداً على الكومودينو في دياجير غرفتي المظلمة، نظرت إلى الماء ينتحر في يأس على السجادة القديمة الذابلة، بقيت أنظر إلى الماء ينساب في صمت حتى تحوَّل سرسوب الماء المتصل إلى قطرات

منقطعة على مراحل متتالية. كانت ذكرياتي كلها تتساقط مع قطرات الماء على السجادة. ولما بدأ الماء ينساب إلى قدمي قمت من مكاني. كنت مخدّراً، ولم أفِق من نومي بشكل يسمح لي بأي نشاط أو باستقبال أي دافع. خرجت إلى الصالة، وكان باب غرفة مجدي موارباً، سمعته يُصدر نشيجاً، وأصوات أنفاسه تعلو، كان يسكت قليلاً. ثم أسمع أنات صوته، وبالكاد أسمع تمتماته.. لم يتوقّف «مجدي» عن البكاء ليلاً منذ أن سكنت معه إلا مؤخراً، لكن لم تكن من عادته أن يبكي صباحاً. وقفت في منتصف الصالة لا أعرف هل أدخل لأواسيه أم أتركه وحيداً.. عدلت كرسياً كان مرميّاً في منتصف الصالة، وضعته بالقرب من ترابيزة صغيرة كنا نستخدمها كسُفرة، غير أننا لم نعد نأكل في الشقة، وأصبح كل وقتنا في الشارع، انتظرت في الصالة، وتعمّدت أن أصدر أصواتاً وخروشات لكي يسمعني «مجدي»، فيخرج ليجلس معي من نفسه أو يطمئنّ ويهدأ، لكن صوت النشيج والهمهمات لم ينتهِ. كانت عنكبوت وحيدة قد غزلت بيتاً في ركن السقف، وقد عبّأته الأتربة، فصار بيت العنكبوت الكبير نسبيّاً واضحاً جدّاً، غير أنه لا يظهر منه إذا كان قد علق به بعض الذبابات أم لا. سألت نفسي لماذا تغزل العنكبوت الأم البيت ولا يغزله الذكر؟ ربما لأن شأن الأنثى وشأن الرجل متشابه حتى لدى الحشرات؛ لأن المرأة

تسعى بفطرتها إلى الاستقرار إلى بناء البيت وترتيب الأسرة وتطبيق الملابس وكيّ الستائر، بينما لا يسعى أي مغفّل منا نحن الذكور إلى أي من تلك الأمور. ربما لن ندرك أن الستائر مكوية، وربما لن نلاحظ وجود الستائر أصلاً. نحن بالكاد سنتبه إلى الأمور التي تتماسّ مع مصالحنا، بالأشياء التي تصبح على المحك مع الحياة ذاتها. نحن نفرح بالأشياء التي تحدث سريعاً وتنتهي سريعاً، ويأتي غيرها سريعاً، اعتدنا ذلك بالفِطرة، لذلك لم نكن نهتمّ باللعب بالعرائس وتربيتها منذ الصغر؛ لأنها كانت تتطلّب أكثر من اللازم، كنا نهتم بالأشياء التي تمرق كما يمرق الوقت.كنا نفضل لعب الكرة والبلي والنحل والتراشق بمسدسات المياه، كلها أشياء تحدث سريعاً.. ربما لذلك تبْنِت العنكبوت الأنثى البيت، لاحظت أنني أضيّع الوقت في تأملات لا محل لها وسط نشيج «مجدي» الذي يزداد، وتوهاني الذي لا ينقطع. فعقدت العزم على أن أتحرك بسرعة، فتحت الباب على «مجدي» ووجدته ممدداً على سريره في مقابل الباب، وكان نور الصالة يعمي عينيه وجسدي يلقي بظلاله على أرض الغرفة. نظرت إليه في حسم وقلت: «قوم عاوزك هنتزل»، وانصرفت ولم أترك له مجالاً للاعتراض. خرجت وكنت أشعر بدوار يسيطر عليّ، لكني استجمعتُ قواي وتجهزت للنزول.

نزلنا، وانتظرت أن يسألني «مجدي» ماذا أريد منه. أخذت أحضِّر ردوداً وحججاً، لكنني أردت فقط أن أخرجه من حالة البكاء التي انقطعت لفترة ثم عادت له اليوم فجأة.. كانت المحالّ لا تزال مغلقة، والشوارع تتنفَّس صبحاً وشيكاً، بدأت ملامحه تتضح، مشينا وحدنا حتى وصلنا قرب ساحة متسعة، وكانت عربات الأمن المركزي تصطفّ بجوار الرصيف، والعساكر يقفون صفّاً واحداً أمام العربات ووجوههم للشارع، لا أنسى نفس المشهد عندما اعتقلوني بالقرب من الجامعة في الإسكندرية، وتركوني شهوراً طويلة في حبس احتياطي تعسفي دون أي وجه حق، حتى إنني خرجت دون قضية ودون أن أُعرَض على قاضٍ أو أدخل محكمة، خرجت بقرار كما دخلت بقرار، ونحن نمر بالقرب من عربات الأمن المركزي اتخذنا منحى من الطريق الذي بدأ يظهر فيه سور حديدي لونه أخضر يفصل الشارع عن الرصيف، وتصطفّ العربات من خارجه في محاذاته، عندما صرنا أمام السور ابتعدنا عن العساكر وعن العربات وعن المشكلات، نجونا بأنفسنا من الاحتياط والتعسف والترصد، وصرنا نمشي على الرصيف خلف الأسوار، مشينا حتى اقتربنا من مجموعة ضباط يجلسون على مقاعد ويشربون الشاي، أشحت بنظري عنهم، لكن «مجدي» أوقفه أحد الضباط وتحدَّث معه بصوت خفيض، حاولت ألا

أتوقف وأن أسير في طريقي، كنت خائفاً. والخوف أكبر من الشهامة والمروءة والرجولة والشجاعة معاً.. الخوف والمكابرة هما أكبر التشوهات التي تجعلنا نخسر دائماً. كنت خائفاً ومرتبكاً وخاوياً، ولا أجد في نفسي قدرة على المواجهة، رحت أحاول الابتعاد، لكن «مجدي» ناداني حتى توقفت. رجعت إليهم عدة خطوات في يأس وخوف وترقب.. كنت أسمع وقع أقدامي على الأرض، وأرى حركة الغبار عبر أشعة الشمس، وأسمع همهمات الناس وصوت أنفاسهم.. كل شيء تحوَّل إلى حالة من التصوير البطيء، وكان قلبي يخفق كما لم يخفق من قبل، اقتربتُ منهم، وكانت عين الضابط ترمقني من بعيد وتتابع حركتي، حاولت أن أخفّف من ارتعاش يدي، ولم أستطِع، فوضعت يدي في جيبي، واجتهدت في صنع ابتسامة لم تحدث أبداً.. بالكاد وصلت إليهم ومدّ لي الضابط يده، فصافحته وتحاشيت النظر في عينيه قدر المستطاع، لكنني عندما لمست يده أضاءت في عيني آلاف المشاهد لذكريات المعتقل، للنور الأحمر الخفيف الذي كان يدخل من شباك الباب الحديدي، والنقوش التي كانت محفورة على حوائط الزنزانة، أحدهم حَفَر عبارة: «هل سأراكِ مرة أخرى يا أمي؟» وآخر حَفَر نتيجة يسجل فيها الأيام، وكان كل يوم يحفر علامة على اليوم الذي يمر، حفر أكثر من ٩ أشهر، ثم توقفت العلامات، لا

أعرف هل خرج أم مات، حينها قلت لنفسي: «وكم سأبقى يا ترى»؟ تذكّرت البرد الذي كان يجتاحني، ولم يكن هناك غطاء، فكنت أتكوّم على نفسي كما تكوّمت الفتاة في الممر بين الزنازين.. كل شيء حدث لي في المعتقل أضاء كمجموعة من فلاشات التصوير أمام عيني، وأنا أُصافح ذلك الضابط، سلّمت عليه، ووقفت وأنا أتعرّق، أحسست بأنني أبالغ في ردة فعلي، لكنني حقّاً ارتبكت وخفت على ما تبقّى لي من فرص في الحياة ليضيع في حبس احتياطي! نظر لي الضابط وابتسم ساخراً وقال: «هو صاحبك هربان من حاجة ولا إيه يا مجدي؟ » وضحِكا. جاهدت نفسي على التبسّم ولم أنطق.. استمر الموقف هكذا ربما لدقيقة كألف عام، انتهى الحديث بين «مجدي» والضابط ببعض الضحكات، ووعد بلقاء قريب وتصافحنا، ثم مضينا في طريقنا، غير أن الضابط وهو يصافحني في المرة الأخيرة نظر في عيني نظرة فاحصة مُتهمة ولم يبتسم.. أحسست بأنني افتضح أمري، ولم أعرف ما هي جريمتي التي أخشى منها، الوضع المنطقي أن يكون هو وكل أمثاله موضع الاتهام وليس أنا.. لم أكُن ارتكبت أي فعل مشين أو حتى فعل أحمق، هم الذين ارتكبوا جريمة تتنافى مع القانون والأخلاق والحق، وربما كل المعايير الكلية للخير.. للحظة أحسست أنني فقدت قدرتي على البقاء! سألت نفسي عجباً: وهل

يمكن أن يفقد الإنسان قدرته على البقاء؟! وهل هناك ما يسمّى أصلاً بالقدرة على البقاء؟ وماذا يحلّ بالمرء عندما يفقد قدرته على البقاء؟ وماذا سيكتسب بدلاً عنها؟ حاولت الامتناع عن التفكير. عبثاً لم أقدر على ذلك: لأن محاولة الامتناع عن التفكير في حد ذاتها تفكير. سألت نفسي: لماذا بقيت تائهاً بعد خروجي من الحبس؟ ولماذا رهنت حياتي بالبحث عن «ليلى»؟ هل كانت خياراتي محدودة لتلك الدرجة أم إنني لم يكن لديّ خيارات من الأساس؟ ثم ماذا كانت خيارات «ليلى»؟ هل بحثت عني؟ هل حاولت أن تعرف مكان اعتقالي فتساعدني؟ هل حتى بقيت لتبكي على ذكراي؟! في الليلة الأخيرة، حين سهرنا معاً عند ميدان المنشية، عندما كنا نتمشّى في هذا الليل الصقيع، حاولت أن أمسك يدها ونشبك أصابعنا ونحن نمشي، لكنها كانت تتهرّب بلطف، لم تدع لي حتى فرصة أن تحضن أناملي يدها، وأن تذوخ كل الهموم في حضن اليدين الوحيد. نظرت لها وقلت:

- «إيه أكتر حاجة بتكرهيها»؟

- «الأنانية».

- «وتفتكري إنتي ممكن تبقى أنانية وإنتي مش عارفة»؟

- «وتفتكر فيه حد ممكن يعمل حاجة بيكرهها وهو مش عارف، اللي بيعمل حاجة بيكرهها بيبقى فقد كل الفرص التانية،

ومابقاش معاه غير شوية كره مغصوب علهم، أو اتولد بيهم، أو ممكن تضحك على نفسك وتسمّيهم الشيطان».

- «مش واخدة بالك إنك بتسحبي إيدك من إيدي كل ما أقرّب منك، مع إنك وقت ما بتحبّي بتشبكي إيدي وإنت بتضحكي وبتتكلمي من غير حتى ما يخطر على بالك إني ممكن أسحب إيدي أبداً».

- «أنا مرتبكة ومش في مزاج مناسب».

- «جايز مرتبكة.. وجايز أنانية».

قلتها وابتسمت، ابتسمَت وباغتُها بتشبيك أصابعنا قبل أن تفكّر في الكلام، وقبل أن تشتعل انفعالاً، وقبل أن تصر على مجادلتي، وحتى قبل أن تستجيب إلى مسكة يدي.

لذلك بعد لقائي بهذا الضابط مع «مجدي»، هزّني اللقاء، وأدركت كم أنني لا أساوي شيئاً.. إنني حتى لا أساوي فكرة البراءة، ولا أساوي فكرة الحرية، ولا أساوي حتى الفكرة المجردة عن الفشل.. كنت لا شيء، وقررت لحظتها أن أتغيّر فوراً وفي الحال وحتماً ورغماً عن إرادتي وعن نفسي وعن إمكنياتي، قررت أن أطرح على نفسي الأسئلة، كل الأسئلة، ولا شيء إلا الأسئلة، وأن أحاول

البحث عن إجابات، مهما كانت غير منطقية وغير مجردة من الأهواء..

مشيت في طريقي إلى المقهى ونسيت أن «مجدي» معي. كان يسرع الخطى ليلحق بي.. أمسك بيدي وصدره يعلو ويهبط ولا يكاد يأخذ نفساً.. قال: «ما لك»؟ قلت لنفسي: «أحيانا الواحد بيكون مش حابب ولا مستعد يجاوب عن السؤال الملعون اللي اسمه: ما لك؟» واكملت سيري دون رد، مشيت في طريقي بخطوات أهدأ.. سكت كثيراً، وأنا أتنفّس هواء الصباح، وبالقرب من مفرق كبير على الطريق كانت أصوات جنود الأمن المركزي تعلو وهم يمارسون تدريباً أو عرضاً عسكريّاً ما، ويدبّون أقدامهم في الأرض، مع ترديد كلمة عالية غير مفهومة قد تكون «صخر».. «مصر».. «نصر».. أو غيرها.. المهم أن أصوات أقدامهم مع الترديد تصنع إيقاعاً متكرراً ومُلِحّاً، ويبعث في النفس شجوناً، شجونٌ لا تقتصر على أحد، لكنها تلتحف بالفضاء من حولنا، تعترينا وتكبّلنا أو تطلقنا مع كثير من الوجع، أو سمِّه الهموم وربما الظروف، المهم أن تلك الشجون لم تكن تتركني ولم تكن تخصني وحدي.. كم مجنداً يردّد النداء الآن بكل أسى وينتظر إجازة مرتبطة بظروف يحددها أحدهم في المكتب الذي لا يعرفون مكانه، وبحسب سنوات عمره التي تضيع

بين يديه في تداعيات الوطنية وتهافت الواقع. كم رجلاً وامرأة في المفرق ينتظرون الموت يأتي في الصباح مع ابتسامات صغارهم وأحفادهم، كم طفلاً ساذجاً أغرته براءة الأحلام بالتمني ودعا ليلاً قبل كل نوم أن يكبر مثل أخيه أو والده، ولم يدرك أنه يدّخر الندم بذلك الدعاء.. نحن حمقى.. لا نفعل ما يجب علينا فعله، نموت ببساطة أو نحرق كل شيء! غير أن الموت ربما يبدو أسهل، فقط كل ما علينا فعله هو الاستسلام لأي شيء أو أول شيء يحدث، أو لا شيء، أما أن تحرق كل الأحصنة، أن تدمّر كل الثلاجات التي تحفظ القضايا والأدلة، أن تنتفض على التضليل وتطلق سراح المنطق.. تلك أمور تحتاج إلى شجاعة استثنائية لا يمتلكها إلا الشجعان، لا الحمقى!

سألت نفسي عن كل الأمور التي عرفتها عن «ليلى»، ولم أجد سوى معلومة واحدة مهترئة التفاصيل، معلومة واحدة وبعض الأقاويل، المعلومة أنها رحلت إلى القاهرة، والأقاويل أنها ارتدت النقاب ولمّت شعرها الذي طالما صففته بأصابعها وربطته بقلم، ثم أخذت تبحث عن القلم مرات كلما احتاجته. الأقاويل أنها قالت لصديقة مشتركة: «هادعي له كتير، بس لما يخرج لو حب يقابلني لازم يعرف إني اتغيّرت، ومش هاعرف أكون غير مع حد

شبهي، إحنا بقينا من عالمين مختلفين»، والأقاويل لا تتسم بالصدق ولا بالحسم أيضاً. الأقاويل توقد تحتك ناراً لا تحرق ولا تهدأ.. الأقاويل دخان ملء السماء، لم يحدث من تلقاء نفسه. لكن ربما حدث لحريق لم تشعله أنت! لذلك تساءلت عن الأقاويل، هل كان عليّ أن أتغيّر من أجل «ليلى».. تلك التي علّمتني البقاء على قيد الحياة لأسباب لا تتعلّق بي وحدي، وإنما لأسباب قد تتعلق بها وحدها أو بنا نحن الاثنان، أو من أجل آخرين قد لا نعرفهم! ولماذا أتغيّر من أجل شخص يظن أننا من عالمين مختلفين الآن؟! وأين كانت تلك العوالم لما كنا معاً؟ وكيف اختفى الشبه بيننا؟ وكيف نعرف أنه اختفى وما هو الشبه أصلاً؟ بل ما هو عدم التشابه؟ سألت نفسي عن ضرورة الهُوية، وعن هُوية الضرورة! ولم أجد شيئاً.. كنت قد بدأت أتوه في دوّامة من السرحان أعرف جيداً أنها لن تنتهي، رحت أنظر إلى «مجدي» وأبتسم، قلت له: «فيه ناس كل حاجة فيها صح، بس جت في الوقت الغلط».. ضحك وسألني هل حضر هو إلى حياتي في الوقت الصح أم الخطأ؟ لكني قلت له ساخراً: «إنت غلط جه في الوقت الصح».. ضحكنا، وقفنا بالقرب من ناصية الشارع المطلّ على النيل وبقينا نضحك، ضحكنا حتى بدأ الناس ينظرون إلينا، ونحن نكرر عبارة: «إنت غلط جه في الوقت الصح».

وسألني: «وتفتكر إمتى الصح هيبجي في الوقت الصح؟» فأخبرته عندما يتوقّف الخطأ عن الحضور في الوقت الخطأ أيضاً. وقال لي: «زي إيه؟» قلت: «زي صاحبك الضابط أو حلمي المنياوي حماك مثلاً»، ولاحظت انقباضاً في وجهه مع ردي الأخير. وتوقّف الضحك ببطء، حتى صرنا ننهج ونحاول التقاط أنفاسنا. نظرنا إلى بعض وابتسمنا، واتبعنا خطواتنا إلى المقهى في صمت.

وصلنا المقهى، جلسنا في ترابيزة عم «شاهين»، وقال له «مجدي»: اطلب لي شيشة يا عم «شاهين» وضحك، لكن عم «شاهين» بدا في مزاج متعكّر، نظر له وقال: «خلّي أمك تطلبها لك بدل ما هي ماشية على حلّ شعرها». أحسست أن «مجدي» سينفجر في عم «شاهين»، وخفت أن يأتي بفعل أحمق، أسرعت بسحب «مجدي» بعيداً، وأخرجت كرسيين أمام الواجهة الزجاجية للمقهى، جلست و«مجدي»، وكان وجهه محمراً ومتجهماً، قلت: «حقك عليَّ أنا اللي نزلتك بدري.. الراجل كبر وتصرفاته مابقتش مسؤولة»، وسكتّ. أشرت إلى «رزق» أن يأتي، فأحضر كوب ماء، وأخبر «مجدي» أن عم «شاهين» جاء من الصباح ساخطاً وغاضباً، وافتعل مشكلات مع الجميع، وأنهم جميعاً يحاولون مسايسته منذ الصباح، وطلبت منه شاياً لي ولـ«مجدي». نظر «رزق» إلى «مجدي» وقال له في

ضحكة لئيمة: «شاي عادي ولا مِن بتاعنا؟»، وردّ له «مجدي» الابتسامة وقال له: «لازم من بتاعنا، هو ده وقته».. ولم أفهم ماذا يقصدان، ولما جاء «رزق» بالشاي لاحظت أن الكوبين متطابقان، وفهمت أنها مزحة بينهما. سألت «مجدي» إن كان يستطيع أن يتدبّر لي عملاً في أي مستشفى خاص، كانت كل أموالي المدخرة نفدت تقريباً، وتبقى معي فكة قليلة وخمسون جنيهاً مكتوب عليها كلمة «ملون» ورقم هاتف، أخرجت هاتفي واتصلت بالرقم، ردّ عليَّ صوت سيدة لم أتمكّن من معرفة ما إذا كانت هي نفسها أم لا، ظلّت تردّد «ألو.. ألو.. ألو»، وتردّدت كثيراً في أن أحدِّثها، لكنني استجمعت قواي وقلت:

- «ملون»؟

- «نعم»؟

- «بصي، أنا لقيت رقمك ده على خمسين جنيه، ومكتوب جنبه كلمة «ملون».

- «يااااه، تكونش إنت اللي قابلتك في «الإيليت» من كام سنة»؟

- «بالظبط كده».

ظلّت تضحك، وتقول إنها لا تصدّق نفسها، وإنها ظلت تنتظر اتصالي هذا فترة طويلة، لكنني لم أتصل أبداً. أخبرتني أنها تزوّجت

من رجل محترم، وأنها تعيش معه في السعودية، ومن حسن حظي أنها لم توقف رقمها المصري وأخذته معها.. وقالت إنها لبست النقاب، لكنها عندما تعود إلى مصر تخلعه، وضحكت مع هذه العبارة الأخيرة.. تمنّت لي الخير وقالت إنها فرحت لما اطمأنّت عليَّ.

وسألتني: أين كنت كل تلك الفترة؟ قلت لها: «كنت محبوس».

سكتت لحظة ثم قالت:

- «أنت رحت مع حبيبتك»؟

- «أيوه رحت».

- «وربنا إنت جدع وأصيل وابن ناس، أنا دلوقتي ست متجوّزة، لو كنت لسه متجوزتش ماكنتش سيبتك أبداً».

ضحكت وقلت:

- «متشكر جداً».

- «واتقبض عليكم يومها»؟

- «اتقبض عليَّ لوحدي».

- «طب وهي عملت إيه»؟

- «لبست النقاب برضه، بس مش بتخلعه أبداً»!

وقبل أن تُنهي المكالمة عَرَضَت عليَّ أن تساعدني بالمال، وقالت: «اعتبره سلف لحد ما تلاقي شغل»، وكنت في حاجة إلى أي

مساعدة حتى لو على سبيل الشحاتة، لكن عِزّة نفسي أرّقتني، ولم أستطِع أن أوافق أبداً رغم إلحاحها.. كنت أعرض عليها خمسين جنيهاً نظير وقتها معي في الماضي، وربما لو كنت عرضت عليها أكثر لكان بيننا ما هو أكثر من مجرد الوقت، منعتني عِزة نفسي من طلب الحاجة منها، وربما لم تكن عِزة النفس، بل كانت المكابرة أو العنصرية تجعلاني لا أقبل بمال من فتاة ليل سابقة، سألت نفسي عن الذي تزوّجها وكيف عرفها، وكيف ارتضى على نفسه أن يتزوج فتاة سيئة السّمعة، سألت نفسي عن السمعة، عن معاييرها وأسباب اكتسابها وطريقة الحكم عليها، ولم يكن هناك أي معايير للحكم الصحيح على أي شيء، ربما أن أسباب تمحو أسباباً، والأسباب التي تجعلنا شرفاء هي نفسها التي تجعل آخرين غير شرفاء أو يبدون كذلك.. نحن لا نتشابه أو نتطابق في كل الأمور، كل واحد يفعل ما يراه مناسباً، وما يناسبني ليس شرطاً جبرياً أن يناسب الباقين.. الحياة التي تُلائمني قد لا تروق للجميع، ثم إنه ربما أحَبها، هل علينا عندما نحب أن نحكم على مَن نحب بأحكام سابقة أو أحكام مستقبلية؟ ربما أنهما تقابلا مقابلة روتينية في علاقة ليلية كعادتها لكنه وجد نفسه معها، وهل من الكثير عليها أن تحب هي الأخرى، أن تجد نفسها مع أحدهم فتقرّر أن تتغيّر فقط لتبقى معه، ثم إنه لماذا يحكم عليها بكونها ساقطة

أو غيرها، إذا كان هو الآخر فعل نفس الأفعال، نفس القبلات، نفس التعري، نفس اللمسات، ونفس المتعة، بالعكس ربما تمتّع وحده؟ هل كونه يدفع المال يعطيه حقّاً حصرياً بالتوبة ولا يعطها نفس الحق؟ سألت نفسي عن التوبة! هل نتوب لأننا قررنا أن نتوب أم لأننا قررنا أن نتغيّر؟ أم لأننا قررنا أن نتحايل أم لأننا ندمنا؟ سألت نفسي: ولماذا تتأخر التوبة إذا كنا كلنا نتوق إلى كل ما سبق؟ نتوق إلى التغيير، إلى التحايل وإلى الندم!

كنت أتوه في دوّامات السرحان مجدداً، فتوقفت عن شرب الشاي، دخلت إلى عم «شاهين»، وأخبرته أن ما فعله مع «مجدي» كان قاسياً، وأنه نكأ في صدره جرحاً لطالما حاول أن يتناساه.. أخبرته أن «مجدي» ظلّ طول الليل يبكي حتى الصباح، وأنه بحاجة إلى مَن يقف بجانبه، وأخبرني أنه هو الآخر لا يعرف لماذا أصبح منفعلاً في آخر يومين، وأنه سيعتذر لـ«مجدي» حالاً.. كان رقماً دولياً يتصل بي في نفس اللحظة، كانت هي نفس السيدة «ملون»، أخبرتني أنها نسيت أمراً مهمّاً، قالت إن هاتفاً صغيراً نسيته في «الإيليت» يوم أن كنت معها، وأنها خرجت تبحث عني ولم تجدني، ثم أخبرتني أنه في اليوم التالي اتصلت بها بنت على هذا الرقم اسمها «ليلى»، وعرفت أنني كنت معها، قالت إنها لم

تكن ترغب في أن تسبِّب لي المشكلات، لكنها أرادت أن ترجع لي الهاتف بنيّة صافية فأخبرت «ليلى» أن تقابلها لتأخذه، ثم أخبرتني أن اسمها الحقيقي «نهاد»، وأن الهاتف في شقتها في إسْكندرية، ستعيده لي في إجازة الصيف عندما تزور مصر.

تكوّمت على نفسي، وأدركت أن «ليلى» كانت محقة في عبارتها نحن من عالمين مختلفين؛ لأنها عرفت أنني كنت أسهر مع ساقطة في إحدى أهم ليالي عمرها، أو حتى لو كان ذلك حدث في ليلة عادية غير مهمة، منذ لحظات كنت أتهمها بالأنانية، وأسأل: لماذا لم تبحث عني؟ كنت أسأل نفسي عن معنى الشبه الذي تقصده، ولم أكن أعرف أنها أحقّ بتلك الأسئلة مني! نحن نسرع في حكمنا على الآخرين، ونسرع في توريط الحب بيننا، لا نلتمس بيننا الأعذار، ولا نترك مجالاً للعتاب والاتفاق على طريقة الاختلاف حتى قبل أن يحدث، نحن نفرح بالحب، ونترك أنفسنا فريسة له، ولا نُدرك أن للحب سكرات وأنياباً، وأننا لا يجب أن نتعامل معه كما نتعامل مع الخوف مثلاً، أو كما نتعامل مع التردد أو أي شعور آخر، نحن نعاتب رفاقنا على أخطاء ارتكبناها معاً وقررناها معاً، نقسو عليهم، نتجاهلهم، نقاطعهم، ونبادلهم التأنيب واللوم، حتى ينفضوا عنا، فنشكو منهم وننسى ودّهم، ثم نلعن الوحدة، حتى

يأتي يوم ما، بعد طول زمن فنكتشف كم كنا مندفعين! وكم كانت الحياة أبسط وأجمل وأطهر في وجودهم.

عدت إلى ترابيزة عم «شاهين» بعد الانتهاء من مكالمتي، ووجدته قد صالح «مجدي»، وجلسا يتحدَّثان، وكنت أحتاج إلى حدوث أي شيء مختلف مهما كان مجنوناً، فقط ليخرجني من الحالة التي كنت أدرك أنها ستمتد لفترة طويلة، نظرت إلى عم «شاهين»، وقلت له: «احكي لي أي حاجة يا عم شاهين، أي حاجة عن حياتك أو أي حاجة اتعلِّمتها من الدنيا».. ابتسم وأخبرني أننا لا نتعلّم من الدنيا إلا أمرَيْن: الجزع والصبر، وكل ما بينهما نتاج لهما! ثم قال: «أحكي لك حاجة عن مجدي.. الواد علاقته اتطوّرت جداً مع فريدة، ومش فاضل غير إنه يُسْلم ويتجوزها أو ينصّرها»، قالها وضحك وضحك «مجدي»، وقال: «لا أبوس إيدك ابعد عن الدين إحنا مش ناقصين، الحاجات دي قضايا أمن دولة والبلد نصّها مخبرين»، قالها وضحكنا ثم أكمل: «إنتم مش مصدّقين؟ ماتعرفوش إن كل ٥٠ واحد فيه مخبر مسؤول يسلّم تقارير عنهم»، وقلت له: «أنا مصدّقك بس مش للدرجة دي»، ضحك عم «شاهين» وأصدر صوت شخير متعمّد، وقال: «ده مش بعيد في أم البلد دي يبقى كل واحد فيه خمسين مخبر بيكتبوا

عنه تقارير وعارفين لون لباسه لا مؤاخذة»! كانت عبارة عم «شاهين» الأخيرة تبعث على الضحك بشدة، لذلك ضحكنا بشدة. ضحكنا حتى جاء «رزق» وجلس معنا، وقال: «ضحكوني معاكم». لكنه لما قال تلك العبارة أدركنا فجأة أننا نضحك. فسكتنا كلنا فجأة.. سكتنا وبقينا متجهمين، سكتنا؛ لأن الأشياء التي تقال لم تكن تنفع، أو ربما لأنه لم يعد هناك شيء يقال، أو ربما لأننا ضحكنا دون قصد ولم نكن مستعدين للضحك !

نظرت إلى عم «شاهين» وقلت له: «احكي»، لكنه لم يردّ عليَّ، نظر إلى «مجدي» وقال له:

- «إنت ليه مابقتش تكتب عن اتحاد الطلبة وغيّرت المواضيع؟ كتابتك بقت مملة جدّاً»!

سألت «مجدي»:

- «اتحاد طلبة إيه؟ إنت نشرت المقالات؟»

وبدا «مجدي» مرتبكاً، أخبرني أننا سنتحدّث لاحقاً؛ لأنه تأخر على عمله وقام مسرعاً، نظرت إلى عم «شاهين»، وقلت له:

- «أنا مابقتش فاهم أي حاجة»..

طلبت من «رزق» شاياً وقمت لأجلس أمام المقهى في مقابل النيل، وقبل أن أسرح جاءني «رزق» بالشاي، وتذكرت كلامه مع «مجدي»، فأردت أن أفهم شيئاً واحداً على الأقل في هذا اليوم المضطرب، طلبت منه أن يخبرني عن «الشاي بتاعنا»، جلس وأشعل سيجارة، وقال إن العقار الذي أعطيته إياه حسّن من حالته، وأنه سمع كلام «مجدي» عندما قال له إن الناس كلها عندها اكتئاب، وأن الشعب كله يحتاج مضاد اكتئاب وليس «رزق» فقط، وأنه منذ أن تحسّنت حالته مع زوجته دعا لي صباح مساء، وقرر أن يعمل جميلاً مع الزبائن المقربين، وأصبح يضع لهم العقار في المشروبات، وأخبر «مجدي» بذلك، لكنه منذ أسبوع أو أكثر أصبح لا يملك حق الدواء أكثر من ذلك، فبدأ يضع لهم إسبرين بدلاً منه!

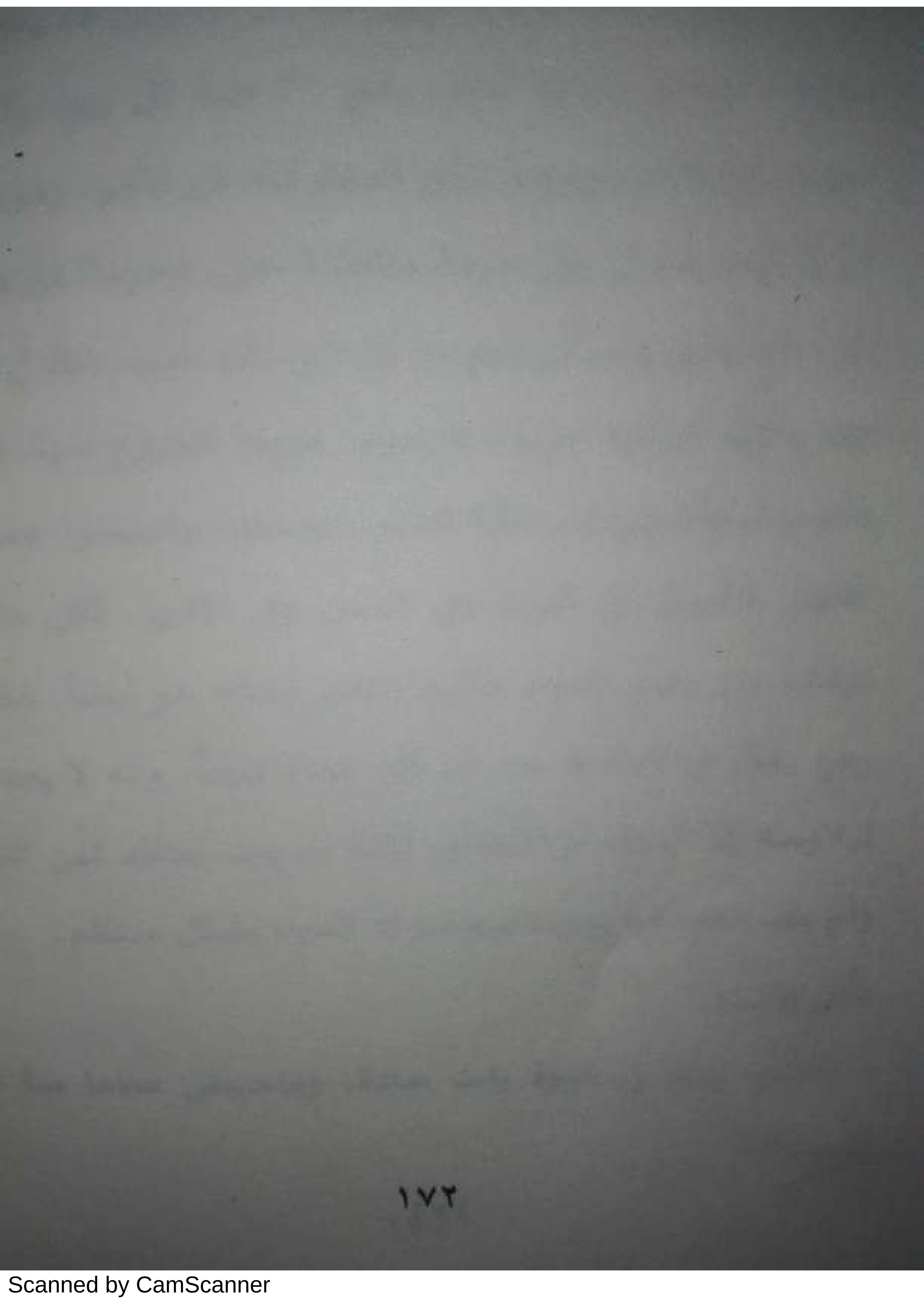
لم يكن هناك شك أن ثمة كارثة قد حدثت، أصبح هؤلاء البسطاء مدمنين لعقار لا يجب توقيفه فجأة، وإلا انتكست حالتهم النفسية، وتمكنت منهم الأعراض الجانبية.. قلت لـ«رزق»: «الله يخرب بيتك.. إنت خربت الدنيا، لا إنت ولا همّ هتبقوا مبسوطين أبداً».

نظرت إليه في سألته عن عدد الحبوب التي يضعها في كل مشروب، قال إنه كان يضع علبة منه يومياً في بستلة الماء البارد، وكان يقدم مع كل مشروب كوب ماءٍ من البستلة للزبائن، كان يسرق ثمن العلبة اليومية من إيراد المقهى، ولما شعر بمراقبة المعلِّم توقّف واستبدله بالإسبرين ظناً أن الإسبرين قد يكون بديلاً مؤقتاً.. علبة في بستلة المياه، يعني ٣٠ حبة كل يوم، وكل كوب حجمه غير الآخر، ودرجة تركيز العقار فيه غير الآخر، وهو ما يعني أن لا أحد حصل على جرعة منتظمة حتى، وجرعة غير منتظمة مع دواء نفسي ومسكّن يعني أن كل شيء قد خرب.. نظر لي «رزق» وهو يدرك ارتكابه جريمة لا يعرف طريقاً للخروج منها، فتطوع بالحديث وأخبرني إن حالة الناس اتحسنت وأصبحوا جميعاً في أفضل الأحوال في البيت وفي العمل وفي المقهى، لكن منذ أن توقف عن وضع الدواء حالهم انقلب وحاله هو أيضاً.. قال إنه رجع يفكر في الظابط بعد أن كان نساه تماماً، وأنه لا يجد حلاً لهلاوسه إلا الدواء أو الانتقام، لكنه لم يعد يمتلك ثمن الدواء، ولم يفِ «مجدي» بوعده ويحضر له الدواء بشكل منتظم..

يأس وقلت:

- «اجري هات لي قهوة زفت سادة، ومتجيبش معاها مية من البستلة».

انطلق «رزق» فزعاً، وكان الأستاذ «شاهين» يجلس متجهماً ويحرك يده على رقبته، ويشرب بضع رشفات مياه كل دقيقة تقريباً. نظرت له ثم عدلت وجهي نحو النيل، وجلست أفكِّر في طريقة أخرجهم بها جميعاً من جنون أكيد.



(٨)

شاهين

وهل للحلال من توبة! وهل للتوبة من علاج؟ لماذا نتوب إذا كنا غارقين في الذنب؟ إذا كان الذنب هو كل ما نحن فيه، إذا كان كل ما حولنا هو ذنب كبير لا نستطيع التخلص منه أو نتوب عنه. إذا كان بقاؤنا على قيد الحياة في حدّ ذاته هو ذنب بدأناه في الصغر ولم نتُب عنه أبداً؟؟ إذا كان كل ذلك يحدث. فالسؤال الذي يفرض نفسه: وهل للتوبة من توبة؟ والسؤال الأهم: وهل الموت حلال في تلك الظروف؟ أنا لم يعد لي لزوم في تلك الحياة.. كبرت، والذين يكبرون يصبحون أشخاصاً آخرين، تختفي رغبتهم في البقاء، تتغيَّر أفكارهم عن الراحة، عن الحياة، عن أنفسهم وربما عن الأمل.. أنا كبرت وتخطيت الثمانين عاماً، وأصبحت أتابع انتهاء حياتي أمام عيني، أتحرك بين أكياس من الأدوية؛ كيس لأدوية الكُلى، وكيس لأدوية السكر، وكيس لأدوية العظام، وأكياس

للأعراض الطارئة والمتجددة التي لا تتوقّف عن الفت في جنبات جسدي، لذلك أسأل نفسي: وما جدوى الحياة لرجل عالة مثلي؟ أنا رجل عفا عليه الزمن، وصار منِ واجبي الموت، ليس فقط الاستسلام له لكن السعي إليه أيضاً.. أخرجت نوتة ورقية قديمة مدوّن على جلدتها الخارجية «١٩٥١م» ومحفور عليها هلال به ثلاثة نجوم، تحسست الحفر وابتسمت، كانت أياماً لم نعرف خيرها مع الأسف، فتحت النوتة وقلبت في صفحاتها، كنت أدوّن فيها ملاحظات متفرقة من أحداث غير متتالية، وجدت قصة حدثت بيني وبين ضابط اسمه «إسحاق» من السودان، أراد أن يبيت ليلة في القاهرة ليحضر مولداً، ولم يكن يمتلك أموالاً للنزول في فندق، فأخذته معي إلى بيتنا، وفي الصباح أمسكه أبي وكتّفه ظنّاً أنه لصّ يسرق من أكل الفلاحين! ١١ فبراير ١٩٥١..

ملحوظة: اشتريت منديلاً لبدلة فرح فاطمة أختي من محل عدس ب ١١ مليماً، منديل ستان مطرز ٢٢ سبتمبر ١٩٥٢.

عزومة نادي سلاح الفرسان بجروبي طلعت حرب بالزي الرسمي الملكي ١٧ يناير ١٩٥٢.

فليعِيَ «جمال عبد الناصر» و«نجيب» وكل الضباط الأحرار.. إيمان، عزيمة، جهاد ٢٩ مارس ١٩٥٢.

الدفاع عن الأمة يستوجب قلباً مخلصاً وهدفاً موحداً وحفظاً للعهود.. من كلام «عبد الناصر» في اجتماع الأحرار اليوم ٩ أبريل ١٩٥٢.

ثلاثة أيام لازم أحكي عنها لولادي وأنا باعلمهم الصّيد، اللهم لك الحمد ٢٩ يوليو ١٩٥٢.

الإخوان معانا ولّا مع مين؟ ٢ أغسطس ١٩٥٢.

الوقوف في صف الوحدة.. «نجيب»؟ منظمة التحرير؟ إيه اللي بيحصل؟ ٢ يناير ١٩٥٣.

مش فاهم.. حاول تذكر تلك الأيام جيداً! ٢٧ مايو ١٩٥٣.

عام على ثورتنا العظيمة.. ٢٦ يوليو ١٩٥٣.

سلاح الفرسان خيار أول قبل كل شيء.. ٢٠ ديسمبر ١٩٥٣.

كل شيء غامض، ألف سؤال.. ١٩٥٤.

لم أجد كلاماً أو ملاحظات أخرى بعد هذا العام، كل شيء توقف تقريباً بعد ذلك العام، أخذت أقلِّب صفحات النوتة التي اصفرّ لونها، وفي الصفحة قبل الأخيرة كتبت «٢٠٠٥ النهاية»، وضعت النوتة على ترابيزة السفرة، وقلت لنفسي سوف تأخذها حفيدتي، وربما تُكمل فصولها ما بين ١٩٥٤ و٢٠٠٥ وفقاً لما تجده من حقائق، أنا لم أستطِع أن أفهم أي شيء عن كل ما يحدث طوال هذه الفترة، الذين قمنا معهم بالثورة حبسناهم أو أعدمناهم أو هربوا، والذين كنا نحاربهم أصبح بيننا وبينهم معاهدات وصداقة وربما قرابة، المصانع التي بنيناها بعناها، والدساتير التي كتبناها عدَّلناها وغيَّرناها، والأصدقاء الذين حاربوا معنا قطعنا علاقتنا بهم، والأشقاء الذين جاورونا وثاروا معنا حاربناهم مع أمريكا.. الجيش الذي بنيناه عمل في رصف الطرق، والطرق التي مهّدناها حفرناها مراراً، ودفعنا ثمن الحفر والتمهيد والحفر والرصف والحفر والتخريب للمقاولين والقطط السمان، والديمقراطية والقوانين والعدل والخير! كل الأمور صارت أسئلة، لذلك تَركت الإجابات لحفيدتي؛ لأن الأمر لم يعد يهمّني، لم أعد معنياً بالإجابات، يقولون إن المدعوق النت عليه كل المعلومات، وإنها يمكنها البحث عن كل شيء.. ساذجة، وهل مثل تلك المعلومات سوف تكون موجودة على النت أو حتى في الصناديق السوداء..

معلومات المخابرات ووثائق الجيش بالنسبة إلى الضابط مقدسة كالقرآن، لذلك تُحفظ في الصدور ولا يبقى لها أثرا!

•

تركت النوتة وقمت، نظرت من البلكونة قبل أن يقوم الناس لأعمالهم، تحسست نسيماً رائقاً يسري داخلي، وكانت أصوات المنبهات بدأت تُوقظ الأهالي والأطفال.. دخلت وبحثت عن أبهى بدلة عندي، كانت تقبع في ظلام دولاب يعجّ بالملابس والذكريات، أخرجت البدلة والصديري والكرافات، وسقطت حقيبة جلدية حريمي سوداء من الدولاب، أخذت الحقيبة وجلست، كانت من جلد يلمع ويعكس إنارة الغرفة وكل ما فيها كمرآة، فتحت الحقيبة ووجدت بداخلها قصاصات من بعض الجرائد، وقلم روج قديم، علبة بانكيك صغيرة، ولفافة ورقية بيضاء، بداخلها كان نيجاتيف لم أتذكّره أبداً، ولا أعرف متى كان ومَن وضعه، كانت الحقيبة للفتاة الوحيدة التي أحببتها، لطالما أحبّت الحقائب ولطالما أحببتها، ففككت بكرة النيجاتيف ووضعتها أمام النور.. كانت صوراً لنا التقطت من بعيد! حتى إننا لم نكن ننظر إلى الكاميرا، كنا نجلس في ضيعة على ربوة مرتفعة أمام بيتهم في الشام، كانت صوراً لنا نجلس ملتصقين ولا تظهر ملامحنا في النيجاتيف، لكنني أذكر ضحكتها وأسمع قهقهاتها وأشمّ ريحها، صرت أقترب منها

الآن، لا يفرق بيني وبينها سوى الموت فقط ولا شيء آخر. لو أنني أموت فألحق بها، لو أننا نموت معاً كما تسقط زخّات المطر معاً. لو أننا فقط ننتهي. نضيع. نتلاشى. فتصبح كل الأمور أفضل أو تتوقف الأمور عن الحدوث أو لا توجد الأمور من الأساس.. لو أن كل الرجال تتوقف عن مضاجعة النساء لمائة عام فقط.. مائة عام فقط بلا مضاجعة. ليس أكثر من ذلك. فسيختفي العالم، وتتوقّف الأنسال والأنساب وتنتهي الدنيا في صمت. دون حروب ولا قتل ولا تعذيب ولا بكاء. سوف لن يوجد حينها أبناء يبكون على آبائهم ولا آباء يبكون على أبنائهم.. سوف يبدأ الكون في الهدوء رويداً رويداً. وتبدأ الأنوار في الخفوت تدريجياً. ويبدأ الضجيج يهدأ وينقشع حتى يتوقف الكون عن التنفس. أوَلَيس ذلك أفضل؟ فقط لو نتوقف عن المضاجعة لمائة عام.

- لكن الجنسَ يذلّ. تماماً مثل الكيف. تبقينا شهواتنا في هذا الصراع الأبدي. نمشي وراء أشيائنا بدلاً من أن تمشي وراءنا!

كنا نجلس ملتصقين في النيجاتيف، يومها أمسكت يدها. وصرنا نقترب، وكانت تضع يدها فوق يدي، واقتربنا من بعضنا. ونمتُ على ظهري ودخلت بكل جسدها في حضني. هكذا في النور وليس في الخفاء. كان كل شيء في النور؛ لأن الحب لم يكن أبداً حراماً.

الحب حلال المحبين، كنت أمرّر يدي بين خصلات شعرها، وتسند رأسها على صدري، ورحنا نضيع في بعضنا، نتوه في أروقة كل منا، ولا نرغب في الرجوع.. كانت تأخذني حيث أرغب في البقاء، ولم أكن أمانع؛ إذ إنني كنت يتيماً وتائهاً حتى وجدتها.

لا أعرف لماذا وجدت تلك الحقيبة الآن، لا أذكر حتى متى وضعتها هنا، كأن الإشارة الكونية تهيّئني للموت وتقول لي: احضر فوراً، هناك أشخاص أحببتهم في انتظارك، أشخاص مخلصون لا يعرفون الغدر، وضعت النيجاتيف بجوار النوتة، وأعدت الحقيبة إلى الدولاب، ارتديت البدلة بالكاد، ونزلت أمشي في خطوات هادئة بين تلاميذ المدارس، كانت هناك مدرسة بالجوار تُحيّي العَلَم والأطفال ينادون نشيداً غير الذي عرفته في الصغر، تبسّمت وأوقفت تاكسي وذهبت إلى المقهى، في الطريق كان الراديو لا يتوقّف عن الصدح بموسيقى غريبة وإعلانات متكررة، ركزت في الإعلانات واكتشفت أني لا أنتمي إلى هذا العالم، أو على الأقل هذا الجزء من العالم، نحن أصبحنا في زمن عجيب «حتى الفقر بقى يتزل عليه رعاة، والجوع بقى يتعمله إعلانات!» طلبت من السائق أن يغيّر الإذاعة.. وأدار المؤشر فكانت أغنية «رمضان جانا»، سمعت الأغنية هذه من فم مطربها في حفل عام عشية أول يوم

من رمضان، صارت تراثاً الآن! سألت السائق: وهل اقترب رمضان؟ وفوجئت أنه غداً. كان مزاجي رائقاً على عكس ما توقعت، ورغم أنه اليوم الأخير الذي، سأشرب فيه شيشة الصباح غير أنني لم أمتعض، نزلت من التاكسي في سلام، وجلست على المقهى في سلام، ورحت أدخّن الشيشة في سلام تام.. كنت أستسلم لفكرة أنني أنتهي خلاص، وأن كل تلك الأصوات ستخفت قريباً جدّاً. تركت نفسي للشيشة. والشيشة هي كل ما تبقى لكهل مثلي لم يعد له من الصحة غير النفس، لذلك لم يبقَ لنا سوى الحكايات والشيشة، ثم إنها ليست كسيرة النَّفس، كالسجائر تضعها في جيب وتحصل عليها في كل وقت وتُلقي بها في تابلوه السيارة.. الشيشة تستوجب الاستعداد.. التحضر.. الدخول في الجو النفسي، والذهاب لها تحديداً. ولعل ذلك أرهق ما في الأمر، هي أفضل من السجائر؛ لأنك لن تحصل عليها طوال الوقت، فلن تقتل نفسك طوال اليوم، أو هكذا نضحك على أنفسنا بتلك المفاهيم، المهم أنني استسلمت للشيشة، وسألت عن «رزق»، منذ أن عرفت ذلك المقهى ولم يتغيّب «رزق» أبداً.. سألت عنه وقالوا إنه مختفٍ منذ يومين، سألت المعلِّم عنه، وأخبرني أنهم قلبوا عليه الدنيا ولم يجدوه، وزوجته وأمه تبكيان في البيت، ناديت «سيد» التاكسجي وسألته عن الأقاويل.. «سيد» هو أكبر مروِّج

للأقاويل، وتبدأ كل الأخبار من عنده، قال لي إن الكلام داير على إن «رزق» قرّر ينتقم من الضابط اللي دمَّر حياته وخلّاه يدمن برشامماينفعش يبطّله، وان «رزق» مابقاش معاه ثمن الحبوب، وحالته اتدهورت فقرّر ينتقم، لكن من يومها لا يعرفون عنه شيئاً ولا عن الضابط! وأخذ يسرد الأقاويل التي تتداول من هنا وهناك.. البعض قال إن «رزق» قتل الضابط وهرب ولن يعود إلا بعد سقوط الحكم، والبعض قال إن الظابط قتل «رزق» وخاف أن يفتضح أمره فطلب نقله للصعيد، والبعض يقول إن «رزق» انتحر.. آخرون يقولون إن الضابط و«رزق» ضربا بعضهما حتى سقطا في النيل وهم يتقاتلان وغرق كلاهما.. الشائعات لا حصر لها ولا يمكن التوقع معها؛ لأن أسهل ما يمتلكه الناس في زمن غابت فيه الحقيقة هو الكلام.. لذلك لم التفت لكل كلام «سيد» التاكسجي وطلبت منه أن يتصل لي بالدكتور، ويطلب منه الحضور، وقبل أن يفعل حضر «مجدي»، وكان معه شابة ربما في أواخر العشرينات، كانت أنيقة وترتدي حجاباً أنيقاً داكناً متماشياً مع لون عينيها، حضر «مجدي» وأجلسها، نظر إليّ وابتسم وقال: «أعرّفك على فريدة يا أستاذ شاهين»، وبدأ في خوض عباراته التعريفية السمجة، لكنني تهت منه في سؤال مرهق: إذا كانت تلك فريدة التي يحكي عنها «مجدي» منذ فترة فما موقف الحجاب من

ذلك المسيحي الكاثوليكي الذي يمكث أمامي؟ كنت أظنه يمزح عندما أخبرنا أنها مسلمة.. تخيلت أنه يمازحنا كما نمازحه ونخبره أنه أربعة ريشة ورائحته كريهة، وإننا هنطردهم زي ما طردنا اليهود.. تخيلت أنها كلها نكات تطير في الهواء، لكن الموضوع كان جد وكانت «فريدة» محجبة.. قاطعت «مجدي» متسائلاً:

- «إنت يا واد يا كوفتس إنت مش عمّال تحكي لنا عن فريدة بقالك شهرين»؟

- «أيوه».

- «طب وإيه موقف الحجاب من العلاقة دي»؟

ابتسمت «فريدة» ولم تتحدَّث، لكن «مجدي» أخبرني بأن «فريدة» هي الشخص الذي وجده في طريق مزدحم يعجّ بالتائهين، وأنها وحدها استطاعت أن تخرجه من التيه بعد أن فَقَدَ «مريم». فهمت من كلامهما أن العلاقة لا تزيد على كونها صداقة، لكنّ شيئاً ما وقر في قلبي تجاههما، سألته عن الدكتور وقلت له ما تداول من أقاويل عن «رزق»، وقال لي إنه عرف، ولذلك طلب من «فريدة» الحضور.. سألت «فريدة» وماذا تستطيع أن تقدّم، وحكت لي أنها تعمل في مركز حقوق إنسان، وأنها أجرت مجموعة من الاتصالات بمحامين، ووعدوها بأن يساعدوها، بعد أن تهدأ

الأحوال.. كان البلد يغلي والمظاهرات لا تهدأ، والمطالبات الحقوقية والوقفات الاحتجاجية تزداد كل يوم عن التالي، سألت «فريدة» عن رأيها فيما يحدث، وقالت: «البلد عاملة زي العيّل الصغير التايه اللي ما صدّق لقى واحدة تشبه أمه وشبط فيها».

- «وهي مين الواحدة دي»؟

- «المظاهرات.. الناس محتاجة تصرخ».

ولم أجد تعبيراً أدقّ من ذلك، كنت بحاجة إلى الصراخ، الصراخ فحسب، بقيت أنظر إليها في صمت، وقلت لنفسي: «على الأقل الواحد قابل شخص واحد يبعث على الأمل قبل الموت»، كانت تبتسم ابتسامة زائغة تائهة، وتتلفت في تضاريس المكان، كأنها تبحث عن شيء أو تستشعر شيئاً ما، استندت بيدي على عكازي الخشبي القديم، وقمت لأداري نفسي خلف ستارة بالقرب من نصبة الشاي داخل المقهى، ستارة تخفي «مَبْوَلة» متهالكة قذرة، تحيط بها أجولة بلاستيكية تكتظّ بالفحم وعبوات المعسّل، ربما في بلدنا فقط تكون «المبوَلة» بالقرب من نصبة الشاي، كأننا لا بد أن نشم رائحة الصنن ونحن نصنع المشروبات! لكي ندرك أن كل شيء له آخر، وربما لكي تزيد دراما الحياة من القرف المعتاد في هذا الزمن، وربما لأننا قذرون فحسب، عدت إلى الترابيزة ولم

أجد «مجدي»، كانت «فريدة» تمكث وحدها، جلست بالقرب منها وساعدتني ابتسامتها النقية على الكلام، قلت لها إنني سأموت اليوم، وإنه آخر ما تبقى لي في العمر هو بعض الحكايات التي احتفظت بها في أعماقي، ولم أشاركها أحداً أبداً، لكنني أريد أن أحكيها لها لربما كان من الصائب الفتش عنها لشخص واحد لا نعرفه، قبل أن ينقضي الأجل فنكون قد سلّمنا الأمانة، وكانت مرتبكة، لكن الفضول دفع كلاً منا إلى المتابعة.. الفضول هو أحد أكبر محفّزات الحياة! نحن عشنا في هذه الحياة الدنيا بسبب الفضول، ولولاه لكنا في الجنة حتى يومنا هذا، المهم أن فضولي دفعني إلى الحكي ودفعها إلى الاستماع.. أخبرتها أنني هربت من مصر بتهمة الخيانة العظمى، وأن عليَّ حُكماً بالإعدام، عشت حياتي كلها في الظل بسببه، ولمّا لمحت علامات التعجب والدهشة تعلو وجهها، قلت لها: «اصبري هحكي لك»..

أنا لم أهرب لأنني أردت الهرب، في الأيام الأخيرة في عام ١٩٥٤ كان كل شيء يحدث لا يرتبط بالمنطق. كانت الخلافات قد زادت، وكنا نعيش في بلد لا يقوم على أي أساس.. كانت الدولة في الدستور ملكية، وتم إعلان النظام الجمهوري دون أي تعديل في الدستور، ولم يكن حتى ثمة لجنة للصياغة حتى ذلك الوقت، وكنا في سلاح

الفرسان حائط الصد الأول، كنا أول سلاح يتقدَّم أي عرض عسكري، وكنا السلاح الذي يمكنه تطويق العاصمة والسيطرة عليها بخمسمائة فارس فقط.. لم يكن الفارس مجرد شخص عادي، كان الفارس منا بعُدّته وعتاده وقوته وقوة الفرس بمنزلة مدرعة كاملة، وكان شعارنا «النصر أو الموت». لم يكن من أسلحة أخرى لها شعارات وحدها مستقلة عن الجيش سوى سلاح الفرسان، ولما اشتدّت الأزمة رأى الفوارس أن السبيل الأول للإصلاح هو وضع الأساس السليم.. في فبراير من ذلك العام المشؤوم استيقظت على صوت تمتمات خارج مقر السلاح وكانت الكهرباء مقطوعة ربما للمرة الأولى عن مقر القيادة، خرجت إلى ممر صغير أمام غرفة الضباط يشرف على فناء العلم، وكانت أصوات التمتمات متقطعة في ذلك الليل المظلم، وفي ذلك الليل لمحت احمرار سيجارة تحترق في الظلام بالقرب من السلّم في آخر الممر، مشيت نحو لهب السيجارة حتى تبيّنت ملامح الصاغ «أحمد المصري» في زيه العسكري، سألته عن سبب ارتداء الزي العسكري في ذلك الليل، وقال إن «عبد الناصر» يجتمع بقيادات سلاح الفرسان منذ ساعات، وإن الوضع محتدم، قلت له: «تفتكر اللي بيحصل انقلاب يا مصري؟» ردّ عليَّ بعبارة لم أفهمها جيداً حينها ولم أنسَها، قال: «السؤال الأهم، لو كان انقلاب، تفتكر مين فينا

اللي بينقلب على مين»؟ دخلت غرفتي بعدها ولبست زيي العسكري، كان «عبد الناصر» قد رحل ووعدنا بعودة «نجيب» إلى الحكم، أصوات التمتمات ونشيج التحركات خلف المعسكر لم تترك لعيني قدرة على النوم، بقيت مستيقظاً أنا و«مصري» وضابط سوداني اسمه «نور» كان من أنشط الفرسان، قلت لـ«مصري»: «تفتكر إيه الحل؟».

- الحل في الديمقراطية، ده الهدف السادس من إقامة الثورة أصلاً «إقامة حياة ديمقراطية سليمة».

- «طب وإيه اللي يمنع»؟

- «هو ده اللي مجنّنا ومجنّن نجيب وكل الفرسان، مافيش حاجة منطقية تمنع»!

سكت، وكانت أصوات الحركة خارج المعسكر قد زادت والفجر قد زال، خرجنا لننظر من أعلى المبنى، ووجدنا بضع آلات عسكرية وفرقاً للمشاة تحفر خنادق أمام بوابات مركز القيادة، ومدافع مضادة للدبابات.. أدركت حينها أن الأمر لم يكن كما قال «عبد الناصر»، بعد ساعات قليلة خرجت مع «مصري» وضابطين للذهاب إلى مجلس قيادة الثورة للتشاور، غير أن البوليس الحربي اعتقلنا واتهمنا بمحاولة الانقلاب على الثورة والشرعية الثورية،

ظللنا أربع ساعات محبوسين، ثم أخرجونا مع إقرارنا على البقاء داخل القاهرة على ذمة القضية.. عندما ذهبنا لنتسلّم أشياءنا من مركز القيادة عرفنا أن كثيراً من الفرسان تم اعتقالهم، وأن أحد الضباط من الزملاء وهو «صبري القاضي » ضرب «بروجي كبسة»، وهو إنذار في حالات الخطر فقط، فتحركت بعض المدرعات، وقد اتصل «صبري القاضي » بـ«عبد الناصر» وقال له لو لم يخرج آلفرسان سوف أهدم المبنى بمن فيه، ولهذا السبب فقط خرجنا، أنا لا أعرف شيئاً عن «صبري القاضي» الآن، ولا عن «أحمد المصري» أو «نور» أو أي من هؤلاء الفرسان.. بعد خروجي من الحبس الذي ظل لأربع ساعات فقط، بعد استلامي لحقيبتي من مقر قيادة السلاح، خرجت إلى الشارع، ومشيت إلى وسط البلد، كانت ثمة مظاهرات تهتف بعبارات لم أتخيَّل نفسي أسمعها.

«تسقط الحرية وتحيا الثورة».

«تسقط الديمقراطية».

«يسقط المتعلّمون الجهلة».

«يسقط المثقفون الخونة».

كان لا يزال عندي أمل حزين مستتر حتى سمعت تلك الهتافات، أدركت أنه لا فائدة، وبقيت أنتظر استكمال المحاكمة. ليلتها اتصل بي «مصري»، وأخبرني أنه وجد طريقة لتهريبي، ولمّا قابلته لأحصل على هُوية مزوّرة كنت قد فقّدت كل ما تبقى فيّ من إنسان.. قلت له: «والناس لسه فاكرانا إحنا الانقلاب يا مصري؟» قال: «فيه واحد من الضباط سألته نفس السؤال، فقال لي إحنا اللي طلعنا الانقلاب يا مصري، بس الجيش لازم يفضل كلمته واحدة، وبيني وبينك يا شاهين هو معاه حق».

وسافرت.. هربت.. اختبأت، أو أيّاً ما كان المسمّى.. المهم أنني سمعت في غيابي بالحكم، ولم يسقط إلا بعد نصر أكتوبر، وبعدها عدت إلى البلد، لكنني أبداً لم أخُنْ وطني ولم أخُنْ الجيش.. صدّقيني.

قلتها لها بصوت بالكاد يخرج، ورغم أنني ارتحت لكشف آخر الحكايات المخبّأة، لكنني أحسست بالثقل يتزايد على صدري. كانت «فريدة» ساكتة، لكنها تركت كل شيء وسألتني: «لماذا قلت لي إنني سأموت اليوم تحديداً؟» كان «مجدي» قد جاء فقلت لها: «ابقي اسألي مجدي»، وغيّرت الموضوع سريعاً، وقلت لـ«مجدي»: «تفتكر كلام سيد التاكسجي عن رزق صح؟ تفتكر إنه راح ينتقم

من الضابط اللي اتحرَّش بمراته»؟ كان صبي المقهى يضع فنجاناً من القهوة لـ«فريدة»، نظرت إلى الفنجان وانحنت على الترابيزة لتشم رائحة البن، ولما لاحظت نظراتنا لها ابتسمت ورجعت إلى جلستها، اقترب «مجدي» بكرسيه نحونا وأخفض صوته، وقال إنه يشك في كلام «سيد» التاكسجي؛ لأن أغلب سائقي التاكسي بيكونوا مخبرين، ويتم استخدامهم في ترويج الشائعات أو جسّ النبض، وإنه عارف إن المخبّرين في كل مكان في البلد.

ولم أقتنع بكلام «مجدي»، لكنني قلت له ابقى شوف الموضوع مع الدكتور، وقمت، تركتهما وحدهما وقمت، أخذت «سيد» التاكسجي ليوصلني إلى فندق «شيبرد» بالتحرير. قضيت أجمل سهرات عمري في ذلك الفندق، كانوا يحضرون فرقة موسيقى إيطالية تعزف على رصيف الفندق في الهواء الطلق، وكنا نجلس على ترابيزات أنيقة نستمع ونأنس.. لم تعد الأمور كما في السابق، أصبح المشي على نفس الرصيف ربما يتطلّب تصريحاً. قال لي «سيد» وهو ينزلني أمام الفندق: «هتقابل مين هنا»؟ وابتسم ابتسامة ماكرة، وكنت في مزاج عكر، فقلت له: «امشي يا راجل يا واطي روح كل مع مراتك وبطّل طفح بره»، وكانت كلماتي ثقيلة على قلبه لكنه لم ينطق.. أصررت أن أحاسبه هذه المرة ولم أنتظر

لنتحاسب كل أسبوع مرة واحدة، كعادتنا.. دخلت إلى بهو الفندق، نظرت إلى الأشياء التي تذكّرني بالماضي وتحسرت، حجزت غرفة مع عشاء فخم.. يلعن أبو السكر والضغط والقلب اللي منعوني من كل الأكل الذي أحببته يوماً. دخلت إلى غرفتي، أنزلت نفسي في البانيو إنزالاً، كان التيبّس يسيطر على ما بقي في قدمي من أعصاب، رحت أصبّ على نفسي الماء الساخنَ من كل صوب، يوماً ما كان ذلك الجسد المترهل المثقل بالأعباء والهموم والوحدة والاكتئاب، كان ممشوقاً، وكان عرض عضلات ذراعي كعرض وسط الشباب من نفس سني، كنت فارساً حقّاً، ولم أرغب في أن تهدلني الأيام مثلما فعلت، رحت أهرب من ذكرياتي القاسية وأصبّ الماء على جسدي.. خرجت من الحمام وتناولت وجبة عشاء دسمة، لم آكل مثلها منذ خمسة عشر عاماً أو أكثر.. لبست بدلتي وسرّحت شعري، نظرت إلى المرآة، وقلت تلك أفضل هيئة يموت عليها فارس قديم، لم أحبّ الموت في مظهر عادي، توجهت نحو النافذة، أحضرت كرسياً ووضعته أمام النافذة وتهيّأت لإلقاء نفسي من الدور السابع، لم أجد غرفة في أدوار أعلى من ذلك.. سبعة أدوار كفيلة بالقضاء على حياة رجل متهالك مثلي، صار عندي هشاشة في العظام منذ زمن طويل، ومن المؤكد أن السقوط من سبعة أدوار سوف يدمّر هيكلي العظمي كله بما فيه

الجمجمة، وهو المطلوب، موت نهائي لا رجعة فيه، ولا قدرة على ترميمه أو تطبيبه، أخرجت كارنيه سلاح الفرسان، وتأكدت مِن وضعه في جيب الجاكت الداخلي.. أردت أن يعرف كل الناس أن ثمة سلاحاً دافع عن نفسه وعن المنطق وعن المبدأ وعن الحق، حتى انتهى ولم يعد له ذِكر، حتى إنهم غيَّروا اسمه لسلاح المدرعات، وطمسوا هُويته، ولم يذكر عنه أي شيء طوال تلك السنوات، وقفت أمام النافذة، وكان سورها مرتفعاً، وحاولت أن أصعد على الكرسي لكي أقفز من النافذة، لكنني لم أستطِع أن أصعد على الكرسي، لم تسعفني قدماي للصعود فوق الكرسي!

جلست على الكرسي أنظر إلى النافذة في يأس قاتل أكبر من أي يأس أصابني منذ ولادتي حتى في أثناء هروبي، شعرت كأن كل الحظ السيئ قد أصابني وحدي، ورحت أقول لنفسي: «لا وقاية من البخت»، كانت دوخة قد بدأت تصيب رأسي وإحساسي بانحسار الدم عن رأسي قد بدأ يتزايد، شعرت كأن نَفَسي ينسحب من رئتي، كأني أفقد القدرة على التنفس، رحت أفك ربطة عنقي، وأنظر إلى ما تبقى من عشاء فخم، لم أرد أن أموت بغيبوبة سكر أو بأزمة تجلّط تبقيني تحت وطأة الموت طوال الليل، وأنا وحدي في هذه الغرفة المفردة، أردت أن أموت مرة واحدة ودفعة واحدة

دون كثير من التألم والمعاناة، ألا يكفي هذه الدنيا ما أهدتني من ألم؟! كنت أضيع في توهان يأتي من بعيد، ألم يوخز في جسدي المتيبس، ووعي يذهب في غياهب الدهر، وكنت أشعر بيدها تتشبث بيدي وهي تقول لي:

- «بص لي.. بعدك بتحبني»؟

فأقول لها:

- «إنت بتسألي؟ يعني مش حاسة بكل حاجة بنفسك»؟

فترد عليّ:

- «أنا عم باسأل علشان ما حب أصير لوحدي بعد هيك».
- «ماتخافيش مش هسيبك لوحدك».
- «مش خايفة».

وكنت أشعر بيدها ترتجف من البرد، فأخذتها في حضني وأنا أردد «لا وقاية من البخت»، وبكيت حتى هدأ كل شيء، وتوقفت كل الأصوات تماماً.

(٩)

مجدي

«فريدة» تذكّرني بـ«مريم»، وأنا لا أريد نسيان «مريم» أبداً. لذلك أنا متمسك بوجود «فريدة» في حياتي، فكّرت كثيراً في كونها مسلمة وكوني مسيحياً، صارت قصص الحب بين الديانتين بايخة واكلشيه، لا أحبّ أن أكون أكلشيه، لكنني أيضاً لم أفهم طبيعة علاقتي بـ«فريدة»، أردت فقط أن أبقى معها؛ لأنني كنت أشعر بالراحة في وجودها، وأرادت أن تبقى معي لسبب لم أفهمه ولم أسألها عنه.. بقينا هكذا؛ لأن الموقف كان يناسبنا، ولأن السعادة لم تكن دائماً تتعلّق بما نؤمن به حقّاً أو ما نقتنع به، لكن كانت تتعلق بما يجعلنا نعتقد، مجرد اعتقاد، أننا سنكون سعداء.. في مرة ذهبت مع أبي إلى الكنيسة وأنا صغير، وقال لي إننا سنذهب إلى هناك لكي يغفر لنا البابا. وسألته: كيف سيغفر لنا؟ وأخبرني أن البابا سيطلب ذلك من الله، وأن الله كفل له حق المغفرة، ولم

أقتنع، لكنني فرحت بالمغفرة، لذلك لم أكن أفكر كثيراً في كل ما يتعلق بـ«فريدة»؛ لأن هناك أشياء يمكننا أن نجد إجابات لها عن أسئلة محددة، ولا نجد إجابات لباقي الأسئلة. يمكننا أن نجد إجابات عن أسئلة مثل «ماذا»؟ و«متى»؟ و«كيف»؟ لكننا قد لا نستطيع الإجابة عن سؤال «لماذا»؟ لنفس الموضوع.. وجدت نفسي مع «فريدة» وفرحت بتلك النتيجة، وقررت ألا أكدّر نفسي بالبحث في ثنايا العلاقة وتكبيل الذات بكردون من المنطقيات، وراحة ضمير لن تجدي في ساعات الوحدة إذا رحلت «فريدة».. كنت جالساً في مكتبي، وقررت التنطع قليلاً على سكرتيرة رئيس التحرير، الكوريدور المؤدي إلى مكتبه كان عليه طابور انتظار من خمسة أو ستة أشخاص لا أعرفهم، ولا أظنهم من زملاء الجريدة.. تجاوزت الصف وسط نظرات الامتعاض وهمس الاعتراض، فتحت الباب ونظرت إلى السكرتيرة قبل أن أدخل، وابتسمت لها وتعمّدت النظر في عينها بتبجح، طلبت مني الدخول، كانت الأريكة المقابلة لها مشغولة بزملاء، أشحت عنهم بوجهي وتصنّعت ابتسامة، جلست على الكرسي أمام مكتبها وهي مشغولة بشاشة الكمبيوتر أمامها، مددت يدي دون استئذان وأخذت أقلّب في الأوراق على مكتبها، كأني أتشاغل وأضيّع الوقت.. كانت ثمة خطابات من طلبة في كلية الإعلام يرغبون في التدريب، تقارير من

المطابع بعدد النسخ المطبوعة من الجريدة والتكاليف، كشف بحوافز إضافية لسفر بعض المراسلين، وجواب من عضو مجلس شعب إخواني يطلب من رئيس التحرير المشاركة بكلمة في ندوة عن الإسلام السياسي برعاية إعلامية من الجريدة، وطلب تحديد مبلغ الرعاية للجريدة، قاطعتني السكرتيرة وأنا أنظر إلى الخطاب وابتسمت وقالت:

- «فيه حاجات كبيرة عليك ماتدخلش نفسك في مشاكل».

- «وهمّ الإخوان هيدفعوا فلوس للجرنال ليه»؟

- «علشان يضمنوا إن الجرنال يلمّعهم».

- «حبيبتي».

- «نعم»؟!

- «لأ ماقصدش حاجة، بس أنا لمّا حد بيعرفني حاجة تعجبني باقول له حبيبي أو حبيبتي».

قلتها وغمزت بابتسامة، فضحكت وهي تهز رأسها كأنها أرادت أن تقول «يا صايع»، لكن يبدو أن الكلمة أعجبتها، بقيت أعاكسها بطريقة مستترة، وأخرج منها بمعلومات عن كل شيء بالجريدة، قلت لها: «لأ إنتي حكاية.. لازم نخرج سوا» التفت إلينا الزملاء الجالسون على الأريكة، وبدا عليها القلق والارتباك، فقلت لهم

مسرعاً: «وإنتم كمان لازم تخرجوا معانا»، وضحكت فضحكوا.. كنت أضحك معهم، وأبلع ريقي بالكاد، اقتربت منها وهمست لها سائلاً ما إذا كان الريس قدامه كتير، وأخبرتني أن معه ناس مهمين.. قلت لها: «طيب إنتي كنت وعدتيني أعمل لقاء في الراديو عن المقالات بتاعتي»، لاحظتُ أن الزملاء الجالسين على الأريكة يتابعونني بنظراتهم.. نظرت لهم وقلت: «ما تيجوا تقعدوا جنبنا هنا أحسن»، ولما شعروا بالحرج وبدوا مرتبكين تشجّعت السكرتيرة، وطلبت منهم الحضور في وقت آخر؛ لأن رئيس التحرير لديه اجتماع مهم.. بقينا وحدنا، وطلبت منها أن تتصل بمعدّ برنامج الراديو لتسأله عن إمكانية عمل فقرة اليوم، كان الموقف شبه مستحيل، لكنني أردت أن أختبرها، إذا وافقت على طلبي الغريب هذا فقد توافق على أي شيء بعد ذلك.

خرجت من عندها ومعي موعد في آخر الليل مع أشهر برنامج إذاعي يبدأ مع منتصف الليل، ليس ذلك فقط، لكن أيضاً نسخة من خطاب الإخوان المسلمين لرئيس التحرير، وتسجيل صوتي لمكالمة بين رئيس التحرير وضابط في جهاز أمني.. ووعد بسفرية وحدنا أنا وهي إلى الساحل! خرجت من عندها، وقد أمّنت لنفسي شيئاً أبتزّ به رئيس التحرير في أي وقت، وفكرة للمقالات القادمة، أسرعت

الطريق إلى البيت.. ركبت تاكسي، ووضعت سماعات الموبايل في أذني، استمعت إلى موسيقى كامنجا حزينة، وكان اليوم هو أول يوم في رمضان.. نظرت إلى الزينة التي ملأت الشوارع الجانبية، وإلى أفرع الإضاءة التي علت المساجد والإنارة التي ملأت الأحياء الشعبية، كانت عربات التمر هندي وفرشات المخلل قد بدأت تستعد وتنشط قبل المغرب، بعد بضع ساعات سوف تتحوّل مصر كلها إلى ساحة كبيرة للصلاة، عجيب أمر المسلمين، يملأون الدنيا حياة وتهليلاً وأدعية، ثم يسبّون الدين في الأسواق ويتلقون الرشاوى بعد رمضان، أو ربما العبارة الأصح هي عجيب أمر المصريين كلهم.. لم أكن أشعر بنفسي في تلك الأجواء الرمضانية من حولي برغم روعتها، نحن أقلية.. يزداد إحساسي بكوني أقلية كلما فكّرت في الموضوع وحتى قبل أن أفكّر، نحن نسمعهم يدعون في صلاتهم لأنفسهم فقط «اللهمّ اغفر للمسلمين واشف المسلمين وارحم المسلمين وانصر المسلمين»، وإذا كان سيشفيهم وحدهم فماذا سيفعل بنا؟ لا أعرف هل يجب أن يقوموا بالدعاء لنا أم لا، أنا أيضاً لا أدعو لهم أو لا أدعو مطلقاً، لكن على الأقل لا أصدح بالدعوات في الشوارع، إذا كان سينصرهم فسينصرهم على مَن؟ علينا؟! هل يمكن أن يأتي يوم فأقوم بتعليق زينة لعيد القيامة في الشارع وأنا مطمئن؟ هل يمكن أن تختفي كلمة

«كوفتس» من مصطلحات حياتي وكلمة «٤ ريشة»؟ هل يمكن أن يصبح اسم «جورج» و«بيشوي» و«مايكل» و«شنودة» مستساغاً ومقبولاً مثل «أحمد» و«محمد» و«علي»! هل يمكن أن تكون أيدينا بلا وشم عنصري يميّزنا كأننا نثبت أننا موجودون، لا أعرف لماذا على مسيحيي مصر فقط أن يشِمُوا أنفسهم بالصليب كأننا منبوذون، هل يمكن أن يعرف الناس في الشوارع أسماء القديسين «بولس» و«حنا»، مثل ما نعرف كلنا «أبا بكر» و«عمر» ونعرف مَن هم جيداً؟! هل يمكن أن تكون في نصوص المدرسة مختارات من الإنجيل مثل مختارات القرآن؟ أو أن تكون هناك إذاعة للإنجيل مثل إذاعة القرآن؟! فكّرت في كل الإجابات ووصلت إلى لا شيء، نحن أقلية نعيش في مجتمع لا يدرك حتى تلك الحقيقة، ولا يلتفت إلى تلك الأمور، ونشكر الربّ أنهم لا يطلبون منا جزية! هذا فقط ما ينقص في ذلك الزمان، وذلك البلد المكروب، سألت نفسي كثيراً عن حال وسبب كل ما أعانيه ولم أصل إلى نتيجة واضحة؛ لأن الأحوال متقلبة والحقائق باهتة، لأن الأشياء التي نتمناها لا يجب أن ندركها لاكتمال المشهد؛ لأن المشهد لا يمكن أن يكون مثالياً في زمان تغلب علينا بالقهر والملل وصاحب الأمل الأسى وبدّد اليأس البهجة، لأن الدنيا لا تحتمل إلا أن تكون مجرد اختيار.. مجرد بديل.. مجرد فرصة بديلة، لا يمكن أن تحصل على

كل شيء دون أن تفقد كل شيء. المثالية في الجنة فقط، ولأن الجنة لا يدخلها الجميع، فالبعض يفرح في الدنيا بشكل مبالغ فيه.. ولأن الحزن أصبح البديل المجاني، لكل هذا وأكثر، ولكل هذا الشبق العميق الذي تلتحف به أرواحنا في هذا التوقيت، ولكل ما لم أذكره ولأن أغلب الأشياء أصبحت مهزوزة حتى حالاتنا المزاجية أصبحنا غير متأكدين منها ونختمها بعبارة «إلى حدّ ما». ولأنني حزين/ كويس/ حيران/ موجوع/ مستبشر.. إلى حدّ ما، لكل ذلك تركت التفكير عن كوني مسيحياً في بلد تضرب المسلم والمسيحي بالجزمة إذا لم تضربه بالنار! لكل ذلك انشغلت عن مظاهر الصوم، بالصوم عن المظاهر، وركّزت في نفسي وفي المصلحة.

وصلت بالقرب من البيت، وكانت المحال تشعل البخور وتتحضّر لفطار المغرب في أول يوم رمضان، اتصلت بالدكتور لأسأله إذا كان قد جهّز إفطاراً أو أعزمه على فطار أول يوم رمضان ـ وأخذ ثواب فطار صائم، قلتها له مازحاً، وقال إنه يجلس وحيداً في ردهة الطعام الكبيرة بمركز تجاري اعتدنا ذهابه معاً، أخبرته أنني سأذهب إليه، أخذت الدفاتر التي كنت قد خبّأتها معي ليلة هروبي من البلد وذهبت إليه.. جلسنا وحدنا في صالة الطعام الكبيرة، حتى إن الشباب الذين عملوا في المطاعم استغربونا.. كان كل

الناس في عزائم العائلات في أول يوم رمضان.. عزمته على أكل صيني وشاي، حتى الأكل بقى صيني! سألته:

- «ليه ماروحتش أول يوم إسكندرية وفطرت مع العيلة»؟

- «وتفتكر إني أقدر أورّيهم وشي غير لما ألاقي حل في حياتي»؟

- «إنت مافكرتش في حد غير ليلى»؟

- «إنت فكرت في حد غير مريم»؟

- «ماقدرتش أفكر لحد ما ظهرت فريدة»!

- «أي حد عادي جداً هيكون موجود جنب حد تاني في وقت وحدة، هنشوفه لطيف وجدع ومختلف ومش عادي خالص».

قالها بلا مبالاة، كان وقع الجملة مؤثراً ومباشراً وقوياً جداً عليَّ، لم أتمكن من حسابات الواقع، لكن ما أعرفه جيداً أن فريدة غير عادية، لم تكن أبداً عادية، لكن في الوقت نفسه أنا كنت أدرك حدودي معها، لا أحبّ أن أصبح مادة في الصحافة أو الإعلام عن «مقتل شاب مسيحي على يد أهل فتاة مسلمة»! «كل ما في الأمر أنني أردت أن أخرج مع شخص جديد، حد مختلف، حد مش تقليدي، حد مافيش بيني وبينه مصلحة متوقعة، حد جميل من جوه في زمن المظاهر والقبح»... غيّرت الموضوع وقلت له: «هنصلّي التراويح فين جماعة»؟ وضحك وقليلاً ما يضحك، أخبرني أنه

سيذهب إلى المقهى ليرى ماذا حدث لرزق، وأخبرته أنني سأذهب معه.. اتصلت بي «فريدة» قبل قيامنا، وعزمتني على السحور معها، ووافقت، في الطريق سألني عن الدفاتر التي معي.. قلت له ذلك موضوع مقالاتي الجديدة، سأنشر صورة من الدفاتر الحقيقية وصورة من الدفاتر التي يتم تسليمها إلى التموين، ابتسم وقال: «ياااه بقالك كتير انتهازي، من إمتى رجعت تبقى إيجابي تاني»؟!

أحرجتني جملته، وسبّبت لي غصة في صدري، لكنني تصنعت ابتسامة متكلفة، وقلت له: «ومين قال لك إني رجعت إيجابي؟ ده لزوم المصلحة!».

منذ ليلة فرحي تخلّيت عن الصعيدي الذي اعتاد الجدعنة والصدق، وتمدّنت، أصبحت ابناً باراً للمدينة، والمدينة عاهرة مختلطة الأنساب، لا تحتفظ بالتقاليد، ولا تدرك معنى لمّ الشمل، ولا تفهم حسابات الشرف والعائلة والأصول، المدينة تفقد عذريتها مع دعاوى التمدن والتشدّق بعبارات التحضر، تمدّنت والمدينة لا تفهم إلا لغة المصلحة، لذلك لما قال هذه الكلمات استعيبت نفسي، ليس فقط لأنها نكأت جراح الصعيدي بداخلي، لكن لأنها جاءت من ابن مدينة لم يختبر تقاليد القرية

من قبل، لم أكن حزيناً من كونه يعتبر نفسه أنظف مني، لكنني حزنت؛ لأنني أنا الآخر كنت أعرف أنه أنظف مني، رأيت أنه من الواجب أن أفكّر في الأمور بشكل أكثر إنسانية، لو كنت سأفجّر قضية الدفاتر لأصبح صحفيّاً لامعاً، فما المانع من استغلال الموقف كله لصالح الناس وكشف الفساد؟ مشيت، تابعت السير معه في صمت، ولم أرغب في الكلام مرة أخرى حتى نصل، حزنت على نفسي أكثر في فترة الصمت التي عقبت سيرنا.. نحن لا نختار أقدارنا، لذلك ليس من العقل أن نحزن على أشياء لم نكن نمتلك حق الاستمرار فيها أو حق التوقف عنها. نحن نحزن لأن الحزن يلائمنا، أو لأننا نحب أن نهرب لشيء ليس للعقل دخل فيه!

وصلنا إلى المقهى، كان الناس كلهم مجتمعين بالداخل وترابيزات الشارع خاوية، دخلنا لنعرف ماذا حدث، كان المعلّم يتحدّث عن أن «رزق» قد يكون قُتل على يد الضابط الذي يتصيّد للمعلم، فجأة وصل أهل «رزق» وجيرانه وصار الموقف مربكاً. خرج المعلم ومعه أهل «رزق» وبعض زبائن القهوة وقالوا إنهم سيذهبون إلى المأمور وسيقفون أمام باب القسم لحين الإفصاح عن مكان «رزق»، تركونا وحدنا بالمقهى وبعض الزبائن الذين لا يعرفون شيئاً عن الموضوع.. سألت الدكتور: «الظابط برضه مختفي»؟

وأجاب بنعم، سألته: «وتفتكر هو ورزق جرالهم حاجة سوا، اتخانقوا مثلاً»؟ لم يردّ عليَّ، طلب كوب شاي وسألني:

- «إنت بقالك أد إيه مابتشربش شاي من القهوة»؟

- «كتير، ييجي أسبوعين».

- «وصحتك كويسة، مابتحسش بحاجة مختلفة»؟

- «قصدك يعني علشان علاج الاكتئاب، تعبت فترة وماكنتش قادر آخد نَفَسي، وكان بييجي لي تهيؤات ونوبات صرع وعياط، لحد ما افتكرت الموضوع ورجعت آخد الدواء».

- «وماقلتليش ليه؟ إنت عارف إنك مش هتعرف تبطّله كده أبداً، وبعد فترة الجرعة مش هتكفيك وهتدمنه».

- «والحل»؟

- «الحل إنك وانت بتخفف الجرعة تشغل حياتك بحاجة جديدة لحد ما الحاجة دي تكبر وتسيطر عليك وتنسى الدواء بدون قصد».

- «أعمل إيه يعني، أنزل مظاهرات»؟

قلتها مازحاً وشعرت أنني أهزأ من نفسي، كنت في السابق أنزل المظاهرات فعلا، وكنت أجد فيها نفسي، شعرت بخيبة الأمل في نفسي، انفعلت على الدكتور وزعقت فيه، كنت أشعر بغضب

بالغ يصيبني ويسيطر عليّ. أخبرته بأنه ليس له حق في الاستهزاء مني أو التعديل عليّ. أخرجت كل ما فيّ من غضب الدنيا في وجهه. كان يجلس صامتاً وساكناً لا يتحرك. استفزني سكوته أكثر. أمسكت به من كتفيه، وأخذت أهز فيه بشدة وأصرخ فيه:

- «إنت عاوز مني إيه»؟!

ظللت أفعل ذلك لعدة دقائق، وهو لا يفعل شيئاً، حتى إنه لم يدافع عن نفسه، ولما بدأت أهدأ أحسست أنني خربت كل شيء، نظرت له ولم أستطِع حتى أن أعتذر، أخذ رشفة من الشاي وسكت، إلى أن هدأت تماماً، ثم نظر لي وقال بمنتهى الهدوء:

- «على فكرة ده كله من تأثير الدواء، عمري ما شفتك مش قادر تسيطر على نفسك كده».

استغربت من هدوئه ورباطة جأشه وثباته، كانت يداي ترتجفان وأنفاسي لا تهدأ، أحسست بأنني في خطر حقيقي، حاولت أن أتحدَّث، وشعرت بأني لا أقدر على تكوين جملة مفيدة، تلعثمت ولم أستطِع النطق قال لي:

- «اهدى، الأدرينالين عالي جدّاً في جسمك دلوقتي، اهدى شوية وهنبقى كويس».

وطلب لي كوب «كركديه»، ولما هدأت قلت له:

- «أعمل إيه علشان أبطّل الدواء الزفت ده»؟

نظر لي وقال:

- «هتسمع الكلام ولا هتتعبني»؟ أخبرته أنني «من إيده دي لإيده دي ».. ابتسم وقال: «إنت عارف إن ده أهم حاجة في العلاج إنك تثق في الدكتور بتاعك»، وطلب مني أن أفعل شيئاً يغيِّر حياتي، شيء واحد صحيح وسط كل ما يحدث من متلازمات السقوط، طلب مني أن أفعل شيئاً إيجابيّاً، وأن أتبع تعليماته في تخفيض جرعة الدواء تدريجيّاً.. قلت له: «وإنت مابتعملش حاجة إيجابية ليه بدل ما إنت مضيّع عمرك بتدوّر على واحدة باعتك»؟ أحسست بعد أن قلت عبارتي الأخيرة أن شيئاً بيننا انكسر ولن ينصلح أبداً، لم يردّ عليّ، تركني ومشى، نظرت إلى النيل، وكان الطريق مكتظّاً بالسيارات، قررت أنني لن أذهب إلى برنامج الراديو، اتصلت بسكرتيرة رئيس التحرير وطلبت منها أن تعتذر للبرنامج، لم أحبّ أن أتحدَّث عن مقالات لم أكتبها، فكّرت في أن اعتذاري الوحيد المقبول للدكتور هو ألا أستمر في الاقتيات على سرقة مقالاته دون علمه.. أخرجت هاتفي أرسلت له رسالة من كلمة واحدة «آسف»، ولم أنتظر ردأ، اتصلت بي «فريدة»، قالت

إن ضابطاً اتصل بها من هاتف الأستاذ «شاهين»، وأنهم وجدوه على وشك الموت في غرفة بفندق «شيبرد»، وطلبت مني أن ألحق بها في المستشفى، لم يكن الوضع يحتاج أكثر من ذلك، الوكسة تسقط على رأسي من كل جانب، قمت مسرعاً.. ذهبت إلى المستشفى، وجدت «فريدة» ومعها ضابط يتحدّثان، أخذتني من يدي وذهبت بي إلى غرفة عم «شاهين»، نظرت لحاله من خلف زجاج غرفة العناية المركزة كان يشبه الموتى، سألت نفسي وماذا نفعل بالحياة إذا كنا نعيش بانتظار الموت، نحن لا شيء، مجرد مجموعة من السذج مروا على الأرض ولم يتركوا لهم أثراً يبقى أو حكايات تُذكَر! نحن نقترف الذنوب والأخطاء ونحن مندفعون وراء انفعال، عاطفة، ضعف، شهوة، أو قلة حيلة.. كلها أمور لا نمتلك القدرة الكافية على التحكم فيها، لكننا نعتذر ونندم ونتوب ونرجو الغفران، ونحن محملون باستغفار وإدراك وتدبر وتفكير وقدرة على مواجهة الاندفاعات السابقة. نظرت إلى «فريدة» وسألتها لماذا اتصلوا بها تحديداً؟ وقالت إن رقمها كان آخر رقم اتصل به عم «شاهين»، وأنهم وجدوه في غيبوبة سكر عندما فتحوا الغرفة للتنظيف، جلست مع «فريدة» في المستشفى، كنا ننظر لبعضنا ولا نتحدّث.. قلت لنفسي إنني سأتغيَّر، لن أترك نفسي أموت بطريقة تشبه عم «شاهين»، ولن أبقى ضحية

نفسي.. كان الفجر قد اقترب، أخذتُ «فريدة» وأوصلتها إلى بيتها ووعدتها بسحور قريب أعوّضها به عن سحور اليوم، وذهبت إلى الجريدة قبيل الفجر، كتبت المقال، وضعت صوراً من الدفاتر، استجمعت كل ثوريتي القديمة وكل أحلام الفتى الصعيدي وكل غشومية الجنوب.. أرسلت المقال، ومددت جسدي على أريكة المكتب.

استيقظت على صوت عمال النظافة قبل حضور الموظفين، أخرجت ظرفاً بنيّاً من درج مكتبي، كان به بعض التقارير والخطابات، ذهبت به إلى مفرمة الورق في الردهة المقابلة لمكتب رئيس التحرير، لمحتني السكرتيرة، فخرجت لتشرب سيجارة معي، لم أكن في مزاج يسمح، قالت: «إنت نويت تبقى ثورجي ولا إيه»؟

- «إنت بتقولي الكلام ده ليه»؟

- «أصلي قريت المقال اللي انت كاتبه».

- «وإزاي المقال ده ييجي لك»؟

- «إنت فاكر إن رئيس التحرير فاضي يقرأ كل مقالات الجرنال، ده كل فين وفين لما بيشوف إيه اللي بيحصل، هو مركّز بس مع الكبار».

- «وتفتكري هيتنشر»؟

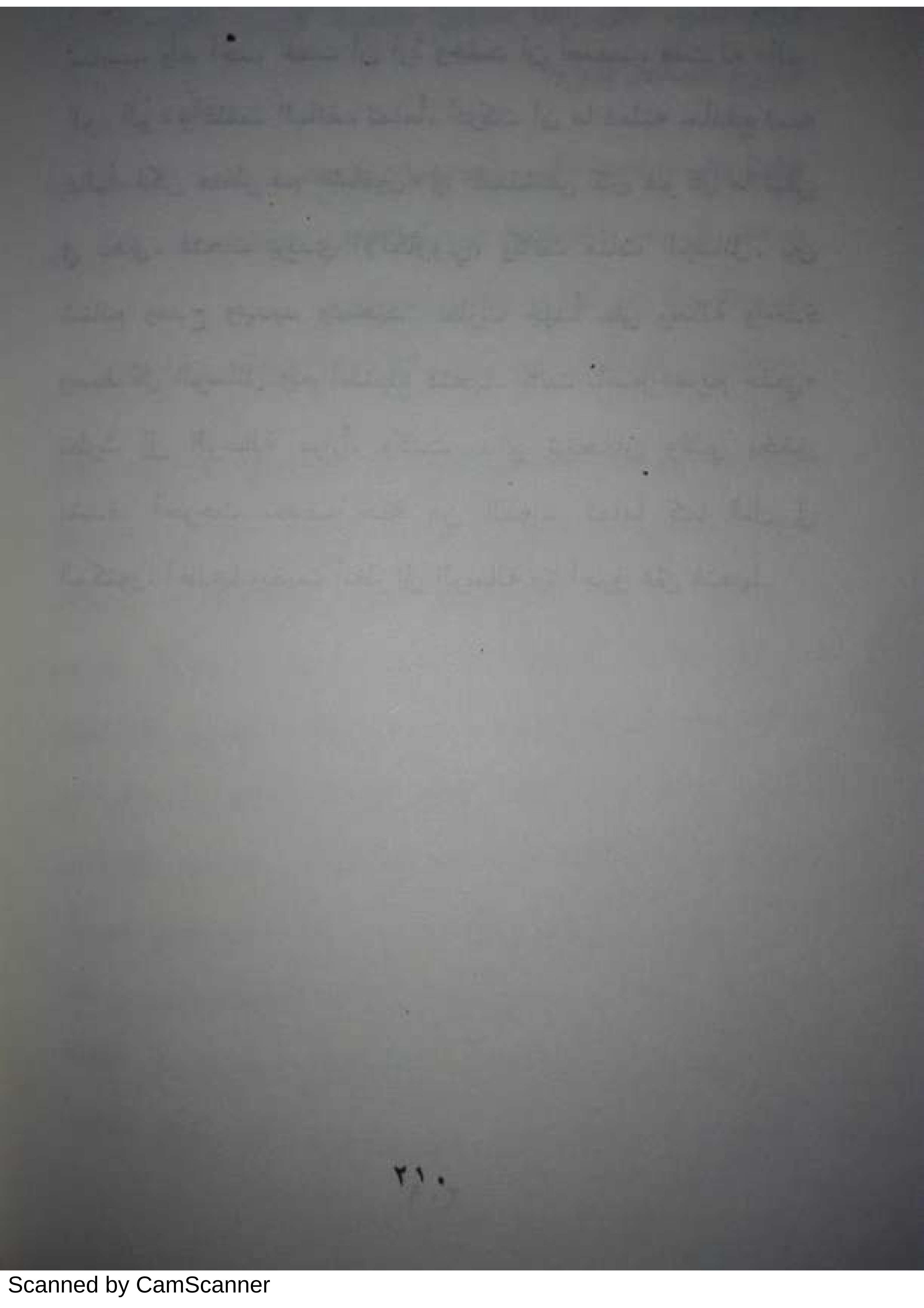
- «آه ماتخافش، إحنا نخبّط مع الحكومة آه، نعمل شوية دوشة لزوم البيع، لكن إحنا عارفين حدودنا كويس، باقول لك إيه هنروح الساحل إمتى»؟

قالتها وهي تداعب ذقني بأصابعها، خرجت دون رد.. ذهبت عنها ورحت إلى عم «شاهين» في المستشفى، وجدته قد أفاق من غيبوبته، ولما رآني تبسّم، دخلت له وقال:

- «فطروني بالعافية، ينفع برضه أفطر أول يومين من رمضان»..

ابتسمت ولم أشعر بالدموع وهي تنزل من عيني، قلت له: «كنت هتموت وتسيبنا يا راجل يا طيب».. ابتسم وقال لي: «حتى دي ماعرفتش أعملها، كان نفسي أموت وماعرفتش»، ضحكنا، ضحكنا بشدة، واتصلت بالدكتور ليحضر، وبقينا مع عم «شاهين» ٣ أيام بالمستشفى حتى سمحوا له بالخروج.. كان المقال قد قلب الدنيا، ولم أعرف.. عندما رجعت إلى الجريدة عرفت من الزملاء، شعرت لأول مرة منذ فترة طويلة أنني على قيد الحياة من جديد، وقررت أن أستمر فوق الأرض، وألا أدفن نفسي مجدداً. كان هناك رقم أعرفه جيداً مسجّل باسم «الباشا» يتصل بي منذ نشر المقال، فكّرت كثيراً قبل الرد، وعندما أجبت على المكالمة سمعت صوته: «جرى إيه يا عم المناضل، طب اعمل مناضل

براحتك بس ماتنساش مين اللي وصّلك للي إنت فيه.. فين الظرف بتاع كل شهر؟». وكنت قد فرمت الظرف، فكّرت كثيراً في رد مناسب ولم أجد، خفت أن أردّ وخفت أن أصمت، قلت له «ألو.. ألو.. ألو» وأغلقت الهاتف تماماً. أدركت أن ما فعلته سأدفع ثمنه غالياً، لكن منظر عم «شاهين» في المستشفى كان هو كل ما تبقّى في ذهني، فتحت بريدي الإلكتروني، وكانت مئات الرسائل، بين شتائم ومدح وتهديد وتمجيد.. نظرت جيداً على رسالة واحدة وسط كل الرسائل ولم أستطِع فتحها.. كانت باسم «مريم حلمي» نظرت إلى الرسالة مراراً، وكانت يداي ترتجفان وقلبي يخفق بشدة.. أخرجت نصف حبّة من الدواء، تماماً كما قال لي الدكتور، أخذتها وبقيت أنظر إلى الرسالة ولا أجرؤ على فتحها.



الدكتور

زارتني «ليلى» في النوم، كانت تتردد عليَّ في الآونة الأخيرة، رأيتها في كل أحلامي ولم تتركني وحيداً أبداً بعد الآن.. كنت أراها حيناً تلبس فستاناً أسود طويلاً عاري الكتفين، ويتدلّى على صدرها دلايات من عقيق أصفر وخشبي، كانت تنظر لي بابتسامة مجهولة المصدر، وتعيد إدناء شعرها بكلتا يديها، وأحياناً أخرى ترتدي «جاكت جينز» وتلصق عليه دبابيس مكتوب عليها عبارات بقيت في ذاكرتي كتهاويم ليلة شتوية شديدة البرودة، وأحياناً كانت تعصف بنا الريح وتنزل قطرات المطر زخات تبلل طريقنا، فكنت أحمل لها مظلة وأسير بجوارها ساكناً مطمئناً بوجودها، وكان طريقنا يمتد كغيمة في مدينة هائمة فانية وأسطورية، جاءتني ليلى في المنام كما تزور الأم وليدها، وكنت خائفاً ومرتبكاً ووحيداً، فقالت «بص لي.. ماتخافش، كل حاجة هتبقى أحسن صدقني».

وصدّقتها.. استيقظت من نومي وأنا أصدّقها؛ لأن «ليلى» لا تعرف الكذب، ليلى نقية كنقاء بشرة الأطفال قبل أن تلوثها عوامل التعرية وتفتك بها التضاريس، صدّقتها لأنني كنت قد خسرت كل شيء، ولم أملك بعد ذلك ما أخسره، لذلك تمسكت بكل ما بقي منها، حتى ولو كان هلاوس أحلام ليلية تنقضي مع أول ضوء للنهار.. قمت من نومي على صداع يكبل رأسي، كانت الغرفة مظلمة، وصوت خروشات وخبط وكركبة بالخارج، تثاقلت على نفسي، وخرجت أنظر ما يحدث.. كان «مجدي» يجهز حقيبة كبيرة بالملابس والأوراق والمقتنيات، أقلقني تسرعه وارتباكه، قلت له: «بتعمل إيه؟» ولم يلتفت لي، ردّ دون التفات، وقال: «اصبر»، لم يكن حزيناً، لم تبدُ عليه أعراض الحزن المعتادة ولا مضاعفات الضياع، كان متعجلاً وواثقاً، جلست أمامه ولم أعقب، رأيت «مجدي» يضع أعداداً من الجريدة التي يعمل بها، وأظرفاً بُنية بها بعض الأوراق، ولفافات عجيبة الشكل، ولما انتهى من إغلاق الحقيبة، جلس أمامي وأسند رأسه على يديه، قال لي:

- «هو أنا كده خفيت من الدواء»؟

وخفت أن أكذب عليه.. يستلزم التخلص من أثر الدواء فترة أطول.. قلت له:

- «لأ لسه، لو بطلته حالياً هيحصل لك مضاعفات، استنى على الجرعة اللي قلت لك عليها».

- «هو إنت ليه قلت لي إني لازم أعمل حاجة إيجابية كنوع من العلاج»؟

- «علشان تشغل عقلك وتركيزك بحاجة تحل محل الضياع والاكتئاب».

أحسست أنني كذبت عليه، نصف الإجابة سليم، والنصف الآخر أنني كنت قد عجزت عن تغيير أي شيء سلبي بحياتي، وكنت أشعر بالذنب لكوني المتسبب في أخذ هذا العلاج، أردت أن أدفعه لفعل شيء إيجابي وحيد ربما يخرجه من حالته البائسة، وربما لكي أشعر أن لوجودي أي معنى في الحياة.. نظرت إلى الحقيبة المكتظة بالأشياء، سألته عنها.. قال إن «مريم» هاتفته بالأمس، بعد أن انتشرت مقالاته.. وتحدّث الجميع عن الدفاتر.. كانت كل صلة له بـ«مريم» وبالبلد قد انقطعت عمداً حتى إنه لم يحاول الاتصال بها أبداً وغيّر كل أرقامه ووسائل الاتصال به عمداً لكي لا يواجهها بعدما وقف عاجزاً عن حمايتها ليلة الفرح وبعدما سبب لها الحرج والعار، لكن المقالات والكلام عن الدفاتر لفّ البلد كلها، وصلها الكلام وعرفت عنوان بريده الإلكتروني وتواصلا، قال لي «إن

حلمي المنياوي» مات من فترة، وأن «مريم» لم تتزوج بعده ولم يلمسها شخص من يوم الفرح. قال إن كل شيء قد انصلح، وأن حياته تبدأ من اليوم. سألته وماذا سيفعل الآن؟ كنت أعرف أن أي شيء لن يوقفه عن البقاء مع «مريم»، كنت أدرك تماماً أن كل أحلامه وطموحه وجموحه لن تقف أمام نظرة من عيني «مريم».

ظننت أن «ليلى» عندما جاءتني في الحلم وقالت إن كل الأمور ستتحسن، إنما كانت تقصد ما سيحدث لـ«مجدي».. فرحت لـ«مجدي» جدّاً. وعلمت أنني سأبقى وحيداً في تلك الشقة أصارع الغرف المظلمة وعصف الذكريات المُلحّ! كنت أحسب الدنيا أهون من ذلك.. كررت سؤالي:

- «هتعمل إيه دلوقتي»؟

قال:

- «مش عارف، في الزمن ده الواحد بقى لما يفرح قلبه ينمّل!».

قالها وتبسم وأحسست بغربته الكامنة بتلابيب الصدر.. قلت له:

- «هتسافر إمتى»؟

نظر لي في هدوء وقال:

- «قبل ما نتكلّم عن السفر فيه حاجة لازم أعترف لك بها».

- «موضوع المقالات»؟

- «إنت عرفت»؟

- «من زمان».

- «لكن فيه موضوع تاني».

كان «مجدي» مرتبكاً جداً، أخرجت علبة سجائري قلت له:

- «أنا صائم اشرب. إنت».

وعزمت عليه بسيجارة، فرفض، أخبرني أنه سيتوقف عن التدخين من أجل «مريم»، وأنه يريد أن يولد من جديد، حكى لي عن كونه كان يكتب عنا التقارير، منذ أن كان في المعتقل ولم يتحمّل التعذيب.. قال له أحد الضباط إن بإمكانه تغيير كل الأمور لصالحه فقط لو تعاون، ومن يومها وهو يتعاون معهم، لم أرتَب من كل ما يقول، كنت قد خسرت كل شيء بالفعل، ولم أعد أخاف على نفسي ولا أي أمر آخر.. طلبت منه أن يُكمل.. أخبرني أنه كان يكتب التقارير عن رواد المقهى، وعن زملائه في الجريدة، وكان يضع تقارير كل شهر في ظرف بُنّي ويسلمه إلى مسؤول اتصال، وقد حصل مقابل ذلك على خدمات كان آخرها العمل بتلك الجريدة، غير أنه لم يصل إلى تلك المرحلة إلا بعد أن أثبت ولاءه التام، عرفت منه أن ثمة متعاوناً آخر، وكلّ منهم لا يعرف

الثاني، وكل منهم يكتب التقارير، لكي يتأكدوا من صحتها.. قال لي إن «سيد» التاكسجي قد يكون الثاني، ونظر في الأرض.. كنت أعرف أن «سيد» ليس الآخر لقد قبضوا على «سيد» بالأمس مع ابن المعلم وأكثر من شخص بسبب وقفتهم أمام القسم للبحث عن «رزق»، وأفرجوا عنه بعد استجدائه وتعهّده بكل الأيمان ألا يقترب من القسم مرة أخرى. لو كان هو الشخص الآخر لما قبضوا عليه سكت. لم أجد ما أقوله حاول أن يعتذر ويعترف بذنبه لكني قلت له «اسكت» أدركت أن الخيبة أثقلته، وأن كل كلمات الاعتذار لن تكفي من صديق غادر. تذكّرت «فريدة» المسكينة التي قرر أن يتركها وحيدة بعدما جمعتهما الأيام، لم أعرف هل تطورت الصداقة بينهما إلى حب أم كانت الأمور أنضج من ذلك، وأدرك كل منهما حساسية الموقف! فكّرت في أن كل الأمور التي يمكن أن تحدث قد حدثت بالفعل بعد الذي قاله الآن، وأن لا شيء تبقّى للندم.. أردت أن أعرف منه شيئاً أخيراً ماذا كتب عني تحديداً.. طلبت منه أن يحكي لي بالتفصيل لكي أعرف ما يجب عليّ فعله، كنت على موعد جديد مع الخوف، لم أكن أحتمل أن تضيع سنوات أخرى من عمري في التعسف والحبس الاحتياطي.. قال إن المشكلة لم تكن أبداً تخصني وإنما كانت في عم «شاهين» الذي لا يسكت عن الكلام في السياسة.

أخذ سيجارة من علبة سجائري وأشعلها، أخذ منها نَفَساً وقام..
أحضر لي ظرفاً به نسخ من بعض التقارير ومستندات تدين رئيس التحرير وكثير من الوثائق، ترك لي هاتفه المحمول وقال:

- «فريدة هتكلّمني، قابلها وادّيها الحاجات دي.. هي شغالة في مركز حقوقي وهتعرف تتصرف».

احتضنني ولم ينطق.. أخذ حقيبته.ونزل.

بقيت وحدي تائهاً في ذلك البيت الغريب، كان «مجدي» بكل ما به هو الشخص الوحيد الذي اعتدته منذ بدأت الأحداث تتوالى، تبسمت، نظرت في المرآة وتبسمت وقلت: «كم كنت ساذجاً».. سمعت صوت «مجدي» يصرخ في الشارع، جريت أنظر من خلف شيش النافذة.. كانت سيارة شرطة بها مجموعة من أمناء الشرطة والمخبرين يكتّفونه ويضعونه في السيارة، أحدهم كان يضربه على قفاه والآخر كان يقول للذي يضربه: «متضربوش الباشا عاوزه نضيف»، كان قلبي يسقط في قدمي، لو صعدوا لتفتيش الشقة، لو دخلوا عليّ ووجدوني هنا، لو قبضوا عليّ فدخلت في تجربة جديدة مع الحبس والتكوم والبرد الذي يجتاح الضلوع والأفكار التي لا تنتهي كل ثانية، لو صعدوا إلى هنا ووجدوني فلن يبقى أمامي أي فرص أخرى للقاء «ليلى»، وربما لن يبقى أمامي فرص

للبقاء، عجيب أمر عم «شاهين»، كيف أدرك الحقيقة مبكراً؟!
الموت حتماً أجمل من كل احتمالات البقاء، نحن لسنا سوى
مجدر احتمال، لا نرقى حتى لفكرة أن نكون بشراً طبيعيين لهم
الحق في الحياة.. كنت أتهاوى داخل نفسي وألمح عيني «مجدي»
تنظران نحو الشباك كأنه يعرف أنني أراه.. ظل يصرخ وينادي:
- «بيقبضوا عليّ علشان فرمت الظرف.. أنا مش وسخ.. ماسلّمتش
آخر ظرف.. أنا مش وسخ يا مريم».

رأيت السيارة تبتعد والناس تنظر إليه في ذهول، وهو يكرر هتافه
وصوته يخفت كلما ابتعدت السيارة، وآخر ما سمعته منه هو
نداء: «أنا مش وسخ يا مريم».

ولما بدأت السيارة تبتعد لم تحملني قدماي، تهاويت على الأرض
ولم أشعر بنفسي إلا على صوت أذان المغرب، قمت وبللت ريقي
فحسب، لم أعرف ماذا عليّ أن أفعل، ولم أعرف ما هو الظرف
الذي فرمه، كان الموقف كله مباغتاً.. أحسست أن الدور القادم
عليّ أنا وعم «شاهين» و«سيد» التاكسجي وكل زبائن المقهى وربما
«فريدة» المسكينة.. صعبت عليّ «مريم» جداً، وأشفقت على
«مجدي»، ارتديت ملابسي ونزلت مسرعاً إلى المقهى، وقفت بعيداً
عن المقهى ألمح الطريق، ولما اطمأننت ورأيت من بعيد «سيد»

التاكسي، ذهبت إلى عم «شاهين»، حكيت له ما حصل وسألته عن «رزق»، ووجدته غير مبالٍ بكل كلامي، قال:

- «فرصة زي دي ماتتعوّضش، إن الواحد في آخر أيامه يعمل حاجة صح أو حاجة تنفع الناس، لكن ماتخافش اللي زيي وزيك مافيش منهم خطر، أنا راجل كبرت وبخرّف، وأنت تايه ضايع ومالكش لازمة، إحنا أنسب نموذجين للبلد! يا ابني الواحد مننا لو اتضحك عليه في موقف ولا شغلانة بيقعد أسبوع زعلان، طب لو اتضحك عليه في عمره كله يعمل إيه»؟!

- «ربنا جعل دايماً فيه بديل، بس إحنا ساعات مش بنشوفه، وساعات تانية مش بنبقى مصدقين إن فيه بديل».

- «وأنت بقالك أد إيه بتدوّر على حضن ضاع منك ومالقتش عنه بديل.. صحيح، الحضن اللي مايصيبش يدوش».

- «يا عم شاهين، إحنا ساعات بنخاف نفرح لننسى إننا هنرجع نحزن تاني، وساعات بنخاف نتقدم خطوة لنبقى لوحدنا ونتوه، وساعات بنخاف نخاف، فبنتغابى، وساعات بنتغابى بدون قصد، فنخاف نعمل أي حاجة جديدة، إحنا على طول بنخاف أو بنهرب من خوف».

- «إحنا هنفضل نتفلسف على بعض لامتى»؟

قالها وأشاح بوجهه عني وجلس ساكتاً.. كنت أشعر بالخوف والندم وكل أثقال الدنيا تكوّمت فوق رأسي، أردت أن أزيح بعض الأثقال عني، لا أعرف لماذا زارتني «ليلى» هذا الصباح في أحلامي بكثرة عن كل الأيام التي كانت تأتي فيها كطيف شارد يمر سريعاً ولا يبقى، لو كانت «ليلى» بقيت معي عند المنشية، في ذلك الليل البعيد، عندما كان لكل الأيام معنى، لو كنت ذهبت معها للمظاهرة من البداية فلربما بقيت معها ولم أندم، ولم يحدث كل ما حدث.. كانت أصوات المظاهرات على سلم نقابة الصحافيين تظهر في شاشة التليفزيون، قلت لعم «شاهين»:

- «البلد بتغلي، تفتكر ممكن يحصل حاجة»؟

- «يا ريت».

- «إنت مش كان طول عمرك نفسك تعلّم حفيدتك الصيد والصبر»؟

- «ومالحقتش أعلمها».

- «إنت لسه بتاخد جرعة الاكتئاب»؟

- «آه».

- «طب قوم حالاً روح علّم حفيدتك الصيد وسيبها تتعلم الصبر، وأول ما تعلمها تربط الخيط في رجل الحمامة ارمي شريط الدواء، ساعتها مش هتبقى محتاجه».

نظر لي في تأنٍّ بالغ، سقطت منه بعض الدمعات وقال:

- «وتفتكر هلحق»؟

لم أردّ عليه، ناديت على «سيد» التاكسجي، وطلبت منه أن يأخذ عم «شاهين» إلى حفيدته.. كان هاتف «مجدي» يرن ويظهر اسم «فريدة» على الشاشة، رأيت عم «شاهين» يبتعد مستنداً على «سيد» التاكسجي وعصاه الخشبية، ركب التاكسي ونظر لي من بعيد وابتسم، ابتسم بشدة، أحسست به يضحك للمرة الأولى من قلبه رغم كل الضحك الذي ملأ به المكان، كنت أشعر كأني لن أراه مرة أخرى، لذلك لم أودّعه، تظاهرت بأني سأراه قريباً، وقلت له: «أشوفك لما ترجع».. خرجت لأنظر على سيارة «سيد» التاكسجي وهي تختفي، وكان صوت المظاهرات يرتفع في التليفزيون، وصوت سارينة عربة شرطة تقترب، وصوت هاتف «مجدي» يرتفع، وكل الصخب يزداد، اتخذت خطوات ثابتة هادئة لأبتعد عن المقهى وعن عربة الشرطة، يبدو أن الأوان قد آن، وتقارير «مجدي» سوف تؤدي بكل زبائن المقهى إلى الجحيم، أجبت على الهاتف لأشغل نفسي بأمر يقلل توتري، قالت:

- «مجدي» إنت فين؟

- أنا صديق «مجدي»، إزيك يا «فريدة»؟ معايا ظرف سايبهولك «مجدي»، أنا جنب القهوة.

- استنى أنا شايفاك، شايفاك بوضوح.

قالتها ولا أعرف كيف عرفتني ولم نتقابل يوماً أبداً، رفعت عيني لأجدها أمامي، وما زالت معي على الهاتف، نظرت إليها ولم أنطق، قالت:

- «سكتّ ليه»؟

كانت أضواء الشارع تلقي بأنوارها على وجهي وتصيبني بزغللة في الرؤية وكانت تظهر هي بالقرب وأضواء الشارع تضيء وجهها بكل الألوان الأحمر والأصفر والأزرق والبرتقالي، ألوان كثيرة كانت تظهر بوضوح على وجهها، وكأن كل الوان الدنيا التي أعرفها والتي لم أعرفها قررت أن تضيء ذلك الوجه فجأة، وكان في الجانب الآخر النيل وينعكس على ضفته ألوان إنارة أرجوحة تدور في الجانب الآخر، وقفت أنظر الىها وأنظر إلى الأرجوحة والناس من حولي يمرقون من كل صوب، أحسست لثوانٍ أني بين اليقظة والنوم، نظرت إليها في يتم.. وكانت «ليلى».. لم تكن أبداً «فريدة»، كانت هي «ليلى» كما تركتها، بكل ما في عينيها من قوة وحنوّ وطيبة وضياع.. كانت «ليلى» ولم يزد عليها غير حجاب أنيق وكثير من الجمال

والصفاء والانتظار.. لم أسلّم عليها حتى، لم نكن غرباء عن بعض لأسلّم عليها، وأضيّع الوقت في التحية والاطمئنان.. كنا صديقين وحبيبين وكنا نعرف بعضنا تمام المعرفة، وكنا غرباء في هذا العالم، غرباء عن باقي البشر، والغريب يأنس بالغريب في هذا الزمان.. كانت «ليلى» ومع «ليلى» ينتفي المنطق وتبدأ المسلمات. كنا غرباء ولم نكن غرباء.. غرباء عن الزمن والظروف والأحداث ولسنا غرباء عن بعضنا، نحن لسنا-الذين تركناهم خلفنا بالأمس، أصبحنا أشخاصاً مختلفين، فقط نشبههم حد الوجع.. تولد وحيداً، تعتمد على الآخرين، تكبر، تحتاج إلى الأصدقاء، ترغب في صحبة، في شلة، في رفقاء، تنضج، يموت الذين اعتمدت عليهم في الصغر، يتغير الأصدقاء ألف مرة، تعيش وحيداً، تتحسن أمورك، أحوالك، ويزداد استقرارك واعتمادك على ذاتك، تقود سيارتك وحدك، تشتري منزلاً يلائم احتياجاتك وأثاثاً يناسب خيالك وذوقك، تستوحش، تبحث عن شريك، تكبر، يعتمد عليك صغير جديد، يكبر، ترحل وحيداً، وتتركه يسير في نفس الدائرة بين مرارة الوحدة ولهفة البحث عن ونس. فطوبى للغرباء.. كنت غريباً لكني لما رأيت «ليلى» نسيت كل أوجاع الأيام الماضية وكل عذابات المعتقل وكل ضياع العمر، ولم يكن هناك من معنى للعتاب أو المقدمات أو المماطلة.. أمسكت يدها ومشينا.. كنت

أعلم أنها ربما غابت كل تلك الفترة؛ لأنها ظنت وجود علاقة بيني وبين فتاة «الإيليت». الله وحده يعلم أني لم أخنها أبداً. لم أنكأ جراح الماضي، قلت لها:

- «وحشتيني».

- «كنت بدور عليك في اسكندرية! أرقامك بقت مع ناس تانية».

- «خدوها مني في المعتقل، وباسوورد الإيميلات وكل حاجة»!

- «متفكرش كتير».

- «حاضر، لكن إيه حكاية فريدة»؟

- «لما قريت المقالات بتاعة مجدي عرفت إنها بتاعتك. وقلت أكيد من خلاله هعرف أوصل لك واخترعت قصة فريدة».

- «دورت عليكي كتير».

- «لكن أنا اللي لقيتك».

قالتها وضحكت ضحكتها التي أعرفها وأحبها وأجد نفسي فيها، ويكون معها كل الونس.

- «أنت مش كنتي اتنقبتي»؟

- «ماحصلش، اتحجبت بس».

- «برضو لسه مناضلة وبتشتغلي في مركز حقوقي»؟!

- «تعرف عني إني باستسلم»؟

- «أبدأ».
- «هتنزل معايا المظاهرات»؟
- «أفكّر».

وضحكنا.. ضحكنا وكنت أعرف أني لن أفوّت أي طريق معها، أخرجت شريطاً به حبوب مضادة للاكتئاب من جيبي، وألقيت به دون أن تلتفت، لم أحب أن تعرف عني أي ضعف، وكنت قررت أن أتخلّى عن كل ضعف قديم، مشيت معها إلى مركز التسوق الذي أفطرت فيه وحيداً في أول أيام رمضان، قررنا أن نحتفل وأن نعود إلى الإسكندرية.. كنت أمشي معها وأبتسم، وأصوات المظاهرات تعلو في شاشات التلفزيون وصوت سارينة عربة الشرطة يقترب من المقهى وأصوات الناس في الشارع تطغى على المشهد وكل منهم انشغل بحاله، وصوت التراويح يغلف المكان، كنت أسير معك يا «ليلى» وقد زال عني كل اليتم.

أمشي بجوارك في مركز تسوق كبير في مدينة غريبة عليّ ليست مدينتي، لكن جئتها فقط من أجلك، أدخل معك المحل تلو الآخر مستسلماً تماماً، كأني أرغب في إشباع كل ما تبقى من طفولة يتيمة بداخلي. أتركك تسحبينني سحباً خلفك «تعالى هوريك المحل ده مش هتصدق نفسك»، وكلما دخلت معك محلاً لا

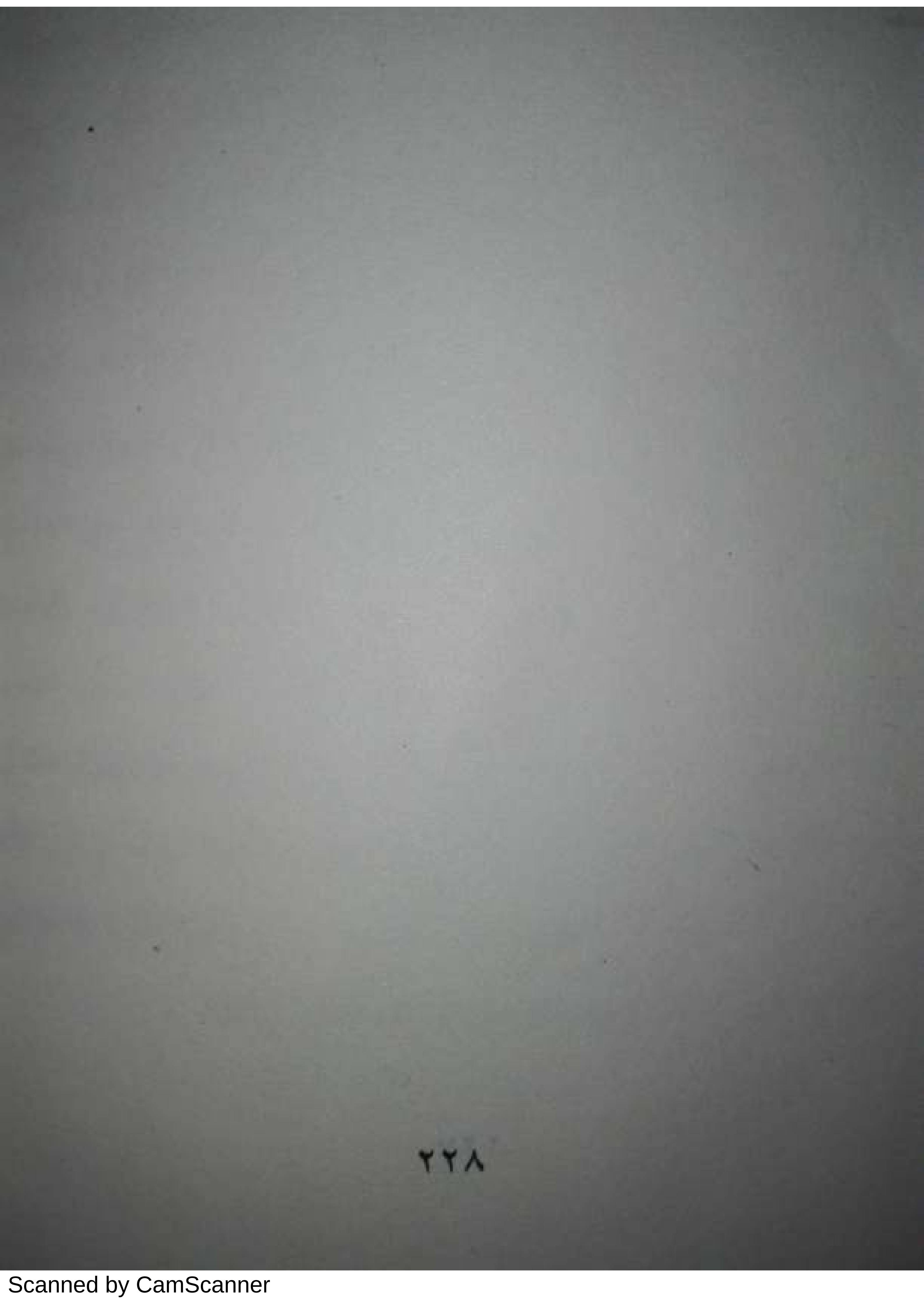
أصدّق نفسي، أشاهد معك لعب الأطفال، ملابسهم، مكاتبهم، أشياءهم.. ألمح الفرحة في عينيك.. تحدّثينني عن المستقبل.. عن أشياء ستحضرينها لابنتنا لم يكن لدينا مثلها.. عن ترابيزة سفرة للأطفال علشان الولد يعزم صحابه.. أنظر إلى سعر الترابيزة فأقول لك «إنشالله صحابه ما اتعزموا»، تضحكين وأضحك معك.. ندخل معاً لنشاهد البيجامات.. كل بيجامات الأطفال جميلة.. المستقبل جميل بكل تخيلاته، ما لنا وما للأطفال الآن! أنا رجل أفكر فى اللحظات الآنية، وأنت تفكرين فى المستقبل.. جئت أنا من الإسكندرية حيث لا نقول البيجامات كثيراً، كلمات كثيرة توقفت عن قولها دون قصد، لكنك دوماً تقولينها بمنتهى التلقائية، كلمات مثل: «نص نص - بعد الشر - بيجاما - حاضر»، لا تستغربين من أني وضعت كلمة «حاضر» وسط الكلمات.. نحن مجتمع يعشق المناكفة والنكد، أنت وحدك مجتمع بأكمله، تقولين كلمات تربطني بالماضي.. تمدين جذور الانتماء للزمن، تقولين على أغلب الأشياء «حاضر» دون مناكفة أو نكد، جئت إليك وتركت خلفي كثيراً من الدعوات والأمنيات والترقب، هل عندك شك في أن الله سيمنع كل تلك الأمنيات وكل تلك الدعوات من التحقق؟ لا تؤمني بالشك.. الله وحده مصدر كل يقين، وأنا أؤمن بالله.

يوماً ما سأحكي عنك، عن تفاصيلك، عن أحلامك، عن كونك الوطن، الأمل، الهدوء، النسبية، والمطلق.

•

يوماً ما سوف أحكي عنكِ.

تمت



المراجع

البحث عن الذات – محمد أنور السادات

كنت رئيساً لمصر – محمد نجيب

ثوار يوليو يتحدثون – محمود فوزي

سنوات الغليان – محمد حسنين هيكل هيكل

عبد الناصر المفترى عليه والمفتري علينا – أنيس منصور

مذكرات الفريق الشاذلي – المكتب المصري الحديث

مذكرات خالد محيي الدين – المكتب المصري الحديث

مذكرات عبد اللطيف البغدادي – المكتب المصري الحديث

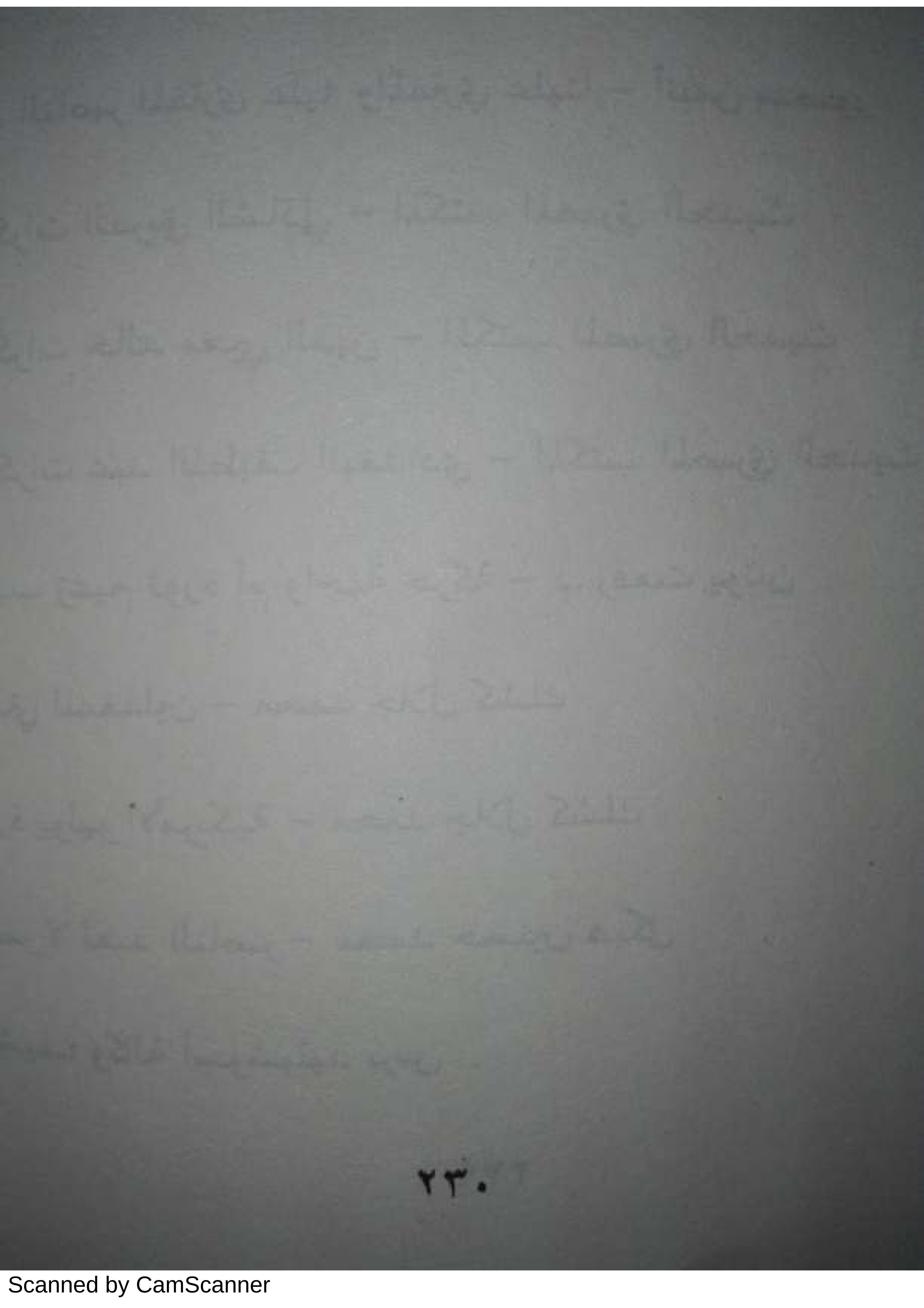
نجيب زعيم ثورة أم واجهة حركة – د. رفعت يونان

كلمتي للمغفلين – محمد جلال كشك

ثورة يوليو الأمريكية – محمد جلال كشك

لمصر لا لعبد الناصر – محمد حسنين هيكل

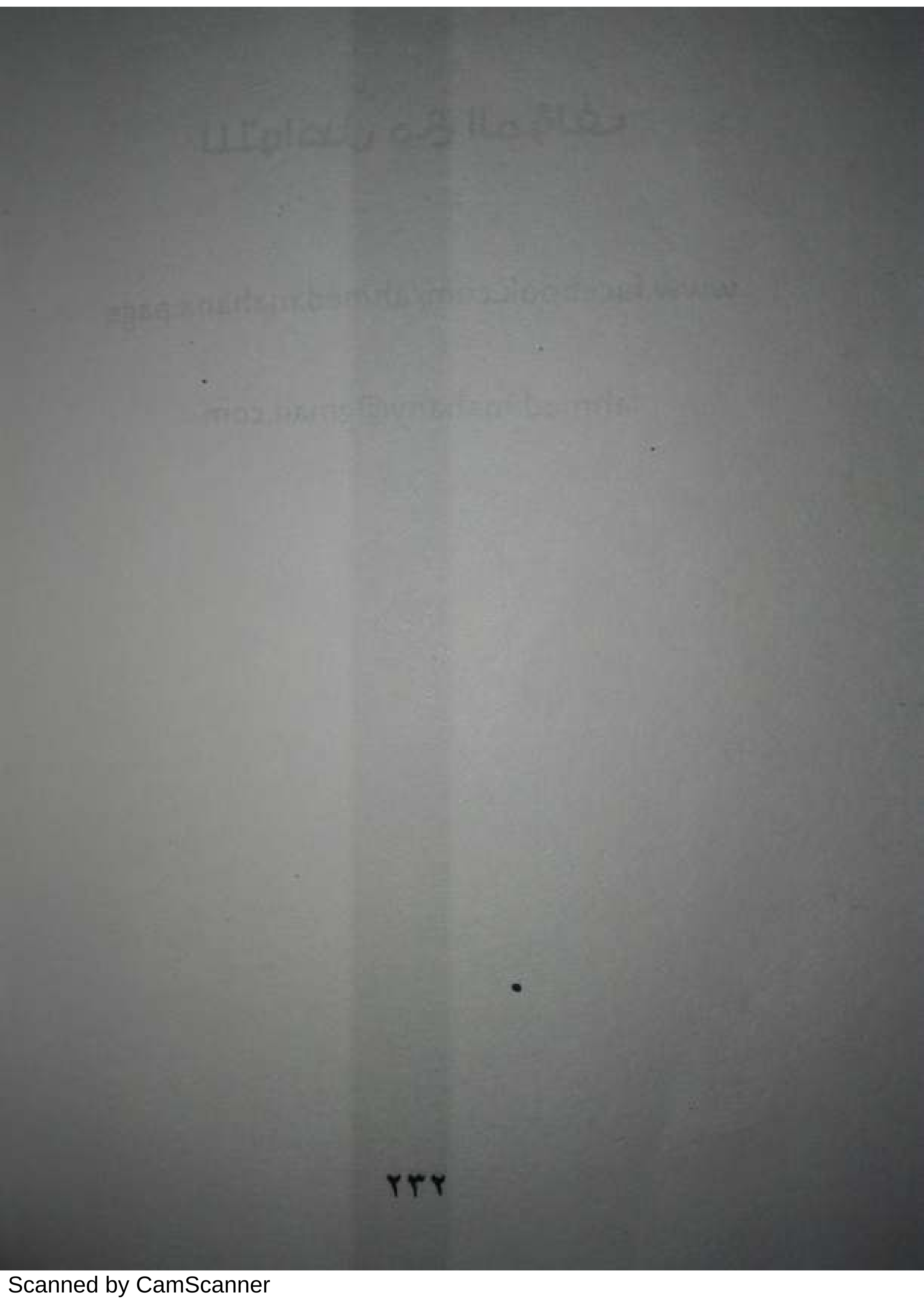
أرشيف وكالة أسوشيتيد برس



للتواصل مع المؤلف

www.facebook.com/ahmed.mahana.page

ahmed.mahany@gmail.com



هذه ليست حكاية شخص يحاول أن ينقذ حبه وسط كل ما يجري من خراب.. ليست مجرد حكاية رومانسية عادية.. المصادفة تكمن في أنه كلما حاول أن ينقذ آخر ما تبقى من حكايته، وجد نفسه في مواجهة مع قصص الآخرين، أصبح عليه أن ينقذ الآخرين كلهم، وجد نفسه في مواجهة الخوف.. ذلك الخوف الذي يتحكم فينا، ويغيرنا، ويدفعنا للهروب.. غير أن الأحداث تجاوزت الخوف والقلق، التردد والحزن.. أصبح الحب رهنا بالحياة نفسها، واللقاء رهنا بالضياع!

إنها رواية استثنائية، الأحداث فيها تتشابك مع الواقع، وتفتش في التاريخ، وتلقي بظلالها الحزينة على أخطاء الماضي، في رحلة للبحث عن حالة تنوير، أو ربما لحظة صدق.



أحمد مهنى

كاتب مصري، شارك في تأسيس ورئاسة تحرير أول سلسلة كتب للمدونين المصريين تحت عنوان "مدونات مصرية للجيب" في عام ٢٠٠٨، نشر مجموعته القصصية الأولى "اغتراب" عام ٢٠٠٩، وصدر منها أربع طبعات، نشر كتاب "مزاج القاهرة" ضمن أدب الاعترافات في عام ٢٠١٢ صدر منه تسع طبعات حتى الآن.

